فاسكو براتوليني

الشوارع العارية

ترجمة ادوار الخرّاط

منشورات دار الآداب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة

١٩٩٧

١

كنا نحب الحيّ الذي نعيش فيه ، وكان الحيّ يمتد من أطراف وسط المدينة وينبسط حتى أولى دور الضواحي ، فيبلغ بداية شارع أريتينا الذي تشقه قضبان الترام ، وتطل عليه البساتين والفيلات والأكواخ الأنيقة التي تسكنها الطبقة الوسطى .

وكان شارع بيلترا بيانا يقطع حيّنا قسمين ، فتقع كنيسة سانتا كروتشي ونهر الأرنو إلى اليمين ، وتقع حديقة النباتات وكنيسة « البشرى المقدسة » إلى اليسار . أما الجانب الأيسر فقد كان يفضي إلى كنيسة القديس مرقس ، والجامعة ، ولذلك كان حياً راقياً قاصراً على العلية ، هادئاً مقفلاً يتحاشاه بسطاء الناس الذين يؤثرون أن يلعب أولادهم في شوارعهم الخاصة بهم ، شوارع سميت بأسماء الملائكة ، والقديسين ، والحرف المتواضعة البسيطة ، وكبار عائلات التجار في القرن الرابع عشر .

وكان من أهم طرق حيّنا شارع مالكونتنتي — شارع الساخطين — وفي تسميته وحدها ملامة دائمة لسكان الشارع . وكان من الأزقة التعسة التي ينشعب عنها شارع دل أنجلو . ويفضي إلى هذا الزقاق شارع أليجري — شارع السعداء — حيث كانت ثمة صورة للعذراء ، رسمها رسام فلورنسيّ خالد ، منذ أمد طويل من الزمن ، وأتت هذه الصورة بمعجزة أثناء الطواف بها في موكب ديني ، « فملأت قلوب الناس بالسعادة » .

وكان الغسيل منشوراً في كل نوافذ حيّنا ، وفي كل خطوة تصادف نسوة

فيهن رثاثة وسوء هندام وإنما كان الفقر شيئاً يتحمله النـــاس بكبرياء ، وهم دائماً على أهبة الاستعداد للكفاح حتى الموت في سبيل الأشياء القريبة إلى قلوبهم. وهؤلاء ، عمال ، أو إذا شئت الدقة نجارون ، وحدادون ، وإسكافيون ، وميكانيكيون وعمال موزاييك ، وخمارات ، ودكاكين يعلوها الوسخ أو تلمع من النظافة والجدة ، ومقاه على الطراز الحديث .

الشارع ، فلورنسا ، وحي سانتا كروتشي .

وقد يحصي أحد الأطفال ما معه من بليات ، وهو جالس ببراءة على عتبة بيت للدعارة في زقاق اسمه شارع روزا ، وقد يقف رجل ليقضي حاجته على حائط علقت عليه لوحة معدنية لتخليد ذكرى بيت ليوباردي . وقد تحس بنت حلوة بالفخر والزهو لأنها تسكن في شارع دلا بنزوشيري ، وهو شارع من أقل شوارع حيّنا قذارة ورثاثة حال .

كنا مجرد ناس لا امتياز فينا ولا تفوّق . إيماءة قد تثير فينا الحب أو الحقد. وكانت حياتنا تجري وتنساب في هذه الشوارع والميادين كما يجري النهر في مهده. فهو أحياناً دوامة تغرقنا في عمل يائس من أعمال التمرد . فلم يكن جزافاً أن تقع سجون المدينة في حيّنا ، لقد عرفنا أن نعقــد خيوط عواطفنا المشبوبة في عُقد وثيقة ، في لفائف من الأحقاد الخاصة ، ومشاعر الولاء والوفاء الخاصة . كنا جزيرة في وسط جـــدول ينساب ، دون توقف ، في شارع بياترا بيانا ، ينساب بين عربة اليد التي يدفعها بياع الكرشة المتجول ، ونصبة بائع الخضر ، ينساب في الطاقة التي تباع فيها فطائر القسطل — جدول ينساب في أول قوس سان بييرو إلى بوابة ألاّ كروتشي .

لم نكن نفرغ من أعمالنا إلا بعد الساعة السادسة مساء ، ولم يكن للحياة والصداقة والدفء وجود حتى نعود إلى البيت في شوارعنا وساحاتنا .

ولم يكن علينا لبلوغ وسط المدينة ، حيث تقع المقاهي الأنيقة وموسيقاها ، إلا أن نسير في شارع الكورسو الذي كان يبدأ في الواقع من قوس سان بييرو .

ومع ذلك ففي كل مرة كنا نقطع فيها هذه الرحلة الوجيزة كنا نشدّ من أنفسنا لنقاوم شيئاً معادياً لنا ، شيئاً أجنبياً عنا . كنا ناساً أبرياء ، نرتبط بالحي الذي نعيش فيه بالعادة ، أو الكآبة ، أو الحب – بشيء مشبوب عنيف حاد في الحياة هناك . بل أولئك منا الذين كانوا يشتغلون في مصانع تقع في الضواحي ، كانوا يطيرون بدراجاتهم في جنون على طول الشوارع حتى يعودوا إلى إلف الحي ويستمتعوا بالأمسيات التي كانت لنا ، أمسياتنا .

هناك عشنا الصبا . وكان اخوتنا الصغار ، يكررون حركاتنا اذ يلعبون ما علمناهم من لعب ، أو يبتكرون لعباً ما كانت تبدو لنا شائقة جداً . فإن كنا نقف لانتظار البنت ، في شارع ديل فيكو ، أو شارع دي ماكي ، أو ساحة سانتا كروتشي ، كان اخوتنا الصغار يأتون فيلحّون ويضيقون علينا لكي نسمح لهم باقتراض الدراجة ، ويطيرون خفافاً . كان باستطاعتهم أن ينطوا على الدراجة ، فيضعوا إحدى الساقين على البدّال من الوسط ومن تحت عجلة القيادة.

وكانت البيوت معتمة ، باردة رطبة في الشتاء . والموائد التي نأكل عليها فيها شقوق طويلة لا نحس وجودها ، إلا في تلك المناسبات النادرة التي نكتب فيها خطاباً .

وكانت بيوتنا مع ذلك نظيفة ومهندمة ، تعنى بها أمهاتنا ، وعلى أكتافهن الشيلان ، وفي شعرهن شيبة . وفي الغرفة التي كنا نتناول فيها الطعام – وكنا نسميها غرفة الجلوس – كانت توجد أقراص حمراء من السلقون الحلو الرائحة ، وكنبة مكسوة بفرش من الدنتالا ، وصور فوتوغرافية معلقة على الأبواب الزجاجية أو على « البوريه » ومنبّه . وأغنيات أخواتنا ، في صباح الأحد ، حين كان بمقدورنا أن نسمعها في هدوء وراحة بال ، كانت شيئاً له بهجة ، تعيد لغرف البيت سعادتها وطراوتها ، وتكسو الحيطان الباهتة بأستار وثيرة من الدمقس .

لم يكن البيت نفسه يعنينا في كثير ، بل لم نكن نلحظ أن المصابيح

الكهربية الصغيرة ، المستخدمة على سبيل الاقتصاد والوفر ، كان يستحيل معها أن نرى طرف الغرفة من طرفها الآخر ، ولم يكن يكربنا ان نضطر للاغتسال في حوض المطبخ . والسرير الضيق الذي ننام فيه ، وقد علق فوقه بمسار صليب أو صورة قديس ، كان يعرف الآمال التي تداعبنا إذ نتملى الشقوق في السقف . وكان احد ادراج المكتب درجاً خاصاً لا يقربه احد ، فاذا ما بلغنا سناً معينة كان لنا الحق في ان نقفله بالمفتاح ، ليصون سر صورة أو صورتين عليها اهداء لنا ، أو لعله مسدس . كان البيت في أعيننا هو ملامح اولئك الذين يعيشون فيه ، ولذلك كنا نحبه .

لم نكن نعرف شيئاً ، ولعل رغبة في التعليم لم تكن تخامرنا ، ولكننا كنا نواعد أنفسنا بصنوف من المرح شريفة ، وبأن نزيد مكسبنا من الشغل ، وان نزداد حذقاً وشطارة ، وان تكون لنا بنت نصاحبها ، وبنت اخرى بعدها ان امكن . ثم نتزوج واحدة ، بجدّ ، وننام معها في سرير عريض ، ونمارس معها الحب ، بكل قوانا .

كانت شوارع الحي وساحاته حياتنا ، وكانت تلك شوارع وساحات فلورنسيّة عريقة المحتد ، « شاب شعرها من الشيخوخة » كما كنا نقول ونحن نتضاحك . وقد نقف مع ذلك على ناصية الشوارع ، تحت القوس نفسه الذي تلقّى فيه النبيل كورسو دوناتي طعنة الموت في ١٣٠٨ ، ولا تساورنا ادنى شبهة في الميراث الذي كان من نصيبنا . ذلك أننا كنا ما نزال ، كما كان شأن اسلافنا دائماً ، من صغار الناس ، من العمال المتواضعين ، وقد نسينا ماضينا . كنا ثواراً متمردين ، وقد غدرت بنا حماقتنا وغباوتنا .

كان وهج محل السندويتشات يلقي بضوئه الساطع على نصبنا التذكارية ، وكانت تعلق بها ، من محل الشواء ، روائح البطاطس المقلية ، والأرانب المشوية ، والبصل والثوم .

وكان وسط المدينة شيئاً ما أبعده عن جمهوريتنا تلك . كان يمثل في أعيننا

حضارة ميتة ، وارض الذهب والأحلام ، في الوقت نفسه . كان علينا ان نغتسل ونحلق ذقوننا ، اذا شئنا الذهاب هناك ، وان نرتدي احسن هندامنا . امـا الأحياء الأخرى من المدينة فقد كان يقطعنا عنها شعور مبهم وان كان حقيقياً ، شعور بالتنافس . وقد نلمّ صفوفنا ثم تمزقنا الخلافات بعـد لحظة حول مسائل مثل سباق القوارب على الأرنو في الصيف ، او مباريات كرة القدم يوم الأحد ، او مراحل سباق الدراجات الكبير في دورة ايطاليا للدراجات .

ونقف على باب القهوة ، والراديو يجأر صارخاً ولا احد يسمعـــه ، نرقب البنات في الشارع ، ونثرثر ، ونذهب نلعب البليـاردو ، ونتمشى بعد العشاء في اتجاه شارع روزا ، وقد يأخذنا الاهتمام احياناً بدراجة بخارية ، ونركبها بالدور ، خلف السائق او الميكانيكي المسؤول عنهـا ، ونلف الشوارع في البلد ضجة وزعيقاً . وكنا ننقسم شيعاً وطوائف عدة ، تبعاً لصداقاتنا وعلاقاتنا ، أو حسب مقتضى الأحوال .

٢

اعترف كارلو ذات يوم انه يحب ماريا ، فأدى ذلك الى معركة مع أريجو . كانت ماريا اخت أريجو. وفي ذلك الوقت كانت تشتغل في محل للملابس بالمدينة. كانت تضع الأحمر على شفتيها ، ولكنها كانت تمسحه بأصابعها إذ تطلع السلالم في طريقها الى البيت . كانت بنتاً مونعة رابية ، صوتها دافىء خفيض يكسب كل كلمة رنة خاصة ، فتبدو محمّلة بمعنى من معاني الخطيئة . وقد اشترت لنفسها اخيراً حقيبة يد كانت تفتحها باستمرار وهي تمشي ، لكي تنظر لنفسها في المرآة .

وقال جيورجيو : هي مغرورة ، بنت فجة ، لا داعي للعراك على بنت كهذه .

وحتى أريجو بدا كأنما يوافق على ذلك فقال : لو عرفتم كيف تحطم أعصاب امي ، ولكنها اختي على كل حال .

كنا في ساحة باكاربا ، وقد خرجنا على التو من السينما ، وفرغنا من الحديث عندما لمحنا الحاوي وكلابه المدربة على وشك القيام باستعراضاته .

كان في اول الأمر يجذب حواليه حشداً من الناس بأن يوازن عصا طويلة على ارنبة انفة ، وهو يخشخش ويلعب بالحلق ، في الوقت نفسه . ثم يحول دون اكتظاظ الناس حوله بأن يدير كرة من الخرق ، بسرعة ، في طرف قطعة من الخيط طويلة مشدودة فيتراجع المشاهدون ، ولكننا كنا نلتقط الكرة ، في طيرانها السريع ، وننتزعها من يده . فيلعننا ويسبنا بأعلى صوته بينا نحن نلف

الخيط حوله كما لو كان بكرة ، وتقف الكلاب ، وعيونها كالخرز تخفيها قصة ملبدة من الشعر ، على ارجلها الخلفية ، وتنبح .

وكان الناس دائماً يقفون في صفنا ، فذلك يسلّيهم . وكان الحاوي شخصاً بائساً عجوزاً وجهه كالعجين ، وله صوت كصوت الخصيـــان ، وكان يصيبه الهوس ، فيتضرع إلينا ان نكفّ :

– الشلة نفسها دائماً .. يا اولاد الحرام ، ستخربون بيتي ..

ويضحك الجمهور ، فاذا نالنا التعب من اللعبـة رددنا له كرته وخيطـه ، ويبدأ الاستعراض . وكان يُلبس كلابه ملابس المهرجين ، او الحواة ، وقبعات مخروطية مطرزة بالنجوم ومثبتـــة بخيط من المطاط تحت ذقونها . وكانت الكلاب تدور وتنط في دائرة ، بين ساقي سيدها ، بينما يتمشى متظاهراً انه لا يلحظ شيئاً . وفي النهايـة يذهب احد الكلاب ، واسمـه لولى ، فيلف على الجمهور وفي فمه صحفة معدنية ، يجمع النقود .

وبعد ذلك اخذنا نتساءل مـاذا نفعل . كان جينو يريـد ان يبقى ليشاهد السينما مرة اخرى ، أما جيورجيو فقد كان عليه ان يغادرنا لأن امه كانت تحتاج إليه . وعلى ذلك بقيت مع الخصمين المتصالحـين كارلو وأريجو ، فتكلمنـا عن السينما ، ودبرنا مشروع رحلة إلى التلال يوم الأحد التـــالي ، ونحن نتجه الى سان بييرو ، ونقف لحظات امام محل للزهور لننظر الى نبات مزهر لم نكن قد رأيناه من قبل .

ومرت لوسيانا وبنت اخرى ، كانتا تتأبطـان ذراع احداهما الأخرى ، وتضحكان في هيجان ، فلم تلحظانا . ورأينا شابين يرتديان بناطيل طويلة ، يتتبعانهما . كان اصحابي يعرفون أنني احب لوسيانا . وأصابتني لذعة مفاجئة من الغيرة ، فقـد أذلني انني كنت ارتدي بنطلوناً قصيراً ، وان لي وجـه ولد في الخامسة عشرة من عمره، وليس على شفتي العلوية الا خط باهت من الشعر الخفيف الأسود ، ولم أملك إلا أن يتضرج وجهي .

كان كارلو اكثر افراد الشلة حيوية وتوفزاً ، او لعله اشقاهم واكثرهم تعاسة . وكانت سخريته وكلبيّتـه المبكرة تنخسني دائماً وتستفز خجـلي . فأشار الى لوسيانا قائلاً :

– فهي اذن تهجرك ، هه ؟

وضاق صدري ، كان في نغمة صوته غلّ وحقد ، وكانت عيناه صفراوين كعيون القطط أو تكاد . وكان يحدق بي ، مضموم الشفتين ، ويبتسم ، اذ يرى تضرج وجهي ، ابتسامة صفراء .

فرددت : ولماذا ؟ لست رئيساً لها ، وهي لا تعرف حتى انني ..

وكنت اريد ان اكمل : انني احبها ، ولكني لم استطع ان انطق بها .

كان قلبي يخفق بعنف ، واستدرت ناحية محل الأزهار ، فظهرت على زجاج النافذة ضبابة خفيفة من انفاس ، او لعلها ضبابة في عينيّ من الدموع . وشدني أريجو من ذراعي وقال :

– هيا بنا ، يجب ان اشرب سيجارة ، هل تأخذ نفساً ؟

فقبلت السيجارة ، ولكن كارلو انتزعها من يدي قائلاً :

– يا مغفل ، امشِ وراءها ، أوقفها وإلا خطفوها منك .

وأكمل أريجو :

– نعم .. هيا .. يالله ..!

ودفعاني دفعاً خلف البنتين ، وقد اصبح واضحاً جداً أن الشابين يتبعانها . وكان قلبي يخفق ، وكنت سخناً ومتعبـاً كما لو كنت قد جريت طويلاً ، ودفعت خصلة من الشعر إلى الوراء عن جبهتي .

كانت لوسيانا وصاحبتها – وكنت أعرفها فهي بنت اسمهـا ماريزا تسكن بالقرب من مادونا ، ولها ، من الآن ، سلسلة من الأصحاب – قد بلغتا بوابة لا كروتشي حيث انفصلت احداهمـا عن الأخرى ، فسلكت ماريزا شارع اريتينا ، بينما دلفت لوسيانا الى شارع فيالي في طريقها الى البيت . وانفصل

الشابان أيضاً ، كما لو كان ذلك مدبراً ومرسوماً ، كل منهما يتبع الفتاة التي اختارها .

وسارت لوسيانا قريبة من الأشجار على جانب الشارع ، كما لو كانت تتجنب الرصيف عن عمد . وقد هبطت العتمة الآن ، وكان قدها الصغير يدخل حلقات النور من مصابيح الشارع ويخرج منها . وطاف في خاطري أن أجري، فأتجاوز الشاب وألحق بها وأصاحبها ، ولكني كنت أخشى أن تضيق بي ، بل أن أفقد صداقتها . وجرى العرق بارداً على جبهتي ، وأحسست أنني على وشك الاغماء ، وكان في نسيم الشارع الهادىء ما يكفي لأن يبعث فيّ قشعريرة تنفضني نفضاً ، وحرصت على ملازمة الرصيف ، ودرت حول حائط كانت تدور في داخله لعبة البيلوتا ، وبلغ اذني ضجيج اللعبة وصريخها، ومرّ بي ترام وهو يصطفق بالقضبان وينوح اذ يلف حول شارع ديل أنجلو .

كان الولد قد لحق بلوسيانا وكان يسير الى جوارها ، وساورتني رغبة في الهرب ، ولكني كنت أخشى أن يكون أصحابي يتتبعونني . لم يكن في طاقتي أن أواجه ذلة سخرهم بي ان انا قفلت راجعاً ، وكان الاثنان أمامي يسيران الآن على مهل فاستطعت أن أراه يدخن ، وواصلا السير في شارع فيالي حتى بلغا لونجارنو ، وأطللت عليهما من خلف برج دلازيكا ، وأنا اغص واشرق بالبكاء . ووقفت عزبة نقل امامي بالضبط فأخفتهما عني ، ونزل السائق منها وأخذ يعبث بغطاء المقدمة .

كنت على وشك الذهاب الى الركن الآخر من البرج ، واذا بيد تمسك بكتفي وتديرني حول نفسي بالقوة ، وتنهال عليّ ضرباً . وامامي كان الحاوي، في ثورة عاصفة ، وكان يزقزق في صوت الخصيان :

-- حاول أن تلعب لعبتك مرة أخرى غداً .

وكان على كتفيه صندوق يضع فيه اعمدة استعراضه ، وقد خفضت عيني لأستعيد حواسي ، وليس لدي ادنى نزوع لأن اضربه. اما الكلاب فقد كشرت عن انيابها ، واخذت تحملق في . حتى الكلاب ، كانت اعدائي .

٣

كنت أقيم بالمنزل رقم ٢٥ شارع دي بيبى ، بالدور الثاني . وكان المنزل على الناصية . ولذلك كان المطبخ وغرفة الجلوس يطلان على شارع ديل أوليفو . وكانت رائحة الاصطبلات من تحت ، تشيع في المنزل ، وبالليل كان بوسعك أن تسمع دق حوافر الخيل . وفي الصبح كانت العربات تصطف أمام الرصيف ، والسايس ايجيستو يفرقع ويصفق بجرادله ، ويسكب المياه ويمسح الطين والوسخ .

فاذا ظهرت في النافذة كان يقول :

– نائم هه ، يا قزم ؟ ليتني كنت في مكانك .. !

كان ايجيستو صغير القدر ربعة ، وله رأس هائل ووجه محتقن من السكر – أو لعله مقرور دائماً . وعلى ذقنه شامة شعراء يفتلها ويلعب بها كما لو كانت شارباً .

وكان الحوذية يتجمعون وينكمشون متقاربين معاً ، يثرثرون ، عند باب الاصطبل . وكانت اصواتهم خشنة ، غليظة بالبلغم . ويمر صبي الفران وتحت ذراعه سلته ، وهو يزعق :

– عيش طازه .. !

وكان المنشار يبدأ أزيزه ، قبيل ذلك بلحظات. ويواصل الأزيز والطنين بقية اليوم . ثم يأتي اوتوبيس الصباح الباكر من الريف ، وينزل حمولة من الفلاحين

والمزارعين، وربات البيوت الآتيات الى البلد يقضين حوائجهن . فاذا كان الفصل ربيعاً ، تكوّمت حزم عالية من الميموزا فوق سقف الاتوبيس . وفي خلال ذلك كنت أتخذ استعدادي لأخرج . كان من دأبي ان أذهب مع أبي ، وقد عثر لي على شغلة صبي في الدكان الذي يعمل به . كان يضعني على مقود دراجته ؛ وننطلق معاً ، وأنا احتضن لفة الغداء تحت ذراعي . وكان يقف ، دائماً ، ليأخذ كأساً من « الجرابا » في بار سان بييرو . ويطلب لي قهوة باللبن كنت أغمس فيها الرغيف الذي لم تكن جدتي لتغفل أبداً أن تضعه لي في جيب قميصي . ونعود الى الدراجة ، ونستدير في شارع بينقي . واذ نبلغ شوارع المدينة الرئيسية ننتظم في موكب العمال على دراجاتهم ، وأنا في الغالب ما زالت تخامرني سنة من النوم ويبدو كما لو كانت أصابعي قد تجمدت على مقبض الدراجة .

وكنا أحياناً نلتقي بماريا في شارع ديل أوريفو لو . فاذا مررنا بها كانت تتطلع مزهوة بنفسها الى مرآتها ، أو تتعلق بذراع شاب لا نعرفه . وكان أبي يقول لي :

– الله .. أنت تترك كل بناتنا يهربن مع الغرباء ..!

ويضحك وينخسني بمحبة على مؤخرة رأسي .

فكنت أرد :

– ما عليك الا أن تعمل لي بنطلوناً طويلاً ، وسترى .

– يا ولد يا أحمق ، ليست البنطلونات الطويلة هي المهمة . انتبه ... الترام.. ليس هذا وقت الكلام .

وينحرف بعنف ، وهو مرح معتدل المزاج كنا صديقين ، أنا وأبي .

كانت ماريا وأريجو يقيمان بالدور الذي يعلو شقتنا – وكانا ينامان ، مثلي، في غرفة الجلوس ، سريرين سفريين يقامان كل ليلة على جانبي المائدة .

وكنا نترك النوافذ مفتوحة في الصيف – كانت ليالي الصيف خانقة تكتم

النفس ولا نسمة من هواء.وانما زهمة الخيل الحريفة من الاصطبل . ولذلك كنت أسمع ماريا وهي تتكلم في نومها . لم اكن اتبين شيئاً من كلامها ، وانما كنت اسمع اريجو يصيح : « كفى ، اخرسي ! » ثم صوت امها من الغرفة المجاورة تقول لها : « ناما ، ناما » .

ثم صوت ساعة الحائط وهي تدق ، فاذا اتفق ان كنت واقفاً بالنافذة ، انظر الى النجوم واعدّها ، فقد كنت اهوى ذلك ، احسست بماريا وهي تضطرب دون راحة في سريرها عند كل دقة من دقات الساعة ، لكنني لم اقع في هواها ، لم يكن ذلك ليروق في عيني أريجو ، وكنت اعتقد ، على اي حال ، أن ماريا اكبر سناً بكثير ، كانت من الآن ، تعيش في عالم لا اعرف عنه شيئاً ، شفتاها مصبوغتان بالأحمر ، وحقيبة يدها ، وهناك شاب دائماً إلى جانبها ، وعندما كنت اصغي الى حركتها القلقة في السرير يعتريني هيجان واقول لنفسي :

ـ اراهن ان شاباً كان يحضّن فيها ..

ثم تزحف إلى مسامعي همهمة صوتها المبحوح ، فأتذكر حركتها وهي تتطلع الى نفسها في المرآة ، أو تربط حزام معطفها وثيقاً محبوكاً تحت نهديها حتى تتضح معالم جسدها .

كانت ماريا ، فترة من الوقت ، هي خطيئتي . كنت افترع لنفسي تخيلات شبقية عنها ، أما وجودها الحقيقي فقد كان يخليني بارد الحس . لا ، كانت لوسيانا هي حبيبتي ، دم حياتي نفسها ، البنت التي كنت على أهبة الاستعداد لأن أنافح عنها ، وأدافع .

وفي ذلك الشتاء من سنة ١٩٣٢ كانت ماريا مثاراً للقيل والقال في حيّنا ، وعلى عتبات المنازل كانت النسوة ترفع أيديهن إلى جباههن، ويحظرن على بناتهن أن يرددن على تحية ماريا . وكان أريجو يمرر الاسفنجة المبلولة على جوانب العربات ، ويغني أغنية بذيئة مقصودة عن بنت فقدت بكارتها .

أيها الاسمر الجوّال الصغير
لقد كسرت لها ابرة الخياطة
بموسيقاك ولعبك على الاوتار
وجعلتها تموت
من فرط الهوى .

ففتحت أم ماريا نافذتها ، ودلقت سطلاً من الماء على رأسه ، وهي تصرخ : « يا حيوان ، يا قذر » وصوتها يغصّ بالدموع . وكنت تسمع ، طول النهار ، وقع الخطوات تذهب وتؤوب بين غرفة النوم وغرفة الجلوس ، في الشقة العلوية ، والبكاء والزعيق . وعلى السلالم ، على عتبات البيوت ، عند الفران ، وعند البقال ، كانت النسوة تتمتم :

– هذا ما يحدث عندما لا يوجد بالبيت رجل .

– غلطة أمها . كان يلزم أن تفتح عينيها عليها . هل نقفل الاصطبل بعد ما هرب الحصان ! لا فائدة .

وتساءلت امرأة الفران :

– كيف بدأت الحكاية ؟

وقبل أن تجيب النسوة على سؤالها ، رفعن أيديهن إلى جباههن : تطيّراً ، كما تقضي العادة .

– بدأت الحكاية ؟ ببرنيطة جديدة بدأت الحكاية . والبنت التي لاحياء عندها قالت إن صاحب المحل أعطاها لها ، على سبيل الاعلان . وانتهى الأمر بأن باتت بالخارج طول الليل .

يا يسوع ، يا عذراء .. ! يا أم المسيح المقدسة .. !

تلك كانت صيحات غريزية عند نسوة حيّنا عندما سمعن الحكاية ، فهن متزمتات شيئاً ما فيما يتعلق بمثل هذه الأمور . ولكن احداهن خبطت على الباب ، وذهبت تخلّص ضيق صدرها بالبكاء طويلاً مع أم البنت . ولم يكن

بعد ذلك مجال لضرب الأخماس بالأسداس ، ولا لـــلوك الفضيحة . فأكثرهن تشدداً طلعن من عندها وهن يهتفن :

– وماذا في الأمر ؟ كانت في الحجل طول الليل ، ما العيــب في ذلك ! ألم تسمعوا عن « الاوفرتايم » في المحلات ؟

وكن ما زلن يساورهن شيء من ريبة ، مع ذلك ، وينفضن رؤوسهن وهن يتكلمن . ولكنهن كن يأخذن بخناق من يجرؤ أن يبتسم في سخرية .

وفي أثنا العشاء ، تكلم أبي :

– طيب يا قزم ، هذه نهاية مشروعاتك . كان الموت أحسن لها .

وانفجر ضاحكاً . فضربته جدتي على عقـُل أصابعه بالملعقـة . وصاحت في حنق : « عيب ، عيب ، ألا تستحي ؟ » .

كانت ليلة شتوية ، وكنت جالساً إلى المائدة آكل ، وقـــد وضعت احدى يدي بين فخذي ، وقد تجمدت من البرد . كان التهاب أصابعي من البرد يوجعني. وكان أبي يتلفع بمعطف الجيش على كتفيه، كالعادة . وما زال مرتدياً قبعته وهو يأكل حساء بالكرنب الأحمر .

وتساءلت جدتي .

– كيف ربينا هؤلاء الأولاد ؟ في الشوارع ، هه ! علينا يقع اللوم .

ولم يقل أبي شيئاً . كان مشغولاً يشفط حساءه . ثم قال :

– لم يكن أبوها يستحق هذا . صدقيني .

وسمعنا خبطة على الباب . وفتحت جدتي . كان جيورجيو بالباب .

– فاليريو هنا ؟

ودخل . لم نكن قد التقينا منذ أسابيع. كان يسكن عند عائلة من الفلاحين من ذوي قرباه ، ليساعدهم في جمع محصول القسطل . وكان يبــدو أنه كبر في السن . كان في الحقيقة أكبر افراد الشلة سناً ، في السابعة عشرة. كانت له عينان زرقاوان وشارب أشقر وشعره أصفر مجعد . وكان تلـــك الليلة يرتدي معطفاً

قصيراً لا يصل إلا فوق ركبتيه ، وسراويله منتفخة .

وقـــال :

ــ أحضرت شيئاً من القسطل .

فقدم له أبي شراباً . وجلس جيورجيو إلى المائــدة . كان على وجهه تعبير رصين مهموم . وسكتنا جميعاً لحظة ، وكان بوسعنا أن نسمع الناس يسيرون جيئة وذهاباً ، في الشقة العلوية .

وسأل جيورجيو .

ــ كيف الحال فوق ؟

وأجاب أبي :

ــ أهه ، أنت عارف .

فقلت :

ــ لم استطع أن أقابل أريجو ؛ لقد صعــدت لأراه ، لكنهم لم يردوا عليّ . وسمعت أريجو يقول : « لا تفتحوا الباب . لا أستطيـع ان احتمل العار » .

وقال جيورجيو :

ــ سمعت الحكاية الآن ، في طريقي إلى البيت . ربما كان كله كذباً .

وابتسم أبي عــن ناجذيه . وشرب كوب النبيــذ حتى آخره وهو يمصمص بشفتيه . وهتف :

ــ إيه ... وكل الاولاد العفاريت الذين كانت تدور معهم . تعرف ، أنت ضاعت منك فرصة طيبة ، في هذه الحكاية ..!

وكانت جدتي تنظف المائدة ، فزعقت :

ــ كفى ، كفى .. يا صعلوك أنت ..

فقال :

ــ آه طبعاً . كلّه كذب ، البنت المسكينة كانت تشتغل بالبرانيــط طول الليل صحيح ، تشتغل بالبرانيط ، أربعاً وعشرين ساعة على طول .

ثم استطرد :

– لا أعرف لماذا يركبكم الهمّ يا أولاد . في أيامنا ، عندما كان الواحد منا يعلق ببنت ، لم يكن يقعد ينتظر أن يخطفها منه غريب . خصوصاً واحد من حيّ آخر .

فسألت :

– وما شأن هذا بالمسألة ؟

ولكني كنت محرجا . ونظرت إلى جيورجيو ، لم أكن قد رأيته بهذا الجد أبداً .

فنهض وقال :

– احضرت لهم شيئاً من القسطل أيضاً . من الخير أن أطلع لهم به .

فقال أبي ، عندما همّ بالخروج :

– شدّ حيلك ياجيورجيو. الدنيا ما زالت مليئة بالبنات .

لم أكن قد أدركت ابداً من قبل أن جيورجيو يحب ماريا . وبدأت ادرك ، للمرة الأولى ، أن الرجال يحملون اسراراً في قلوبهم ، وأن في قلب كل رجل قد يوجد شيء مخبوء حتى عن أعز اصدقائه ، مخبوء خلف قناع ، في غور عميق .

وأشقتنى هذه الافكار ، ووضعت مرفقي على المائدة ، ورأسي بين يدي ، وأخذت أبحث في داخلي عن سرّ لم أشارك فيه أحداً أبداً . ولم أجد شيئاً لا يعرفه جيورجيو ، أو أريجو ، أو جينو . وعندما نظرت في داخلي كان ذلك كما لو كنت تحدق في بئر جف عنها ماؤها منذ أمد طويل . كنت على وشك البكاء.

قال أبي :

– قم نم . انت نعسان .

– لا ، لست نعساناً . قل لي يا أبي ، هل عندك أسرار ؟

– كلنا عندنا أسرار ، يا بني . أو ، ليس اسرار ، بل آمال .

– وما هي آمالك ؟

ـ لو قلت لك لما عادت أسراراً ، أليس كذلــــك ؟ ولكن لماذا تسأل ؟ أليست لديك أسرار ؟ أليس لديك أمل واحد، حق ، أمل خاص بك وحدك؟

وجاءت جدتي من المطبخ بعد أن غسلت الأطباق،وجففت يديها على مريلتها ورفعت موقدة الفحم الصغيرة على الكرسي ، واستدارت إلى أبي :

ـ كفاك تحشو رأسه افكاراً . أسراراً ، قــال . قم إلى السرير . خسارة النــور .

فنهض أبي :

ـ أنا خارج .

ـ نعم ، هذا هو أملنا . الخمّارة . هــذا هو محطّ آمالك . على بعد بضــع خطوات .

ـ ربما كنتِ على حق . وربما كان أبعد من ذلك قليلاً .

* * *

٤

وبعد سنوات حكت لي ماريا كيف طلع جيورجيــو السلالم ، بعد أن تركنا ، ودقّ على بابها . وفتحت آرجيــا ، وهي امرأة من الدور الأول ، كان طفلها نائماً على ذراعيها ، فقالت وهي تؤدي به إلى غرفة الجلوس :

ـ انه جيورجيو .

كان أريجو يجلس إلى المائــدة ، وماريا على السرير السفري . وعندما رأت جيورجيو أخذت تربت بيدها على شعرها تسوّيه،ومرت بإصبعها تحت عينيها.

ـ احضرت لكم شيئاً من القسطل ، اذا تفضلتم بقبوله .

لم يجب أريجو ، كان قد أحنى رأسه على المائـدة ، وكان ينفخ على اصابعه ليدفئها .

وقالت ماريا :

– أشكرك . لقد تذكرت ما وعدت به .

ومن غرفة النوم جاء صوت امرأة عجوز. وقالت أرجيا على سبيل التفسير :

– أمهم في السرير . لقد أغمى عليها . قلبها ، المسكينة .

فقال جيورجيو :

– آه .

ونظر حواليه في الغرفة . كانت عيناه زرقاوين ، فيهما صلابـــة وتصميم ، كحجرتين زرقاوين باردتين . ووضـع كيس القسطل على المائدة .

– ماذا هناك يا أريجو ، لقد احضرت القسطل .

فأجاب أريجو :

– نعم ، أشكرك .

كان يتجنب عيني صديقه . كان قد نهض واقفاً الآن . ومن الواضح انه كان يلم شتات شجاعته ليواجه ماريا ، ولم يكن في وسعه ذلك إلا بـــأن يلجأ إلى العنف . كانت ما زالت تجلس على السرير السفري . فاستدار اليها فجأة :

– ماذا ؟ هذه هي الحكاية يا جيورجيو . انهـــا هناك . انت على حق ، فهي مغرورة ، بنت فجة ، وألعن – عاهرة .

وبقيت البنت ساكتة ، بلا حراك ، ورمشت عيناها لحظـة قصيرة . كانت جافة العينين ، وفي نظرتها نوع من الحقد المعتم المكتوم ، وفي صوتهـــا رنة من السخرية والتوقح ، وهي تهتف :

– وماذا في الأمر ؟

وظهرت على باب غرفة النوم امرأة عجوز بنظارات ، وعلى كتفهـــا شال ، وقالت توبخهم في هوادة :

– كفى يا أولاد . أمكم مريضة ، وحياة دينكم .

عاد أريجو إلى المائدة ثانية ، ورأسه على ذراعيه ، ولعله كان يبكي – فهزه جيورجيو من كتفيه ، وأنهضه وقال لماريا :

– تعالي معي ، أنتِ أيضاً .

وأخذهما من أيديهما ، يكاد يجرهما جراً إلى غرفة النوم ، حيث كانت الأم ترقد على السرير ، شاحبة ، تبدو كما لو كانت على عتبة الموت . وكان نفَسها ، في الغرفة المثلوجة ، يخرج من شفتيها نصف المفتوحتين ، في شهقات خشنة ، ويتكثف في هبوات خفيفة من الضباب . وذهبوا جميعاً إلى السرير . وعندما اقتنع جيورجيو بأن العجوز المريضة قد عرفته ، أخذ يتكلم ، ببطء ، وينتقى كلماته بعناية :

– هذا أنا ، جيورجيو . كانت ماريا معي أنا ، في تلك الليلة . نحن خطيبان . اصفحي عنا . هذا ما يفعله الشبان أحياناً . ولكننا الآن سنعمل حفلة خطوبة في البيت . ان أمي تعرف كل شيء . اننا سنتزوج .

ثبتت المرأة المريضة عينيها على جيورجيو . كانت بشرة وجهها مصفرة شاحبة ، شأن النسوة اللاتي يشخن قبل الأوان . وكان شعرها الأسود مفروشاً مشعشعاً على الوسادة ، وملبداً على جبهتها بحبات من العرق البارد . لم تتكلم . وكان يبدو أنها تجهد أن تفعل ، ولا تطيق . وقد بقيت تحدق إلى جيورجيو بعينين مفتوحتين على سعتها . كان واضحاً أنها تتشرب كل كلمة ، في ظمأ . وأطاقت أخيراً ، بجهد كبير ، أن ترفع ذراعها لتمس يدي جيورجيو وماريا . وفي بطء ، في بطء امتلأت عيناها بالدموع ، وفاضت بهما الدموع ، تغسل وجنتيها المخددتين الشقيتين في دعة .

اما المرأة العجوز ذات الشال ، وقد كانت واقفة على رأس السرير ، فقد دست الملاءات تحت ذقن المرأة ، وقالت :

– ألم أقل لكم ؟ لقد انتهى كل شيء على خير . جيورجيو ولد طيب . وكل

واحد في الحيّ يعرفه .

وأخذت أرجيا تعلق ، من الباب ، وطفلها ما زال نائماً على ذراعيها :

– نعم ، هو ولد طيب حقاً .

وقاطعها جيورجيو :

– ليس هذا وقت المجاملات . لم أفعل إلا واجبي . وسنعنى نحن بماما ، فلا داعي للتعب . شكراً .

وتركت المرأتان الغرفة . واستدارت المرأة العجوز على الباب وقالت :

– سيرجع الدكتور غداً صباحاً . وقد أكد علينا أن تأخذ نقط القلب ، على الخصوص .

وكانت المرأة المريضة قد أخذت تنعس الآن. فتركها الشبان الثلاثة وحدها. وعادوا الى غرفة الجلوس . وأخذوا يترامقون في صمت ، ويتساءلون ماذا يقولون الآن . وانهار أريجو فجأة على السرير ، وهو ينشج ويبكي ، ويضرب المرتبة بقبضة يديه ، يعض البطانية ليكتم نشيجه .

– لماذا فعلت ذلك ؟ كلنا نعرف أن ذلك غير صحيح .

وجلس جيورجيو معه ، يطايبه ويهدىء من روعه ، وفي صوته مع ذلك نغمة من السطوة والسيطرة ، فقال :

– كفى . لا تثر كل هذا الضجيج . كفى اعمالاً طفولية . هدىء نفسك ، ولنتكلم في الموضوع .

كانت ماريا تقف بالقرب من المائدة ، تتطلع إلى نفسها في مرآة « البوريه ». وتتيقظ في نفسها ثقة بنفسها ، ثقة بالنفس وسلام وسكينة . والحبال التي كانت توثقها وتضيق عليها في الأيام القليلة الأخيرة بدا كأنها تنزلق وتخف عنها ، وشعرت بالحرية مرة أخرى في أطرافها ، وأحست في داخلها توقاً حاراً ونزوعاً يرتفع نحو جيورجيو وحساً بالدفء المتراخى ، كما تتمدد ، في الصبح ، مستريحاً رخياً بعد نوم مضطرب . ونظرت إلى شعره واشتهت أن تمسه . وفتحت

كيس القسطل ، فأخذت واحدة وعضتها . كانت حركتها لا تأتي عن تفكير ، حركة جامدة ، كما كان ذهنها لا يعقل، وجسدها متراخياً ، على استعداد للتسليم.

وكان أريجو قد هدأ الآن. ولم يعد يهتز بشهقة نشيج إلا في لحظات متباعدة. واستسلم للنوم كطفل منهوك .

وقال جيورجيو :

– اطفيء النور . فهو قد نام .

واطفأته ماريا . وبسط جيورجيو البطانية عليه ، وسحب يـده بلطف من تحت رأسه . وكان عندئذ يترنم بأغنية نوم لهدهدة الأطفال .

***

٥

كانت أمسية شتوية ، في فبراير ، على ما اعتقد ؛ وكان الحوذية يدخلون عرباتهم الى الاصطبل ، لتبيت فيه ليلتها. وكانت الجماهير الخارجة من آخر حفلة لسينما « روما » تملأ الشارع بالصخب ، من باب شارع ديل أليفو . كانت ليـلة قمرية بديعة ، وفي السماء كثرة من النجوم كانت لتغريني، لو كنا في الصيف، بأن أبدأ أعدّها .

كان حيّنا قد أخذ يهجره أصحابه ، والخمارات والمقاهي تقفل أبوابها. حتى أبي عاد إلى البيت وقال لي :

– نم جيداً يا قزم ، احلم بآمالك .

وفي بار سان بيرو كانت الكراسي تصفّ على الموائد ، وكان على عملاء آخر الليل أن يشربوا قهوتهم باللبن على البنك . وكان الجرسون يصفق بيـديه ، يحثّ

لاعبي البلياردو الذين لاتهن لهم عزيمة ، وشياطين البوكر أن يعجّلوا وينتهوا . وكان باب الدعارة في شارع روزا يفتـــح ويصطفق خلف ظهور الزبائن الذين ما كانوا يرغبون في الخروج .

– باي باي يا حبيبي ، أحلام سعيدة ..

وتنفتح نافذة ، بين الفترة والأخرى ، في شارع بيبي ، وتطير منه حزمة مر النفايات ، إلى الشارع .

والنافورة في ساحة سانتا كروتشي تستأثر الآن بكل الصمت والسكينة ، تحت القمر ، لنفسها وحدها. وأبعد من ذلك قليلاً يجري الأرنو بين أقواس جسر جرازي ، وهو يزبد ويرغي من الماء الفائض عن السد .

وكان المارة يحسون البرد إذ يسرعون خلال الشوارع والساحات في حيّنا . تلك ساعة كانت لتدفع بعض الناس من حيّـنا نفسه ، حتى ، ليذهبوا مغامرين إلى وسط المدينة ، ويشربوا كأساً اخرى من « الجرايا » في قهـــوة تفتح طوال الليل . وخلف زجاج النوافذ الذي يومض في ضـــوء القمر يختبىء فقرنا ، سراً ينبغي أن يبقى حتى يأتي اليوم الذي نفهم فيه سبب وجوده .

وهمس جيورجيو :

– تعالي إلى النافذة . لا أستطيـع أن أرى وجهك في الظلمـة . هاتي معك الكرسي . سنتكلم قليلاً .

وأتت ماريا بكرسيها ، في وداعة . وارتفعت إلى شفتيها نغمة ، وأرادت أن تنطلق بالغناء، وبذلت جهداً حتى تكفّ نفسها عن ذاك .

– لا تكن قاسياً عليّ ، يا جيورجيو .

جلسا قريبين أحدهما من الآخر ، وأخذ يدها بين يديه الحمراوين اللتين كانتا توجعانه من الالتهاب والقشف .

وسألها :

– هل تحسّين البرد ؟

فأجابت :

ـ لا .

وبقيت ساكتة .

ـ الا تعرفين ماذا أريد أن أقول لك ؟

ـ ربما . ولكن الأفضل أن تقوله أنت بنفسك . الأفضل أن تسألني ماذا فعلت عندما بتّ خارجاً في تلك الليلة .

ـ هذا سهل أن يخمنه المرء . ولكن ليست هذه هي المسألة . انما أردت أن أعرف لماذا رجعت ؟

ـ هذا الشيء الوحيد الذي لم أكن أنتظر أن يلومني عليه أحد .

ـ لست ألومك يا ماريا . انما أسأل سؤالاً .

ـ جيورجيو ، انني على وشك البكاء الآن . وكنت منذ لحظة أحس برغبة في الغناء .

ـ لا تفعلي أياً منهما . أجيبي على سؤالي .

فاعتصرت يديها ، وهما في يديه اللتين تمسكان بهما ، كما لو كانت تحيط بهما كرة من اللحم الدافىء الأحمر .

ـ ليس هناك ما أقوله في الحقيقة يا جيورجيو . كنت أنوي في الحقيقة أن أعود إلى البيت في الليلة نفسها ، وكان من السهل أن أجد عذراً ، وأفسر كل شيء . ولكني نمت . وعندما خرج أوصى بألا يوقظني أحد . وأظن أن ذلك كان من طيبة قلبه .

كان جيورجيو يصغي ، وهو يأخذ أنفاسه بمشقة . وأمسك بمعصميها ، كما لو كان ليهدىء من اضطرابه .

ـ وتضيعين نفسك ، بهذه البساطة . تنامين، وتضيعين كل شيء. كنت لأظن أنك تشعرين بشعور مغاير الليلة . أنظري كم هي حلوة هذه الليلة يا ماريا. وما أهدأ الليل . لقد نامت أمك . وأريجو ، وليس هناك غير الخيل تتحرك في

قلق ، تحت . كل شيء ملىء بالسلام والسكينة . كانت الليلة الأخرى مثل هذه الليلة سلاماً وسكينة – وأنت لم تكوني هنا ...

جلسا في صمت . وأخذ يديها اليه مرة أخرى .

وسألته في نبرة ملحة : – ما زلت تحبني يا جيورجيو ؟

– نعم . ونستطيع أن نبدأ من البداية ، كما كان الحال منذ سنة . لسنا الا أطفالاً في آخر الأمر ، أليس كذلك ؟ هذا ما يقوله كل الناس .

– أتعرف لماذا كنت أردّك عني دائماً ؟ أنا اعترف بأنك على قدر من الوسامة . ولكني كنت أريد .. أنت تعتقد أن ذلك شيء سوقي مبتذل ، أليس كذلك ، تعتقد انني كبرت بأسرع مما يجب .

– بل أسوأ وأكثر شراً ... وليس أسرع مما ينبغي .

فهمست :

– خفّض من صوتك .

كانت قد حررت معصميها من قبضته ، وجاء الآن دورها لتأخذ يده فتضعها على ركبتها وتربت عليها .

– ما زلت تريدني ، حقاً ؟

– ألم يكن ذلك واضحاً من كل ما عملت ؟ ليس ذلك لانني كبير القلب . لم أكن أفكر إلا في نفسي . ولكني كنت آمل أن يكون شعورك الليلة شيئاً مغايراً في آخر الأمر .

– انني أريدك أيضاً الآن في هذه اللحظة ، والقمر مشرق ،وكل الناس نيام . ولكن غداً ، وبعد غد ؟ أنت تعجبني ، ولكن ذلك ليس كافياً في بعض الأحيان .

وصهل حصان في الاصطبل . وكان أريجو ينهنه بالبكاء في نومه . وفي الخارج كان القمر مشرقاً وضاءً .

وتكلم جيورجيو :

– كنت أفكر في أريجو ، وفي أصدقائنا من الحيّ . ليس الأمر أننا قد كبرنا عنهم في السن . فنحن لم نكبر في الحقيقة أبداً ، لا بأسرع ولا بأسوأ مما ينبغي . لعلنا مرضى ، في حاجة إلى طبيب . انني أريد أن أكبر كما يكبر كل الناس .

قالت ، وقد استغرقتها أفكارها الخاصة :

– لقد تأخر الوقت .

فأجاب جيورجيو :

– عندي مفتاح . انني الليلة أحب أن أتذكر لماذا كبرنا بشكل مختلف عن الآخرين ، كل هذا الاختلاف ، أنا وأنت .

كانت تجلس الآن على ركبتيه ، تنشق رائحة شعره ، وقبّلته في عنقه . وقالت :

– كلام فارغ يا جيورجيو . انما نحن صغار ، هذا كل ما في الأمر .

كانت الآن تعض طرف أذنه .

لم يقل شيئاً . كان في وسعه أن يرى من خلال ألواح الزجاج في النوافذ التي يضيئها القمر حيطان البيت المقابل ، مغبرة رمداء ، عبر الشارع ، ونوافذه المكسورة مرقعة بالورق المقوى . وكان في وسعه أن يحس بانفعالها المشبوب ، ونفَسها السخن على وجهه . وكان عليه أن ينافح نفسه حتى لا يستسلم للرغبة التي أخذت تعتصره وتقبض على احشائه . فخلص نفسه من ذراعيها ، واوقفها على قدميها وهو ينهض بدوره .

– ان هذا ليمكن أن يكون مدهشاً ورائعاً يا ماريا . هذا سريرك ، معداً مهيّأ . ولكن ما أسهل ذلك . حاولي ، أرجوك ، أن تفهميني .

غضّت من عينيها بالرغم منها ، وقالت :

– لكننا خطيبان الآن ، في آخر الأمر ، أليس كذلك ؟

فرفع الكرسيين ، وهو يحمل بكل من ذراعيه واحداً منها حتى لا يأتي

بصوت ، ووضعها أمام المائدة .

ــ سأذهب الآن يا ماريا . راعي أمك.وأرجو أن تتحسن صحتها في الغد .

* * *

٦

في إحدى أمسيات الثلاثاء استقر عزم أبي انني كنت على حـق . كنت أوشكت الآن أن أبلغ السادسة عشرة . وكان كل أصدقائي يغدون ويجيئون وركبهم تغطيها البنطلونات الطويلة ، وقد أزف الوقت ، فينبغي أن أرتدي أنا أيضاً ملابس الرجال . كان منطقه مبنياً على أساس قانون الغابـة : حتى يكون في ذلك عوناً لي على أن أقف موقف الرجال بين افراد الشلة ، ولا أبـدو بمظهر صبي في بنطلونه القصير . ومن ثم اختار أقـــل حلله رثاثة ، وأغري جدتي أن تفصّلها لي .

وفي يوم الأحــد خرجت أزهو بحلتي الجديدة . لم أكـــن الا فتى استطاره الغرور ، ولا أسرار عنده يخفيها ، وناديت ايجستو لكنه لم يلق إليّ بالا . وفي بار سان بييرو طلبت « أبيرتيف » وانا أفتح أزرار معطفي ، عن عمد ، وأفتش في جيب بنطلوني الطويل . ولكن عاملة الخزينـــة لم تغير طريقة معاملتها ، وقـالت لي ، دون اكتراث ، ما قالته في اليـــوم السابق « آه ، هـذا أنت يا عزيزي » وهي تعطيني بقية نقودي .

أخذت اتمشى في شارع دي كونكيتاري « شارع الدباغـين » على أمل أن التقي بلوسيانا ، فقد كانت تقطن هناك . كانت رائحة الجـلود المدبوغه الحريفة اللاذعة تتسرب إلى الشارع من أبواب الورش المفتوحة . والأرض المرصوفـة في

داخل الورش تومض وتلمع من الماء المسكوب . والعمال في قباقيبهم وقمصانهم يروحون ويغدون . وعلى ركن شارع دي ما كي قامت نصبة للخضروات ، وقد تحلقت حولها زحمة من النسوة ، يشرن بأيديهن ويساومن بأعلى عقائرهن .

وكان بعض الصغار يجلسون القرفصاء على الرصيف ، وقد استغرقهم النظر إلى غطاء حفرة ، مفتوحة من حفر المجاري .

سمعت ماريزا تناديني ، خلفي مباشرة . كانت ياقة معطفها مطرزة بالفراء ، وفي شعرها فوق جانب جبهتها ، يلمع مشبك أزرق .

وقالت :

– فأنت اذن عملتها . ما أشد أناقتك ! ووضعت بريانتين على شعرك أيضاً . سوف يعجب ذلك لوسيانا بالتأكيد .

لم أملك إلا أن يتضرج وجهي خجلاً . كانت ماريزا تبدو لي كبيرة جداً ، تضع التواليت ، وهي مرحة ، وعلى شفتيها دائماً ابتسامة تكشف عن أسنانها البيضاء الحلوة . كان من الممكن أن أقع في حبها ، وذلك كان ليكون سرّي المكنون . تأبطت ذراعي وهي تتكلم ، وعيناها تشعان ببريق المعابثة الماكرة:

– انتظرنا في سان جوزيبي بعد نصف ساعة .

ثم دقت مقبض الباب الأمامي في بيت لوسيانا ، ثلاث مرات ، واختفت على السلالم المظلمة .

كنت قد اشتريت بضع سجاير ، وكنت أدخن احداها ، عندما وصلت الفتاتان . رأيتها بمجرد خروجها من شارع هيلا كازيني . ولوحت ماريزا بيدها لي ، وكانت ترتدي قفازاً أزرق . وإلى جانبها لوسيانا . وتبادلنا التحية . كانت لوسيانا تبتسم ، ورأسها محني قليلا ، كما لو كانت تنشد الوقاية مما قد أقول لها ، أو لعل ذلك كان تجنباً منها لاشعة الشمس المنعكسة عن نافذة وردية اللون في الكنيسة .

كانت لوسيانا في الرابعة عشرة . كان لها قدّ بنت مراهقة خام رقيقة .

ووجه طفلة . وعيناها لامعتان مترقبتان ، كما لو كانت تخشى ان تفوتهـا كلمة أو حركة تصدر ممن حولها . وكنت أقول لنفسي إنها حلوة كقطيطة وليدة ، كانت شاحبة براقة العينين تفرق شعرها في الوسط وتجمعه في ضفيرتين تسقطان إلى ما تحت كتفيها .

وتظاهرت بجهلها أنني كنت بانتظارها . وسألتني عن ماريا ، وعلى الفـور تضرجت وجنتاها . كانت تجهد ما وسعها أن تبدو فتاة محنكة خبيرة ، ولكن صوتها نمّ عن صراعها مع خجلها وتواضعها الغريزي . كنت أرتـدي بنطلوناً طويلاً يومها ، وقد قررت أن أضع حدا لسلبيتي وجمودي . وأن أفعـــل شيئاً أكسب به سراً أحتفظ لنفسي .

أخذت الفتاتين ، بجسارة من ذراعيها ، كلا منهما إلى جانب . وذهبت بهما الى كونجارنوا . وتكلمنا عن ماريا وجيورجيو . وقالت ماريزا :

ــ سوف يتمنى جيورجيو في يوم من الأيام لو أنه ذهب لطبيب يفحص عقله.

ودافعت لوسيانا بحرارة عن ماريا . كنا على مقربـــة من الثكنات . على اللونجارنو . وكان بعض الجنود قد تسلقوا من الداخل ، صناديق العلف ، فوق رؤوس الجياد ، وتشبثوا بقضبان النوافذ على مستوى الشارع . واخـــذوا يعابثون الفتيات المارّات ، فيبتسمن لمعابثتهم .

وبلغنا شط النهر عند نقطة قريبة من الخزان وقضينا هنيهـة نرقب شلال الماء في هدوء وهو يتقلب ويرغي . وكان الناس يرتـدون أحسن ملابس الأحد ويمشون في الشوارع المطلة على نهر الأرنو . وكانت التـلال المحيطة بفلورنسا تسبـح في الضـوء النقي . وتقف كنيسة سان مينياتو محددة واضحة ، يحيط بها اطار من اشجار السرو العالية البعيـدة . وكانت ماريزا قـد خلعت قفازها ولمستني فجأة على عنقي ، فأجفلت فزعا :

ــ انظر ، كم أحس بالبرد ! .

وضحكت ، وكانت أسنانها حلوة ، تومض كأنياب دقيقة صغيرة ، وودت

لو أنني كنت وحدي مع لوسيانا . كان كارلو قد أنذرني : « أحسن لك أن تعجل فتقول لها انك وراءها وراءها ، وإلا خطفها منك واحد آخر ، وحياة ديني .. وعندئذ تأخذ بضاعة مرتجعة أنت ، كما فعل جيورجيو » ومع ذلك فلم يكن يعنيني في الحق أن ماريزا معنا . كان من المريح أن تكون معنا ، ولاح كأن لوسيانا هي نفسها الشخص الغريب عنا ، تقريباً ، فقد كانت خجلة ، منطوية ، وفي عينيها نظرة بعيدة .

استندنا إلى الحاجز ، وأخذنا نرقب النهر ينزلق شريطاً ناعماً من الماء فوق الخزان ، ثم ينفجر مشتعلاً بغضب فجائي يرغي ويزبد ، ويستنفد غضبه المشبوب فيستعيد لونه الأخضر المألوف خلف جسر جرازي . كانت ماريزا تمسك به الآن ، ويداها تقبضان على ذراعي . وكانت تلتصق بفخذي ، وفي وسعي أن أحس بجسمها يضغط على جسمي .

وقالت :

– أليس لديك ما تقوله ، على الاطلاق ، للوسيانا ؟ لا تكن جباناً ، انها تموت شوقا لأن تقول لها شيئاً منذ سنين طويلة .

وضحكت وهي تستطرد :

– لقد خرجت مع الولد الآخر لكي تثير غيرتك .

وتضرج وجه لوسيانا خجلا ، وأنا أيضاً ، والتقت عينانا لحظة . وعندما كنا نتبادل النظرات أحسسنا بدقات نبضينا تتسارع ، ومع ذلك فلم نستطع أن نحطم الحاجز القائم بيننا ، وأن نتبادل أمارة واضحة على الحب ، وزاد ذلك من الحرج الذي كنا نستشعره ،حتى اوشكنا ان نصبح عدوّين.ثم استدارت بسرعة واخذت تجري ، وعندما كنت ارقب جريها المندفع لاتلوى على شيء ، كان بوسعي بطريقة ما ، ان احس الدموع المنهمرة من عينيها .

لم أكن أدري ، في البدء ، ماذا أفعل . كانت ماريزا قد أفلتت ذراعي ، وتركت يدها تتلبث في يدي قليلا . وجررتها معي ونحن نلاحق لوسيانا .

وتتبعناها ونحن نجري طوال الطريق ، حتى عتبة الكنيسة التي لاذت بها .
وأصدرت ماريزا حكمها :
– غبية حمارة ..!

كان من خور نفسي ان لم انتظر لوسيانا حتى تخرج من القداس فأخبرها بحبي ، وقد عرفت الآن انها تحبني ايضاً . وكان من خسق كذلك ان ضربت ميعاداً مع ماريزا عصر ذلك اليوم نفسه . وأخبرت كارلو وجينو بذلك ، بعد ساعة ، ونحن جلوس على أحد مقاعد ميدان سانتا كروتشي .

كان جينو ، كالعادة ، مستبهماً زلقاً لا تكاد تمسك عليه شيئاً في الموضوع . وأوشكت ان اندم على انني لم احتفظ بسري لنفسي . واذن فقد ارتديت بنطلوني الطويل عبثاً . أما كارلو فقد كان من رأيه ان النساء يجب ان يلقين من المرء خشونة . وقال انهن كلهن عاهرات . وهددني بالضرب اذا لم افلح في اغواء ماريزا في ذلك اليوم . وأصر على ان نستأجر دراجتين، نصف ساعة ، وأخذني إلى التلال عند جيرا مينتينو ، فتركنا الدراجتين في خندق على جانب الطريق ، وأخذ يقودني ، خطوة فخطوة ، على طول ممر يخترق الغيطان حتى يصل الى كهف تخفيه الشجيرات ، حيث يكون بوسعي أن آخذ ماريا دون أن يزعجنا مخلوق . كان صوته يرتعش ، وكان على وجهه تعبير يوشك أن يكون حيوانياً في هيجانه ، وعيناه شريرتان ، مليئتان بحزن غريب ، وقد تدلت عليهما خصلة من شعره الأشعث :

– لا تنس هذه الشجيرات هنا ، وبعد ذلك أشجار السرو القصيرة ، على الشمال ، وعندما ينشعب الطريق خذ الفرع الأيمن . وتذكر آثار النيران هنا .

وأعاد تنسيق أغصان الشجيرات التي كانت تخفي مدخل الكهف .

وقال :

– هناك براح للنوم بطول الجسم . وفي الداخل هناك قش يمكنك أن

تفرده على الأرض ، إذا كنت تريد أن تشتغل على نظافة . وتذكر ، إذا لم تنجح كسرت لك رقبتك .

وكان يقولها لي بنوع من الشراسة الوحشية ، كما لو كان ينتفض، من الداخل، ويجهد ما وسعه ، ألا يبدي تهيجه . وأخذني الخوف ، في البدء . فعلى أن سلوكه كان هادئاً فيه ثقة واعتداد بالنفس ، كانت كلماته ثاقبة صارخة لا يقر لها قرار ، كصرخات مخنوقة . وأحسست كما لو كان قد اعتدى عليّ . ومع ذلك كان كارلو عندئذ يعطيني دليلاً على صداقته ، كنت سأعرف له قدره ، فيما بعد ، وأشكره له .

٧

إذا حدثتكم عن الرذيلة ، والقـذَر ، والبهيمية في حيّنا ، فماذا تقولون ؟ كنا قوماً فقراء ، وكان ربّ العائلة ، في الغالب ، يقضي وقتـه في الخمارة ، أو يشترك في إضراب عن العمل مع سائر العمال . وقد ينال منه التعب من العمل في المصنع ، فيخرج ليشتغل بتصليح الأقفال وصنع المفاتيح . فمن المنطقي ان تذهب ماريا ايضاً تشتغل بالدعارة ، لكي تنام في سرير من الريش . كان من الحق ان اباها مات إثر طعنة بالسكين في عركة تافهة بعد لعبة للقمار . وأنت إذا خاطرت بنفسك في شوارعنا ألفيتها تفوح بخبث الرائحـة ، بنتن المدابغ والاصطبلات . وفي الدور الأرضي من البيت الذي يقطنـه كارلو كانت توجد امرأة تقرأ البخت وتنسج لبناتنا حكايات طويـلة عن حسن الطالـع أو قصص الحب الفاجع . وكانت تضع في شبّاكها ببغاء. ويتسرب الرجال الى بيتها أيضاً، خلسة ، ليستشيروها . والنسوة العجائز يهززن قبضات أيديهن ويقذفن باللعنات الى نافذة شقة كارلو ، من عطفهن على أخته الصغيرة أولجا . كان لها وجه دمية صغيرة حلوة ، وأسنانها دقيقة متقاربة .

فإذا حدثتكم عن الرذيلة فلعلكم قائلون إنّ ذلك مـــا يُنتظر في مثل شوارعنا . ولكن تعالوا ادخلوا بيوتنا ، في سنة ١٩٣٢ ميلادية ، بعد كل ما كتب عنا من هراء . خلكم في محلنـا ، وتملّوا من الفقر الذي يطحننا ، ليل نهار ، ويحرقنا كنار بطيئة ، أو كالسلّ . كنا نكافح منذ قرون ، متعالين ، لا يمسنا شيء . وقد ينهار منا رجل ، وتسقط امرأة ، ولكنهم منذ قرون يردون الضربة بالضربة ، واقفين على أقدامهم ، يحدوهم أملٌ مستميت . وقد اختفى هذا الأمل ، فجأة ، في قلوبهم . وليس ثمـــة مفرّ ، إما أن نقف على أقدامنا نتشبث بخرقنا المهلهلة وبحساء الكرنب الذي نأكله كل ليلة ، في استماتة ، أو نرقد ممدّدين في الطين ، لا قومة لنا بعدها . لم تكن في أيدينا أسلحة نحارب بها أحداً ، لم نكن نحن الذين نسنّ القوانين التي تحكمنا ، كان دفاعنا الوحيد هو الخمول والجمود .

فإذا حدثتكم عن الرذيلة ، ماذا تقولون ؟ كان أبي يكسب عشرين ليراً في اليوم ، وهناك ثلاثة بطون عليه أن يملأها ، وأتعاب الطبيب الذي عالج أمي شهراً طويلاً في المستشفى قبل أن تموت . وقد ألجأونا لرهن « البوريه » مرتين عندما تأخرنا في دفع الايجار ، ولا حق لنا في معونة البطالة فأبي يشتغل . هذا هو الحق الصراح ، فلست أكذبكم . نعم كان أبي يشتغـل ، حقاً . وإذا كان يكسب بعرق جبينه ، ألا يحق له أن ينفق شيئاً من مكسبـــه على كأس او كأسين ؟ ونحن نواصل مع ذلك ، لا نتوقف ، بشكل ما . بل أن أملاً يتخلق في قلبي ، وقد احسست هذا الأمـــل الآن ، فقد بلغت السادسة عشرة ؛ وسأقبض في الأسبوع القادم أول خمس ليرات أكسبها أجراً لي ، فقد اشتغلت صبياً في ورشة .

إذا حدثتكم عن الرذيلة ، عن عارنا الذي نشهره في وجوهكم ، فبم تجيبون ؟ كانت أم كارلو ترقد ممددة في الطين ، وهي الآن تتمرغ فيه حقاً . وقد غطتها الأوراق . كانت قد وجدت نفسها ، ذات يوم أرملة ، وعندها طفلان ،

وأولجا الصغيرة لم تفطم بعد . مات زوجها في إحدى الحروب ، من يعنيه أي حرب كانت ؟ هل تذكرون الأناشيد ـ لا تدعوا المواقد في بيوتنا تنطفىء ؟ ذلك الآن تاريخ قديم . وقرروا لها معاشاً قدره ثماني ليرات في اليوم . وما كانت إلا بنتاً حلوة ما زالت. وعندما كانت تخرج بطفليها للنزهة ما كان يطوف بذهنك أنهما طفلاها ، فقد كانت جـد صغيرة نضرة . كانت تلبس قرطاً من المرجان ، ووجها وجه عذراء طاهرة مرهفة الحساسية من بوتيتشيلي . وكانت عيون الرجال عليها ، هنا في حينا ، في سانتا كروتشي . كانت الثمرة قد طابت .. فتاة شابة ، حرة ، ولا رجـل في البيت ، والفراش أوسع من أن يضمها هي وطفليها فقط ، وخاطرها مكسور ، وعيون الرجال عليها . الحكاية القديمة ، القديمة قدم حكاية آدم وحواء ، وحديقة عدن . كانت الثمرة قد طابت واستوت ... ومع ذلك فان أم ماريا قد حملت عبء مثل هذه الهموم كلها ، وخرجت من المحنة لم يمسها شيء . كان الرجال يطاردونها ، هي أيضاً ، ولم يكن لديها حتى زاد من الذكريات الحلوة ترجع اليه . فقد مات زوجها من طعنة سكين في خمارة بشارع ديل أنجيلو، كانت أم كارلو أحمى عاطفة وانفعالاً. ذلك هو الرد . أو لعل مقاومتها قوضتها أزمان أطول أمداً من يأس لا بارقة من أمل فيه .

وكبر كارلو وأولجا إلى جانب أمها التي كانت صغيرة وجميلة . ولعلها كانت أماً رؤوماً ، في نهاية الأمر ، « محتاجة إلى الطبيب » لا أكثر ، كما كان يقول جيورجيو . كبرا معنا في شوارع الحيّ وساحاته .

كانت أولجا ، بوداعتها وصغرها، تأخذ دائماً دور الخادمة في لعب أصحابها. وعندما كانوا يلعبون لعبة « البيت » كانت لوسيانا ترسلها تأتي بالماء من النافورة لأطفالهم في اللعب . وكانت أولجا تنظر عن يمين وعن شمال ، بحرص وانتباه ، قبل أن تخطو إلى الشارع ، وتستغرقها اللعبة تماماً . كان ذلك كله حقيقة ، في

عينيها ، لامراء فيها ، وكان كارلو يمسك بيدها في المساء ويرجع معها للبيت ، يمسح وجهها بمريلتها الصغيرة ـ كنا نجدها أحياناً نائمة في حجر ماريا ، وقد احتضنتها في محبة ـ وكانت تنام طيلة الليل نوم العرائس . فاذا فتحت عينيها في الصباح عجلت أمها بأن تحشو لها فمها باللبن والعيش . وكانت عندئذ في السادسة ، وكارلو في التاسعة . وكنا نحن الصبية جميعاً أترابا متقاربين في السن، وان كانت أولجا أصغرنا بكثير . كنا نراها مخلوقاً دقيقاً ، أثيريا، نتناوله بحرص وعناية كما لو كنا نخشى أن ينكسر .

وكان كارلو في أغلب الوقت يفيض بالغل والرغبة في الايذاء . كان ينظر اليك بطريقة غريبة . ووجهه ضامر مقروص يستضيء إذا همس في أذنك بشيء خبيث، سواء كان ذلك خطة لاختطاف شيء من نصيبه، أو فخاً يدبره لشخص أثار غيظه . ولكنه كان في صداقته وفياً وفاء كلب يذهب ليموت على قبر سيده ، واذا غلبنا اليأس والقهر ، كما يحدث أحياناً للاطفال عندما يلوح أن كل شيء قد انهار وأن لا مخرج امامنا ، عندئذ كان عطوفاً . في مثل هذه اللحظات كان كارلو ينزل عن سخريته ويتبدى عن ودّ وعطف حار أكبر منه ، وأكبر من الحدث الذي ابتعثه . وعندئذ كان حزننا يتلاشى في دهشتنا من كلماته المختلفة عن المألوف ، المليئة بحكمة كان يصعب علينا فهمها .

وكانت أمها ترجع للبيت متأخرة في الليل ، يتبعها رجل ، وهي تتلمس طريقها في استخفاء ، تتسلل عبر غرفة الجلوس حيث ينام طفلاها . كان كارلو قد تعلم أن يبقى متيقظاً، يصغي بالرغم عنه إلى الاصوات الآتية من وراء حائط غرفة أمه ، وفي الصبح يحدق اليها بغيظ وحنق . كان صبياً في التاسعة قد نشأ في الحواري والأزقة ، صبياً حساساً واعياً صاحياً . وأقبل اليوم الذي كان فيه من شأن النشاط الغامض على الجانب الآخر من الجدار أن يشعل فيه غرائز الجسد . وعندما نفذ إلى قلب السر كان يقضي الليل يصيخ السمع ، يفرغ على جسمه العذاب ، والألم الذي يمزقه ، مندمجاً في همسات أمه والرجل

الغريب ، وتشنجاتها .

ونمت بين الأم وابنها كراهية خرساء ، حائط من الصمت والعناد .

* * *

٨

جاءت ماريزا في الميعاد . ولاح لي انها تكلفت جهداً كبيراً في ان تتخذ زينتها . لم تكن ترتدي مشبك الشعر فوق جبينها ، وكان شعرها الذي مشط مستقيماً راجعاً إلى الخلف يكشف الآن عن شريان ازرق دقيق في وسط جبهتها يرتفع حتى منبت الشعر . كان بوسعي أن أتصور جسدها يأوى ناعماً بدفئه تحت ياقتي معطفها اللتين اتخذتها من الفراء . وكانت قد دفعت بيديها في جيوبها، وأمسكت بحقيبة يدها تحتضنها تحت ذراعها .

كنت أعرف أن لها عدداً من الأصدقاء الشبان . ذلك بالاضافة إلى ملاحظات خبيثة أخرى كان كارلو يذيعها ، أكسبتني ثقة بأنها صيد سهل . كانت تقيم بمنطقة مارونون ، وهي تتكون من صف من البيوت على شارع أرتينيا ، يقطنها عمال الفلاحة ، والغسالون ، وممرضو مستشفى المجاذيب القريب ، والعمال الذين يشتغلون بنزح الرمال والحصى من قاع نهر الأرنو ، وكان من حسن حظهم أن النهر يقع خلف بيوتهم ، ففي الليل كانوا يرسون قواربهم المسطحة القاع على الأرض ، على عتبات بيوتهم .

وقد أندمجت في جماعتنا عن طريق لوسيانا . فقد كانتا تعملان كلتاهما في محل بوسط البلد ، ولكن معرفتي بها كانت مع ذلك طفيفة للغاية . لم تكن قد أنفقت أيام صباها الأولى معنا ، وان كانت بلا شك قريبة الشبه بأيام صباها . لم تكن بيني وبينها عروة صداقة .

كنت حسن المزاج يومها ، وأنا أمشي وذراعها في ذراعي . كان يفوح منها عبق الكولونيا . وكان صوتها عندما تتكلم نظيفاً رناناً ، ولم تكف لحظة عن الابتسام . كنت أمشي لأول مرة في حياتي خلال شوارع حينا مع بنت في ذراعي . وكنت أدرك دوري الجديد كل الادراك ، وأعجب من ثقتي بنفسي في هذا الدور ونجاحي في أدائه على أيسر نحو . كانت ماريزا قد حطمت تحفظي وخجلي ، بصراحتها وابتسامتها الطلقة ، فاختفى حيائي المعتاد تماماً. وكنت ساعتها أحبها حقاً وصدقاً ، وأنا أحسها إلى جانبي أحساساً حاداً . ودارت بذهني لحظة قصيرة ذكرى لوسيانا ، وأريتها في وهمي حزينة ، ضارية ، كما لو كان طول إلفي بها قد قضى على الحب المكنون الصامت الذي كانت صورتها تبتعثه في نفسي . كانت ماريزا هناك إلى جنبي، وكانت تضحك وكنت مستريحاً اليها . واندمج بكيانها وشخصها قهر دمائي التي تضغط علي ، ونخس الجسد المستثار والعذابات المظلمة التي كم ناءت بي ، ووجدت لها الآن مخرجاً في شخصها القريب .

وكنا نترامق ونحن نطلع ناحية التلال ، على الجانب الآخر من النهر ، ونتجاذب الحديث . وفي أعيننا عطية ، بلا كلام ، وقربان لجسدينا الفتيين . وقد فقدت عذريتي في تلك اللحظة التي ربتت فيها على فراء معطفها، وأحسست بنهديها تحته – ولاح كأن ذلك منذ ألف سنة .

– يدفئك الفراء ، أليس كذلك ؟

– لا بأس به . يعجبك ؟ فراء أرنب لا أكثر ، كما تعرف .

وصعدنا ، ببطء ، حتى بلغنا ارتا كانينا . وكانت سلالم مونتي ألا كروتشي ، أمام عينينا ، تحلق صاعدة حتى ابواب السماء ، أثيرية ومجسمة في الوقت نفسه، وصفوف أشجار السرو على جانبيها ترتعش في الشمس . أصيل في آخر الشتاء ، مشمس وفيه برودة خفيفة منعشة . وسماء فلورنسا الزرقاء تحتضن أنشودة حبنا . وجاءت في أعقابنا ، من بورتا سان نيكولو ، ضجة المراجيح ،

وضحكات العيال ، وهتاف باعة الحلوى والترمس . وعلى طول ارتا كانينا كانت النسوة تجلس على عتبات البيوت ، ملففات في شيلانهن ، يصطلين في الشمس .

– ألا يدهشك أنني هنا معك . وأنا أعرف أنك تحب لوسيانا ؟ ألا تعتقد أن ذلك لا يصح مني ؟

فاعتصرت ذراعها :

– أبداً لا شيء من ذلك ، وعلى أي حال فلم أقل لك أبداً كلمة واحدة من أنني أحب لوسيانا .

– نعم ، ولكنها تعتقد ذلك . أو هي ترجو ذلك ، على التأكيد . لا يصح أن تكذب على نفسك في هذا . كلهم يقولون إنك واقع في هواها . وكارلو قال لي ذلك مراراً . فلم تكن هي وحدها التي تقوله .

فتوقفنا ، نواجه أحدنا الأخر . كان انحدار التل يكسبني طولا عنها .

– اسمعي ، هل جئت هنا ، لتدافعي عن لوسيانا ؟

كنت أحس مرارة ، ولكني لم أشأ أن أدع حبوط رغبتي يغلبني على أمرى، فقد كنت ما زلت جوعان إلى ماريا ، حتى وان بدا من طريقة كلامها أنها تصدني . فانطلقت ضاحكة . سرها أنني أحسست بالغيظ . والتمعت عيناها بالمكر. وتظاهرت ان الضحك قد استبد بها حتى أعجزها عن الحركة والتنفس. وان كان تمثيلها واهياً مفضوحاً ، وانثت على نفسها من الضحك، فانكشف نهداها، وخبطت على فخذها بيدها . وهتفت :

– لا تغضب . ياه – لو تعرف كيف يكون شكلك مضحكاً وأنت تزور بعينيك . أتحاول أن تفزعني ؟

ثم استقامت وأخذت ذراعي . ولفت يديها حول ذراعي كما فعلت في صباح ذلك اليوم على شط اللونجارنو . واستكنت إلى جنبي ملتصقة بي . واستأنفنا سيرنا ، ناحية التلال .

– هيا .. قل ، ماذا بك ؟

كانت ما تزال تبتسم ، ولكن صوتهـــا كان مزعزعا كا لو كانت تخشى ما سوف أقول .

أسفاً ، فإن بنطلوني الطويل ، والبريانتين على شعري ، لم يخلقـــا مني رجلاً جديداً بين ليلة وضحاها . وعندما حاولت الكلام وجدت الحرج المألوف الذي اعتدته واحسست خديّ يشتعلان ، فقلت :

– لو اخبرتك أنك تعجبينني ، ألا يكفي ذلك ؟

– لا ، لا يكفي. أبداً. فأنا أعرف أنني لست صادقة ولا مخلصة مع لوسيانا ولكنني لا أفعل ذلك ، على الأقل ، لمجرد التسلية. فأنا أحبك وقد كنت أحبك دائماً من أول لحظة رأيتك . وحاولت دائماً أن أبتعد عن طريقك . كنت اعتقد أنك تحب لوسيانا ثم قلت لنفسي أنك ما زلت صبياً تلبس بنطلوناً قصيراً، حتى أهون على نفسي وطأة الأمر . لا تغضب . لم يكن ذلك إلا على سبيل أن أعزي نفسي . حقاً . لو عرفت كيف كان شعوري يوم تتبعتنا ...

– كنتما تعرفان أذن أنني الاحقكما ؟

– طبعاً . وأحسست كا لو كنت ضبطت وأنا أعمل شيئاً غير نظيف . ألم ترني أقفز إلى أتوبيس في أثناء سيره ، في شارع أرتينيا ، حتى أتخلص من اللوح الذي كان وراءنا ؟ كدت أدق عنقي يومها .

– ولكني كنت أقصد لوسيانا .

فأخذت تضحك ...

– أوه .. نعم، أنني أعجب لماذا كنت أخدع نفسي. لم يكن هناك بالطبع ما يدعوك لأن تتبعني أنا– ولكني حاولت أن أقول لنفسي أن ذلك ما حدث، بالرغم من كل شيء . حسناً .. هذه اذن نهاية الاحلام التي تعللت بها .

– ولماذا ؟ أنت أحسست سلفاً بما كان لزاماً أن يحـدث بعد ذلك . كان ينبغي أن أتبعك أنت تلك الليلة .

– هذا كلام .

كانت قد غدت جادة . وجمدت ملامح وجهها ، دون حركة ، وهدأت ، كما لو كانت نائمة ، وكانت عيناها مفتوحتين على سعتهما ، ثابتتين . لاحظت عندئذ ذلك الشريان في جبهتها . كانت قد راحت تفكر في شيء ما .

– لعل كارلو تكلم عني . وخرجت معي لتضحك علي ، ثم ترجع إلى كارلو تستمتعان بالضحك مني . أليس كذلك ؟

– هذا ليس صحيحاً . لقد اكتشفت انني مغرم بك ، هذا كل ما في الأمر لم أكن أفكر فيك لحظة واحدة ، حتى الأمس . صحيح فكرت فيك ، ولكن ليس بالشكل الذي كنت تفكرين أنت فيّ . كنت أظنك كبيرة علي . هـــذا ما كنت أظن ، على الأقل .

– ولكنني في السادسة عشرة فقط ، مثلك تماماً .

قالتها كما لو كانت تدافع عن نفسها .

– صحيح ، ولكنك تظهرين أكبر سناً . أنت الآن امرأة ناضجة .

فعاد اليها مرحها . ولانت ملامحها ، وهي تبتسم :

– أتظن ذلك حقاً ؟

كنا بلغنا أعلى السلالم ، وقد انبهرت أنفاسنا قليلاً . وكان الطريـــق ممتداً امامنا ، ينحني على البعد ناحية بوبولينو ، وكانت أشجار الدلب قـــد طلعت عليها البراعم فعلاً . وكانت السيارات تنزلق مارة بنا ، وأصحابها ينالون ملء متعتهم من النزهة . وفي ساحة ميشيل انجلو كان الناس يستندون إلى الحاجز ، أو يجلسون ، على المقـــاعد الحجريـــة ، يستمتعون بالمشهـــد . وعلى مقربـــة من نسخة من تمثال داود لميشيل انجلو كان المصور الفوتوغرافي في الشارع قـــد اجتذب بضعة عملاء . وكان المقهى ، على الجانب البعيد من الميدان ، قد أخرج المقاعد والموائد على الرصيف . واستراح عليها السواح لحظة . وكان جرس الترام يصلصل في محطته الأخيرة ، مؤذناً بالقيام .

والمدينة تمتد من تحت ، بسقوفها وأبراجها ، وفي أحجارها تناغم وانسجام

عريق . والأرنو يجري تحت الجسور ، وقد بلغ فيضانه غاية مداه ، يومض في الشمس . وبعيداً إلى الشمال تمتد منتزهات كاسكين ، في غلالتها الخضراء . كانت التلال تحتضن المدينة في عناق تربتها، وتحتضن المنازل بانسانيتها الدافئة السخنة، تلال باقية كالسماء ، وهي كالسماء شاسعة ، كأنها تقوم بوساطة بين الانسان وقوى أخرى .

وحيّنا قد استكن خلف النهر ، كما لو كان ملتصقاً بضفته اليمنى . وأغفت عتمته بيوتنا ، وأدران عشنا الحقيرة، وقد أخفتها السقوف الممتدة إلى بعيد ، فضاعت شوارعنا تحت السقوف المترابطة المتراكبة . وفوق أقذارنا كان العالم يرتفع طاهراً نضراً ، وقباب سانتا كروتشي تحيط حيّنا بهالة من الصمت والسلام .

٩

ـ كارلو إذن لم يكلمك عني ؟

كنا نسير الآن على جانب شارع فيالي الذي أوشك أن يخلو من الناس ، ونحن نبدو بمظهر زوج بين أزواج العشاق ، عندما سألتني ماريزا هذا السؤال ، كانت ذراعي تحيط بخصرها ، وقد هبطت بيدي إلى تحت . فقلت :

ـ لا لم يكلمني عنك بالطبع ، وعلى أي حال ماذا كان سيقول ؟

فرمقتني بنظرة ذات مغزى :

ـ أنه كان يمشي معي ، مثلاً .

ـ كان يمشي معك فعلاً ؟

وأحسست إحساس الكبار جداً وأنا أسألها ، فقالت :

ـ ألا تتدخل فيما لا يعنيك ؟

ولكن نبرة صوتها كانت داعية للاستزادة من السؤال .

– هيا ... اخبريني .

واعتصرت ذراعها .

كانت خطتي أن أشغلها حتى لا تلحظ أنني أفضي بها إلى جيرا مينتينو ، ومنه إلى الغيطان . ومررنا بشاليه كان بضعة شبان وفتيات يترحلقون أمامه في حلقة يحيط بها سور عال من السلك المشبك .

– لم يكن به شأن أبداً ، انما سألتك لأنني أعرف أن له لساناً طويلاً خبيثاً، انه يذيع حكايات وأقاصيص عن ماريا في طول الحي وعرضه ، ومن المدهش أن جيورجيو لم يكسر له رقبته ، ألا ترى هذا ؟

– هذه طريقة ليس إلا ،وهو في الحقيقة ليس خبيثاً ولا شريراً على الاطلاق.

ولكنني لم أكن أفكر في ما أقول ، فقد كان يهيجني حس جسدها مسترخياً بإزاء ذراعي ، وكان يشغلني التفكير في سلوكي معها عندما نصل إلى الكهف . كانت تستند إلى ذراعي ، ولعله بقي في صوتها أثر من الحنق خفيف ، ولكن خطتي كانت قد استأثرت باهتمامي كله ، فلم يكن في ذلك ما يهمني على الاطلاق، لم يكن بمقدوري أن أحسن التفكير ، وثم فكرة واحدة وحيدة تدق وتخبط في ذهني .

واستطردت قائلة :

– كارلو لا يوثق به ، وأنا متأكدة أنه مغتاظ مني .

فقلت مشتت الذهن :

– انت واهمة .

كنا قد استدرنا الى طريق جيرامينتينو . كان المكان غارقاً في الصمت ، مهجوراً في تلك الفترة من النهار . وكان لخطواتنا وقع ورنين على أحجار الطريق ، وفوق الجدران الواطئة على الجانبين كانت تومض أوراق أشجار الزيتون كالفضة . وحل محل الجدران سياج الغيطان ، ولم يعد لخطواتنا وقع على

تربة الطريق غير المرصوف ، وانفتح المشهد عـن يسارنا ، خلف شجرة سرو قميئة ، على منحـــدر وعر مدبب الصخور ، وقد نحتت في الصخور درجات للـنزول .

– هيا بنا ننزل من هنا ، فلن يزعجنا أحد .

ولا شك أن صوتي كان يرتعش ، كان فمي جافاً .

وخطت ماريزا نازلة ، وهي تمسك بيدي حتى لا تقع . ونظرت إليها في وجهها مباشرة ، ورأيت عينيها حزينتين ، بشكل غريب . لم تعـد تبتسم ، وكان وجهها ينم عن قلق لم أفهمه . وعندما بلغنا الأرض الممهدة ثانية ، ورأيت دغل الشجيرات المتكافئة ، تكلمت وقالت :

– أمتأكد انت ان كارلو لا يترصدنا ؟

وتلقيت سؤالها ، كما لو كان ضربة . فلما ربطته بسلوك كارلو ذلك الصباح ، خطر لي على الفور انه انما اراني الكهف لكي يفاجئنا ، ويلعب معنا لعبة قذرة ، وجذبت ماريزا ذراعي :

– لا ندخل الكهف يا فاليريو .

– لا .. لا ندخل .

وأنا أفكر في كارلو ، كنت قد اجبتهـا كما لو كانت تعرف كل شيء ، ثم انفجرتُ :

– كيف عرفت الكهف ؟ لا بد انك كنت هنا .

فنكصت بضع خطوات ، وقد تراجعت وفزعت كأنهـا حيوان أُخِذ بإثمـه ، وهي تهتز وقد شق عليهـا الوقوف على الأرض الوعرة ، والشمس في وجهها .

وهتفت :

– ماذا انت فاعل بي ؟

وقد اخذت غضبتي على محمـل الجد بأكثر ممـا ينبغي ، وان كان قد

راقني منهـا ذلك . كنت الآن رجلاً ، ارتدي بنطلوناً طويلاً ، وواثقاً انها فريسة سهلة .

– لن أفعل شيئاً ، فماذا يفزعك ؟

وقفزت فوق رماد النار التي كانت هناك قديماً ، وأخذتها إلي ، وقبلتها على فمها ، وأنا احس اسنانها على شفتي ، قبلتها بفم مغلق مزموم ، وأحسست بعدها برجفة نفور وحبوط تسري فيّ . كانت وجنتاها باردتين، وكانت ذراعاها حول وسطي ، وهي تمسك حقيبتها بكوعها ، بشدة .

وهمست :

– يا حبيبي .. كن طيباً معي ، ارجوك ، فلنذهب من هنا .

وأخذتني من يدي وصعدنا الدرجات المنحوتة في الصخر ، وعبرنا حقلاً محروقاً على الجانب الآخر من الطريق ؛ وانطلقنا إلى الأمـام دون توقف حتى بلغنا المنـتزه التذكاري ، وتسلقت ماريزا الأسلاك الشائكـة وهبطت إلى المنتزه .

وتبعتها ولم تعد بي لهفة للنتيجة التي كانت هي تنتظرها ، فيما يبدو . كان رأسي يوجعني ، وكان في جسمي كله خدر من الدفء المتحلل الوهنان الذي جاء ينز وينضح من حقوي . كان علي أن أقوم بأفعالي بمحض قوة العزم المعقودة كما لو كنت مقسوراً على أن ألعب دوراً مفروضاً عليّ ، حتى النهاية ، ونافحت حتى أقهر الهبوط والكآبة التي أخذت تقبض علي .

كان المنتزه مخضوضراً بعشب طويل خشن بلل أقدامنا ، وتناثرت حولنا أشجار من السرو فتية غضة ، وهبت كل منهـا لذكرى جندي صريع . وفي المكان كله جو مقبرة موحشة تحت الشمس الشاحبة .

وقادتني ماريزا بصمت على طول المنحدر الذي يفضي إلى مأمن تحت سياج من الشجيرات ، وفاجأنا زوجاً من العشاق أخفاهمـا العشب . وجلسنا ، على مبعدة ، على كتلة من الصخر ، ووراءنا سياج الشجيـرات ، وأمامنا العشب

العالي . كنا وحدنا في عالم من الصمت المخضوضر ، لا تقطعه إلا دقات ناقوس كنيسة قريبة .

كنت أجفل عند أدنى صوت ، ومع ذلك فقد كان في ساقي ثقل الرصاص وخدر انتظار طال بي عبء اطاقته ، وعانقت صاحبتي بحركـــة غريزية ، وقبلتها مراراً ، قبلات متشنجة ، على الفم وعلى العنق ، وأنا أدفن وجهي بين ياقتي معطفها الفرائيتين ، وبحركة غريزية ، بمعرفة قديمة قدم الأجيال ، جذبتها إلى تحت ، في العشب ، في صمت الغيطان الكبير ، تحت الشمس الباهتة .

كانت ملابسنا مضطربة مشعثة عندما نهضنـــا ، ووضعت ذراعي حول كتفيها، وأنا أحميها وأقيها،وأساعدها في أن تعيد إلى معطفها نظافته وهندامه. وقبلتها مرة اخرى وانا احضنها ، على هذا النحو . وكان يملأ جسمي حس بالراحة والتخفف ، وفي ذهني وضوح لم يكن لي به عهد ابداً من قبل ، وتنفست الصعداء ، في ظفر ، ملء صدري .

وعندما جلسنا مرة أخرى على كتلة الصخر اخذت تسوي شعرهـــا . ثم مسحت الأحمر من على وجهي بمنديلها . كانت حركتها حركة حميمة فيها خفاء الالفة الوثيقة ، وفيها محبة ، ولمستها خفيفة كأنها لمسة المداعبة الحلوة . وبلت المنديل بريقها لتمحو الآثار تماماً .

وقالت ، وهي تضع المنديل على فمها :

– تسمح لي ؟

وكانت تبدو كما لو كانت تتجنب النظر في عيني ، وارتجفت .

– الجو بارد .

واستكنّت لصيقة بصدري ، وأدخلت يديها تحت ابطي لتدفئتهـــا وسألتني :

– ما رأيك الآن ؟ لست اريد ان افقدك الآن ، بعد هذا .

– وهل تظنين أنني سوف اتخلى عنك بعد ما حدث ؟ لا ، بل سوف اقيم على حبك ، أكثر فأكثر .

– أنت تتظاهر بأنك لا تفهم ، فهناك طرق للحب أسوأ من التخلي عن البنات .

كانت تتكلم بهدوء ، كما لو كانت تتكلم إلى نفسها ، كما لو كانت تردد نغمة قديمة قدم الزمن ، كما لو كانت تتضرع ، بيأس واتضاع ، في طلب المغفرة ، تندب ما ضاع منها .

– أنت الآن تعرف سري ، ولعلك قد وصلت إليه من نفسك ، من قبل ، ولعله لا يدهشك لأن كارلو أخبرك به من قبل .

فقبّلتها على جبهتها وقلت لها ان تصدقني عندما اقول انني احبها. لم استطع ان افهم ماذا كانت ترمي إليه ، ولمَ كانت بهذه القسوة على نفسها ، او لعلها ظنت انني قد لاحظت وفهمت – ولكنني ما كنت الا صبياً غراً .

واستطردت :

– أما الآن فأنت تعرف انه كان هناك شخص قبلك .

وهممت بالإجابة ، لكنها اوقفتني ، وصوتها عطوف محب ، وفيه مع ذلك تصميم .

– لا تقل شيئاً ، دعني اخبرك انا .

وظلّت تخفي وجهها عني ، وتضغط جبهتها بصدري ، واكملت :

– صدقني ، لم اكن بهذه السهولة ، انا من قبل ، ولم يحدث ذلك كثيراً ، ايضاً .

مسّتني كلماتها ، فقبّلت شعرها ، وكان امام ناظري العشب العالي في الغيط ، واشجار السرو الفتية الفضة ، والسماء فيها ذؤابات من الغيام الرقيق المرتفع ، تحجب الشمس .

– كارلو يقول عني اموراً تسوء ، ولكنني اراهن انه لم يقل لك كل شيء.

– لم يقل لي شيئاً ابداً ، والله ، انما دلني على الكهف ، لا غير . هذا كل ما هنـاك .

– وعندما دلـّك عليه ، كان يعرف اننا على موعد ؟

– نعم .

فانفجرت باكية ، ووجهها على صدري .

– احضنـّي يا فاليريو ، دفئني . أنا الآ ن يجب أن أخبرك ، فلعلك تعود بعدها إلى لوسيانا ، فهي بنت طيبة ، لكنها لا تحبك كما أحبك أنا .

فقلت :

– هدّئي من روعك .

١٠

واستطردت ماريزا :

« كنت تأتي ، منذ سنوات ، انت وأصدقاؤك ، الى جيرتنـا ، في الصيف خاصة ، وكنت ترتدي قميصـاً للبلاج مخططاً بالأزرق والأبيض ، وكنت أنا عندئذ ، عادة ، في المغسل العمومي ، في نهايـة صف احواض الغسيل ، أقف على كرسي حتى أصل إلى لوحة الغسيل . كنت طفلة ما أزال ، ولذلك كانوا يعطونني أشياء صغيرة أغسلها ، المناشف والملابس الداخليـة ونحو ذلك . والمغسل العمومي بناء طويل واطيء ، كالمخازن ، في نهايته نافذة . وكانت أشعة الشمس التي يعكسها النهر تبهر أعيننا ، وكانت وجوهنا حمراء يتصبب عليها العرق من الماء المغلي .

« ولم تكونوا أنتم ، صبيان سانتاكروتشي ، تريـدون أن تصاحبوا إخوتي

وأصدقاءهم ، وعندما حاول أحد أبناء خالي أن ينضم إلى شلتكم ضربتموه . وكانت النسوة ترميكم بالأحجار وانتم تجرون ، ولكنكم كنتم تعودون من الغد في قارب على النهر ، وكان أحدكم يصوب نبلة نحو المغسل . وعرفت انك انت الذي كنت تفعل هذا ، من قميصك المخطط بالأزرق والأبيض ، وكادت حصاة النبلة ان تصيبني ، فقد نفذت من الشباك وسقطت في حوض الغسيل بجانب يدي تماماً . ووجدناها يوم السبت عندما كنا نحك الأحواض لتنظيفها ، كانت حصاة وردية اللون ، وانما اقول لك ذلك كله حتى تعرف انني كنت دائماً اتذكر وجهك .

« وكثيراً ما كنت احلم بك في الليل ، وان لم اكن افكر فيك نهاراً . وكنت اراك في الحلم تصوب نبلتك اليّ ، من القارب ، وانا عند شباك المغسل ، وانت تصوب نحوي تماماً . وعندئذ اصرخ : « ابعد . ابعد عني » ، واستيقظ مفزعة . وفي عشية قرباني الأول حكيت للقسيس ، في اعترافي ، عن هذه الأحلام .

« لا تسيء الظن بي يا فاليريو فلست أخجل من شيء . وكبرت على أي حال . كان ذلك منذ سنتين . وعاد أخي رودلفو ـ وهو شاويش بالجيش ـ في اجازة إلى البيت مع صديق له من صقلية كان قد سرح من الجيش . ولما وقع بصره علي لم يدعني أغيب عن ناظريه . ولبس كلاهما ملابسهما المدنية من الغد وصحباني أنا وصاحبة رودلفو إلى السينما . وكنت ألبس حذاء أمي الوحيد الصالح للبس . كان كبيراً عليّ شيئاً ما ، ولكنه يكسبني طولاً ، وكنت أشعر بزهو كبير لأنني أمشي إلى جانب شاب . ولما خرجنا من السينما ذهب رودلفو يوصل صاحبته إلى الجانب الآخر من المونيون . أما الصقلي ـ تذكر أنني قلت لك إنه كان من صقلية ـ فقد أخذ يصب في أذني كلاماً لا ينتهي ، في طريقنا إلى البيت حيث كان يقيم معنا . ولا أستطيع أن أتذكر الآن كل ما كان يقول ، فقد كان كل شيء يجري كما لو كان في حلم ، ولكنني أعرف

أن ذلك حدث بين الأشجار على طريق ألبريتـــا ، فأنا ما زلت أسمع ضجة الكراكة وهي تشتغل في نزح النهر ، لا أستطيع أن أنزع صوتهـا من رأسي . كنت منهكة حتى كدت أموت، ليلتها . وحلمت أنني انتهيت من دعك وغسيل كومة ضخمة من الملابس ، وأنك أطلقت عليّ نبالتك ، ولم أستطع أن أتجنبها فأصابتني في جبهتي ، هنا في الوسط ، مكان العرق الصغــير . ثم هربت وأنت تجذف كالمجانين ، وأنت وحدك في القارب .

« وبذل الصقلي كل جهده في الغد حتى نبقى معـاً وحدنا ، ومضى في الليلة نفسها . وأخذت أضحك من المسألة أنا ، كالمعتاد . سأغالب نفسي ألا أضحك إذا أحببت ، ولكنني لا أضحك عن عمد ، لست أملك إلا أن أضحك .

« وأنت تعرف كيف أن الحياة في المادونون كالحياة في جزيرة تاما ، والأرنو يجري تحت عتبـــات البيوت ، ولا شيء إلا الغسالات ، والفقر ، والطين . وكنت امقت الحياة وامقت امي احياناً ، لأنها لم تكن تبـالي بأن تحيا حياة العبيد ، وكانت يداي في الشتاء تحتقنان ، وتزرقّان ، وتتورمان من الماء ، هذا يختلف عن الحل .

« لا تظن انني مغرورة ، فليس عندي من الشجاعـة ما يسمح لي بأن أنظر إليك مواجهـــة . على فكرة ، هذان الاثنان هناك ، ألا ينويان ابداً ان يتحركا ؟

« انني اشتغل في القسم نفسه الذي تشتغل فيه لوسيانا ، الأدوات المكتبية ، وقد كانت تـكلمني كثيراً عنكم ، وعنك ، انت وماريا على الأخص . ولعلك لا تذكر متى عرفوني بك ، منذ سنة ، كنت انت مع كارلو ، وصافحتني ، واخذت اضحك كأنني بلهاء ، ولا يكف قلبي عن الدق . واتذكر اننا كنا في شارع ديلاماتوتايا ، وكان هناك في الميدان قطتان تراودان احداهما الأخرى. كل ما حدث ثابت في ذهني إلى الأبد ، كالصلوات التي نتعلمهـا ونحن أطفال ، وقلت لي : « أنت تسكنين هناك في الجاهل أليس كذلك ؟ » وكان في صوتك

رنة سخرية قاسية ، ولكنني كنت سعيدة لأنني رأيتك فأجبت : « الجو احسن هناك » . ولم اعد احلم بك بعد هذا المساء ، وقرر كارلو أن يوصلني حتى شارع أرتينيا ، فسرني ذلك لأنه كان صديقك . وتحسس نهدي ونحن في طريقنا ، وبدلاً من أن أثور ضحكت ، بغباوة . ووافقت أن أراه في الليلة التالية » .

كانت الشمس قد غربت ، ولاح أن أشجار السرو الصغيرة قد استطالت في ظلال المساء الأولى ، وارتفعت من بين الأعشاب التي تنحني للريح الباردة . وكنت انا وماريزا وحدنا في وسط الصمت المخضوضر . كانت كلماتها تطلب مني الشيء الكثير ، تتضرع للحصول على مغفرة لم يكن قلبي المراهق قادراً بعد على ان يمنحها . كان ما قالته لي حقائق عريقة عتيقة ، باقية بقاء أصداء من الماضي ، بقاء ذكرى قصص ثأر وطغيان قديمة . وكان صوتها صافياً ولا خنق فيه إذ تحكي حكايتها ، حكاية تكررت منذ بداية العالم حتى أصبحت حقيقة يومية متواضعة لا شيء يمكن أن يغير منها، وبدا ان كلماتها تلح بضراعة في طلب العون ، لا مني ولا من نفسها ، ولا من أي شيء في هذا العالم ، في طلب شيء ما يصحح كل الأشياء بإيماءة بسيطة أو همسة أو دقة ناقوس ، بلا هدف ، في هواء المساء . وكنت صبياً قد بذل غاية جهده لكي يتحرر من عذريته ، وبقيت هناك بلا حراك، مفزعة، وقد استهولت الأمر ، والبرد يتسلل إلى عظامي ، وفي ذراعي بنت تقاسمني عذابها .

واستطردت ماريزا :

« واستمر كارلو يلاحقني زمناً طويلاً ، يرقبني بعينيه الصفراوين هاتين ، وكان يرعبني احياناً ان ينطلق وجهه السقيم في تشنجات الثورة والحنق ، لكنه لصق بي ، كالعلقة ، وكان ينتظرني كل ليلة في شارع أرتينيا ، فاذا اخذت طريقاً آخر وجدته هناك مع ذلك . وكان يدق على نافذتي في الدور الأرضي

بالليل ، ويقول : « تعـالي .. تعـالي .. اخرجي » . تصور أنني كنت أقول لنفسي أنك ما زلت طفـلا ، حتى لا أسرقك من لوسيانا ، وهناك كارلو يدق كل ليلة على شباكي .

« ولعلني سفيهة طائرة اللب لا اكثر ، ولست استطيع حتى الآن ان ادرك الأشياء واحسن فهمها حقـا . ولست اجد كبير عون عند امي ، او لوسيانا . ماذا ترى في ذلك كله يا فاليريو ؟ حـاول ان تعينني على شرح ما اريد ان اقول .

فقلت :

– أعتقد أنك تسلكين سلوكاً غريباً ، وكارلو عنده اسرار ايضاً، والوحيد الذي لم يكن يخفي شيئاً هو انا . انا الآن اعرف لماذا اعجبتني لوسيانا . كنا الوحيدين اللذين لم نكبر بعد ، ولكن الأمر يختلف الآن .

– إذن فقد خدعتكما خدعة قذرة ، كما فعل كارلو معي .

– استمري في قصتك ، الجو يبرد .

– استطاع كارلو ذات احد ان يأتي بي هنـا إلى الكهف . كانت عيناه لامعتين ، ويداه باردتين لزجتين بالعرق . وأخافني ، فكم كان منفعلاً ، ولكني كنت اضحك ، لا اكثر . لم يكن خشناً معي ، في الحقيقة ، ولكن نظرة العزم والتصميم في عينيه الصفراوين هاتين كانت من القوة بحيث لو امرني ان اقفز من صخرة بأعلى الجبل لفعلت دون تردد .

« لم يكن يوجد في الكهف نور بالمرة ، فـما ان ادخلني هنا حتى استدار وسد فتحة المدخل بكومة من الأغصان . وكان رقيقـاً في الأول ، وأخذ يلاطفني . وكانت مطارحته الحب تملأني بالسرور والاشمئزاز معاً ، ولاح أنه لن ينتهي ابداً منها . كان يوجعني جداً ، وذلك كله دون جدوى – لست أعرف كيف أقول هذا . ثم بدا ان قد استبدّ به الجنون ، فمزق عني ملابسي، وأخذ يضربني بقبضتيه ويدفعني نصف عاريـة إلى داخل الكهف ، وكانت

أطراف الاغصان والقش تصدمني وتضربني . ومع ذلك فلم أستطع البكاء ولا الدفاع عن نفسي . وعاد إلى مدخل الكهف وجلس هناك يصرخ ويعوي كحيوان مسعور . وأخذ يلاحقني أياماً بعدها ، يهددني بما كان سيفعل لو أنني أخبرت أحداً » .

١١

كانت السماء ما تزال منيرة . وظهر الهلال وسط السحب البيضاء العالية المنزلقة . تلك اللحظة التي تبتعد فيها الأرض عن السماء ، وتتخذ الأشياء على الأرض هالة الأشياء الفانية . والسماء ما زالت منيرة ، عالية ، بعيدة فوق العالم، تثقلها أحمالها الأرضية ، و « الزهرة » تلمع وتومض .

وكانت الريح قد اشتدت قوتها ، وحاجز الزرع يخشخش من ورائنا ، والاعشاب تهتز في الريح ، وترتعش ذؤابات أشجار السرو الصغيرة .

وأكملت ماريزا :

– لم يغمض لي جفن ليلتها ، ورقدت في السرير تأخذ بدني كله رجفة متصلة ووضعت لساني بين أسناني حتى لا تقرقر ، خشية أن تسمعني أمي في الغرفة المجاورة . وخيل لي أنني لم أعد أنا نفسي ، بل شخصاً آخر ، وكأن الأشياء في غرفتي لم تعد لها بي أية صلة. كنت أحس بجسمي ما زال مكوما هناك في داخل الكهف . وكانت قد تسللت إلى يدي هناك حشرة بسيقانها العديدة ، وكنت أحسها هناك تزحف في يدي . وكنت أرى كارلو أمامي ، في الطرف الآخر من الكهف ، من خلال أشعة النور الآتية من الفتحة . وكان يحدق بي ، كأنه قط متربص ، وينهنه بالبكاء – لم يكن ذلك صوته أبداً ، بل صوت آخر مدمدم مزمجر ، يحذرني بأن أبقى بعيدة عنه . كان الرعب قد شلني . فأنت تعرف

كارلو على حاله المعتاد ، واحداً كسائر افراد الشلة ، أو لا يختلف عنهم كثيراً . ولكنه ساعتها كان كالوحش المسعور ، مقمبا على أهبة الوثوب .

ولم يكن بمقدوري أن أفكر أبداً وأنا راقدة في السرير . كان ذهني وكل ذرة مني قد تخلفت كلها هناك في ا‌تكهف ، بل لم أكن أدري كيف عدت إلى البيت . ومع ذلك فلا شك أنني كلمت أمي ، وغسلت الاطباق شأن كل ليلة ، ولكني لا أتذكر . وفجأة سمعت دقاً خفيفاً على الشباك. ومن الدقة الأولى وثبت من على السرير وذهبت بالغريزة إلى الشباك المطل على الزقاق . كان كارلو هناك ، على الجانب الآخر من حديد الشباك وناولني قصاصة من الورق وجرى لا يلوى على شيء .

« أيقظتني أمي في الصبح قبل أن تذهب للمغسل العمومي . كنت في نومي قد جرحت يدي بأظافري ، فقد كنت أمسك بالقصاصة بهذه الشدة . وجاء من الليلة التالية يدق على شباكي ، وأعطاني قصاصة أخرى وجرى . وليلة بعد ليلة استمر على هذا ، وكنت أفتح الشباك كلما جاء ، خشية أن أوقظ أمي ان لم أفتح . وكان يكتب دائماً في القصاصة ، شيئاً واحداً .

« لو قلت كلمة واحدة لمخلوق،قتلتك . عندي مسدس ورصاصتان، ففكري جيداً . وإذا مشيت مع مخلوق ، ضربتك بالرصاص . وعندما أتأكد من نفسي سنعود إلى هناك معا ، وسوف أكون غير ما كنت في المرة الماضية . سترين ، أحبك ، ويجب أن تنتظريني . فان لم تفعلي قتلتك بالمسدس » .

كان هذا الشهر كابوسا . وكنت مرعوبة في مجيئي وذهابي للشغل ، يفزعني أنه قد يكون ورائي . وكنت كثيراً ما أرى في الترام شاباً من شارع روفيزانو ، وقد نزل هذا الشاب من الترام ذات مساء في المحطة التي أنزل فيها ، وقال إنه يريد أن يوصلني للبيت ، فألححت عليه أن يتركني وشأني ، لكنه لم يقبل وسار معي ، يقول ويفعل ما كان منتظراً . وفي تلك الليلة ، دق كارلو

على الشباك وأعطاني القصاصة . وكان فيها الكلمات نفسها .

« وفجأة أحسست أنني لست أخافه . حدث ثمة شيء ومع ذلك فلم يعرف. وبدا لي فجأة ان القصاصة ، بكلماتها التي لا تتغير ، ليست الا لعب اطفال ، ولا خطر فيها . فبدأت أمشي مع ذلك الشاب من شارع روفيزانو ، وكان يأتي كل ليلة للمحل يأخذني . ثم التحق بالجيش . وقبل أن يذهب قدمني لأحد اصدقائه . وعدت ثانية إلى ما كنت عليه ، أضحك بغباوة ، كالمعتاد . لا تخجل مني يا فاليريو، فلم أعد أخجل من نفسي .

« ولكني كنت دائماً أفزع عندما يدق كارلو شباكي . كنت أخشى أن يضربني بالرصاص بدلاً من أن يعطيني القصاصة . كان يسلبني قطعة من حياتي كل ليلة . وكنت ألقي نظرة سريعة على الكلمات حتى أعيد لنفسي الطمأنينة ، ثم انفجر ضاحكة وأنام . وانا أعرف الآن أن سبب ما كان يبدو عليّ من غرور وتعال هو محاولتي أن أخفي لياليّ المرعوبة . لم أكن استطيع أبداً أن أقع في حب أي من الشبان الذين كنت أمشي معهم ، ولم أثق في أحدهم أبداً بما يدعوني لأن أخبره بسري . لم يعد هناك ما يوثق به ، وكل ما أفعله كان يبدو أنني أفعله للمرة الأخيرة . وعندما كان يخطر لي أن أمي في الأربعين، وانه لعلني أعيش حتى أصل إلى عمرها ، لم أكن أطيق الفكرة » .

كان الظلام قد ساد ، واختفى الهلال من السماء المعتمة التي تبرق فيها بضعة نجوم شاحبة . والريح تصفر بين أشجار السرو . وجاء صوت ترام من شارع فيالي ، تحت . وكانت تقع علينا أحياناً أضواء سيارة عابرة . وكأن صوت ماريزا شيء لا صلة له بالجسم الناعم المستند اليّ طلباً للدفء .

« واستمرت الحال على هذا ، حتى تلك الليلة التي مشى فيها هذا الشبان وراءنا ، أنا ولوسيانا ، ورأيتنا ، وأظن أن كارلو كان معك أيضاً . لكني لم أدرك ذلك ساعتها. بل تصورت أنك تأتي ورائي أنا،وأدار ذلك رأسي . كنت أظن أنني قد نسيتك بعد كل ما مررت به من محن ، ومع ذلك فعندما رأيتك

ليلتها مرة ثانية هزني ذلك بشكل لن أستطيع أن أصفه لك، وأخذت أبكي ، ثم أخذت أقرض نفسي حتى أستعيد قواي وأجمع شتات نفسي . وقلت لنفسي إنك صبي لا أكثر ترتدي بنطلوناً قصيراً ، وإنّ بوسعي أن أحصل على ما أريد من الشبان . لا تغضب مني يا فاليريو .

« وعندما دق كارلو ليلتها شباكي وددت لو أطلق عليّ النار · كنت بقيت أفكر ساعات وساعات كيف يكون بوسعي أن أنساك لو أنــني متّ حقاً . ولكن كارلو رمى إلي بالقصاصة وجرى . وهتفت أناديه ، حتى كنت أظن أنني لن أقوى على الحياة تلك الليلة وأضأت النور حتى آنس به .

جلست في وسط السرير وبكيت كالاطفال ، وأنا أعض لساني وأمر بيدي على عيني حتى أبعد عني صورتــك . ثم نظرت إلى القصاصة في يدي ، دون تفكير . كانت كلماتها قد تغيرت :

« تستطعين أن تمشي مع الرجل الذي تتبّعك إذا أردت .

كنت جباناً وأنا خجل من نفسي . سأبيع المسدس غداً » .

واهتصرتني ماريزا وذراعاها حول كتفي. ونبح كلب، وكان ثمة صوت دراجة نارية في شارع فيالى . وسكنت الريح فجأة ، وسكتت الغيطان وحاجز النبات خلفنا .

وقالت ماريزا :

– هذا كل ما هناك . لم أكن أمينة مع لوسيانا . عندما كنت أمشط شعري هذا الصباح وجدت خصلة بيضاء . وكان الموت في قلبي عندما جئت للقائك ، ومع ذلك فما وسعنى إلا أن أضحك كالبلهاء » .

١٢

في الربيع تتفتق أزهار الجيرانيوم على قواعد الشبابيك في شوارعنا . وأخواتنا يضعن الزهور في شعرهن ، ويضربن البطانيات ، في مرح ، قبل أن يضعنها في أسفل الدولاب مع المعاطف التي قلبت ياقاتها، وورّقت عند المرفق .

ومن نافذة إلى أخرى ، ومن شارع إلى شارع في حينـًا ، تطير أغنية يلتقطها مائة صوت وتقطعها الاحاديث والصيحات من داخل البيوت ، حيث تهب أنفاس الريح محملة بعبق أوراق الشجر ودريس القمح الحديث العهد بالحصاد .

قاطع الطريق أنهكه التعب
على جواده الأبيض في لون الحليب .
ينزل من جبال السييرا الخفية الأسرار
ويقطف الوردة الحمراء في لون النار .

وتستعيد لهجة كلامنا نقاوة عريقة فيها ، وهناك نغمة جديدة من المحبة في الأصوات التي تشيع بها ، من غرفة إلى أخرى ، ومن حارة إلى حارة ، كما لو كانت صادرة عن شفاهٍ قد رويت من عطشها في ينبوع متألق تحت نور الصباح الباكر الوضّاء ، وتتخذ واجهات بيوتنا كرامة وجلالاً وسط رثاثة الطلاء المتساقط ومواسير المياه الصدئة .

وكان بار « سان بيبرو » قد نزع بابه الزجاجي ، وأخرج المائدة المدوّرة وعليها صينية حلوى البومبولوني المكسوة بالسكر والفواكه بالفانيليا . وبيّاع

الكرشة قد اتخذ موقفه أمام عربة اليد ، ويتصاعد البخار من الكرشة المغلية ، وقد التفّ كل الصبيان والسعاة من حيّنا ، يدورون حوله وفي أيديهم أرغفة مقمّرة في انتظار إفطارهم ، ويمسحون أصابعهم خلف بنطلوناتهم قبل أن يرشوا الملح على الأكل . ويقف الفران بالقميص والبنطلون على باب الفرن . ويمر بائع الروبابيكيا يطلق صيحته المعتادة ، وصبيّه يدفع أمامه العربة الصغيرة . ويأتي شاب يحمل على كتفه غرارة ، وفي لهجته نبرة مغايرة ، يقطع شارع ديلا أنيولو وهو يهتف :

– قصاصات شعر للبيع ..!

وتقول الأغنية :

زهرة الربيع
معناهـا الوفـاء
يعطيها لحبيب القلب ...

والولد الراكب فوق ، على عربة يد بصفائح الجـاز ، يقطع أغنيته ويتجه بجسارة وسرعة بعربته ، يعاكس بنتاً خجـلة ، وهو يزعق بأعلى صوته في وجهها : حذار ..

وعلى جسور الأرنو الذي تتلبث على مياهه ضبابة خفيفة، يثبت هواة الصيد عيونهم على الفلّينات تتلاعب بها المياه ، وقد ربطوا البوص بمسامير في حاجز الجسر ، وأشعلوا أعقاب السجاير ، وجلسوا ينتظرون . وتذهب انعكاسات البوص بعيداً في الماء وتختفي .

وشوارعنا قد استيقظت وسرت فيها همهمة الحياة والحركة . وحتى نوافذ البيت السرّي في شارع روزا قد انفتحت قليلاً من الداخل ، والبنات تطل من خصاص النوافذ ، بفضول ، وهن يرتدين قمصاناً وردية اللون ، سريعات إلى الضحك مع الحدّاد الشاب الذي يمسك حافر الحصان بين فخذيـه بقوة ،

ويضع له الحدوة ، وأمهاتنا يفرغن أكياس النقود على المائدة ، وقد تلففن بالشيلان ، وهن يحسبن النقود على أصابعهن ، قبل الذهاب للشراء .

وفي كل صباح تجد أولجا ورقة بخمسين لير وضعتها لها أمها قبل أن تذهب للفراش، وتنزل أولجا للسوق، فتشتري ما تحتاجه ، وقد اتخذت مظهراً من الجد يليق بها كما لو كانت ترتدي عقداً من اللؤلؤ ، ونظرات الكتبة ، ذات المغزى ، لا تمس براءتها ، فاذا كانت ذراعاها القصيرتان لا تطولان البنك ناولتها النسوة لفّات ما اشترته . ويبقى كارلو في سريره ، أو يذهب يلعب البلياردو مع الطالب ، ابن صاحب المطعم ، بل يتسكع أحياناً مع هواة صيد السمك على شط النهر ، وأتصوره وأنا أمام الآلات في الورشة ، أناول الخرّاط ما يحتاج من أدوات وأوثّق الصواميل على هياكل الأنوال ، والشمس تضرب النوافذ حتى لنحس أننا في داخل محضن زجاجي حار . لم يكن كارلو قد سألني ماذا تم بشأن ميعادي مع ماريزا – لم تكن ماريزا تذهب للعمل ، بل تقضي الصباح على الشباك ، في شعرها زهرة جيرانيوم ، على جبينها ، وتتراجع عندما ترى أمها عائدة تحمل ما اشترته . وجيورجيو يشتغل في شركة للنقل بالسيارات ، يفرغ الطرود ، وينقلها من المخزن إلى المحطة ، وهو فارع الطول شديد القوة ، وشعره الأشقر ينزل على مؤخرة عنقه . إنه سوف يلتقي بماريا حوالي الساعة الواحدة ، في المستشفى ، حيث أجرى أريجو عملية المصران الأعور . وفي الأمسيات يذهب يتمشى مع ماريا على ضفاف الأرنو .

وقد ذهبت لوسيانا أيضاً تزور أريجو ، وجاءت معها ببعض عصير الفاكهة ، وقد تغيرنا الآن بالتأكيد ، ونحن الآن ببنطلوناتنا الطويلة ، وكعوب أحذيتنا العالية ، نعالج أن نواجه العالم ، وفي داخلنا نحس قلوبنا تكبر وتتضخم ، ونحس من واجبنا مع ذلك أن نخلق هذا النمو . ونحن نظن أن النضوج معناه أن نقاسي عذاباتنا في صمت ، وأن نتكلم تلميحاً وإيماء ، وأن نقلد ما رأينا الآخرين يأتونه من حركات ، وأن نمزج السمّ بالعسل في قلوبنا . لم تكن

لوسيانا ، منذ ذلك الأحد ، قـــد وجهت لي الكلام مرة واحدة ، وعندما حاولت ماريزا أن تفسر لها كل شيء ردت عليهـــا : « أنتما قد خلق أحدكما للآخر ، فما شأني أنا ؟ » وسوّت مريلتها السوداء وذهبت تسأل المدير أن ينقلها إلى فرع آخر بعيداً عن ماريزا .

ومع ذلك ففي وسعنا أن نستشف قلوب أحدنا الآخر ، ونحن نتتبـع أحدنا الآخر في كل شارع وميدان وبيت في حيّنا . كانت أحلامنـــا واحدة دائماً ، ولذلك فقد كان علينا ، حتى ندخل بعض التنويـع على قصص حياتنا ، أن نشارك الأحداث الفعلية — تماماً كما كنا ونحن أطفال يختار كل منا نوعاً مغايراً من الآيس كريم ، حتى نذوقها جميعاً .

أما الآن فنحن نرتدي البنطلونات الطويلة ، والكعوب العالية . وهناك ادعاء وتظاهر في عيوننا ، عندما ينظر أحدنا إلى الآخر ، ومع ذلك فيكفي أن يدور أحدنا حول ناصية ، أو يصعد السلالم ، حتى يجد الآخرون أنفسهم منعكسين في كل حركة من حركاته ، كما لو كانت مرآة ، ومرجع ذلك يعزى إلى بعيد ، إلى أيام الأنوف القذرة ، والعراك ، والمصالحات ، ولا شيء يمكن أن يفلت من المحبة التي تربطنا جميعـاً . فلنفرض أننا نستسلم فعلاً لقلـّة الولاء والإخلاص ، فلنفرض أن الحياة قد تسحقنا إذ تكبر قلوبنا ، ونحن نجهد أن نكتمها ونكبحها ... سنعود معاً يوماً ما ، جميعاً ، حتى لو كانت أجسامنا قد اعتادت النوم على حشيات القش ، وعلى أوجاع البرد ، وعلى طعام الكرنب والكرشة . هل تتصورون أن سيفزعنا أن نجد ملامحنا قـد تغيرت قليلاً ؟ هل تظنون أننا لن نستطيـع التعرّف على أحدنا الآخر ؟

١٣

لم نكن نرى جينو الآن إلا لماماً ، فإذا حدث بالصدفة أن ذكر له أحدنا متاعبه ، مر بيده ، فوق شفتيه بحركته المعتادة وقال :

– هذا ما يحدث لكم يا أولاد ، ما عليكم إلا أن يخطو أحدكم خطوة واحدة في الشارع ، فيحدث له شيء لا يُصدق . إنني أعتقد أحياناً انكم ما زلتم طائفة من الصبيان ، كما كنا حين كان من عادتنا أن نجلس على المقاعد العامة ونلعب على مرأى بين حشدٍ من البنات . وأنتم دائماً تتفطر قلوبكم حباً لواحد أو واحدة من الجماعة ، كما لو لم يكن في العالم غيرهم . لو أنكم فتحتم عيونكم لأدركتم أن العالم لا يبدأ من قوس سان بييرو ولا ينتهي عند بوابة ألاكروتشي .

ويعيش جينو في بيت أخته –وهي تكبره بعشر سنوات– معها ومعزوجها وطفليها . ولصهره محل حلاقة في شارع جيبيلينا ، وقد تردد عليه جينو فترة من الزمن ليتعلم الصنعة حتى مدّ له أحد العملاء جناح الرعاية ، بعد موته ، وخلّف له ميراثاً في وصيته حتى يستكمل دراسته . وكان عندئذ في الحادية عشرة ، وكنا نركبه بالمعابثة لفرط هواه بالمكتب ، ولكنه فشل في الامتحان في أول سنة ، وطار الميراث . وكان عندئذ قد بدأ يبتعد عنا شيئاً فشيئاً ، فقد عرف أن العالم يمتد الى ما وراء بوابة ألاكروتشي .

ولعله مع ذلك بقي صبياً ، أكثرنا جميعاً غرارة ، صبياً لا يدرك خطر اللعبة التي يلعبها . كان مزاجه الغريب في صباه يرمي به في نوبات من الكآبة ويثير انفجارات عنيفة من التشنج في ملامحه ، وهو الآن يستحوذ عليه ويطوّح

به إلى أركان الشوارع ، كأنه دمية ، وإلى مداخل المقاهي ، ومباءات الشذوذ. وقد فقد الآن العالم البريء الذي دارت فيه لُعَب صبانا ، حين كانت السماء زرقاء وكان أفدح ما يصيب الواحد منا أن تنال ركبتيه خدوش طفيفة ، وسقط حتى عنقه في الوحل ، وهو الآن يتخذ ابتسامة كسولاً ، وفي عينيه حبوط وعذاب يقنّعه النفاق . وعندما يتكلم لا تقع عيناه الصافيتان ، بطهرها البريء ، على وجهك مباشرة ، أبداً . ويمر بيديه فوق شفتيه ويتمتم بحديث غير مستبين عن أن العالم لا ينتهي عند بوابة ألاكروتشي ، وهو في هذا يخون العروة الوحيدة الحقة التي تصله بأصدقائه : العاطفة التي تربطنا بالحيّ ، والمقدرة على أن نواجه الحياة ونصوغها بما في أجسامنا من قوة ، متساندين كتفاً إلى كتف .

كان قد خلّف وراءه عالمنا ، عالم المحبة وطيب الطوية ، حيث تكفي لانبعاث السعادة كلمة ساذجة ، أو زهرة من الجيرانيوم في الشَعْر ، أو أن تشد على يد زميلك ، في خجل . كان قد خرج عن الحلقة التي كنا نرقص فيها وأيادينا متشابكة ، وهو يدور وحده ومن غير أمل ، في خارجها . لم تعد أنفاسنا تدفئه ، فهو يحس البرد الخامر بل يوشك أن يحس العداء لنا ، وقد انتفخت أوداجه بالغرور لأنه يرتدي ثياباً باذخة ، ويدخن السجاير الفاخرة ، ولديه من المال ما يسعه أن يبعثره ، دون أسف ، على مائدة القمار .

الساعة الواحدة ، في حيّنا . ويمضي بيّاع الكرشة بعربته ، ويغلق محل التجميل أبوابه . والفتيان في بار سان بييرو يدخنون في انتظار قهوتهم ، وسرعان ما تأتي لوسيانا ، تشق طريقها في زحمة الناس والدراجات . وماريا تهيىء المائدة للغداء ، وأريجو ، في دور النقاهة الآن ، يقرأ صحيفة رياضية ، مرتفقاً قاعدة النافذة .

والسماء فوق شوارعنا زرقاء صافية ، ونسيم الربيع يحمل من حدائق النباتات عبقاً خفيفاً من شذى أشجار الليمون ، ويأتي به إلى قلب حيّنا .

وأولجا أيضاً تهيىء مائدة الطعام لأمها التي تعقص شعرها المصبوغ بشقرة البيروكسيد أمام المرآة ، يبدو عليها ارهاق امرأة راحت فريسة للخيانة واتضاعها . كانت أولجا قد أينعت فجأة أمام ناظرينا ، في هذا الربيع ، كأنها مجد الصباح الباهر على جدار بيت . وهي الآن فتاة في ريعانها ، تحيط بها هالة من الربيع ، كأنها قد خرجت من لوحة رسمها « فرا أنجيليكو » وأصبحت دماً ولحماً حياً بين حيطان بيوتنا ، ولعلها إذ ربت فجأة وازدهرت ، روّعت كارلو ، وقد اكتسب كلامه الآن حرية ، واكتسب سلوكه أمناً وثقة ويسراً ، وهو يشتغل في مصنع لنشر الخشب تحت البيت . إنه يجلس إلى المائدة ، يبتسم لأمه التي حال لون وجهها وضاق الجلد واشتد عند صدغيها . وأولجا ، ممراحاً متوفزة بالبهجة ، تفجأ كارلو فتقص له خصلة من شعره ، وتقرص عنقه وهي تقول له « أيها العامل .. »

والتقى جيورجيو بجينو عند مدخل الخماره ، فتأبط ذراعه ، وكان جيورجيو يرتدي قميصاً للبلاج بلله العرق ، وسترة ضيقة قصيرة على خاصرتيه ، وينبعث عن جسمه ، في ثيابه تلك المهملة ، إيحاءٌ بالقوة الكبيرة ، وملامحه بارزة التخطيط ، وقد تجعد شعره الأشقر على عنقه ، وكأن يديه المخشوشنتين المجعدتين بخطوط دقيقة سوداء ، توشكان أن تربكاه وتحرجاه ، فهو يشوّر بهما عندما يتكلم . وتجمح به حركاته أحياناً كأنه يحاول أن يقتنص فكرة يعجزه أن يعثر على ما يفي بها بالضبط من كلمات .

وأنا التقي بهما في شارع دى بيبي ، وذراعي معلقة بجبيرة إثر حادث في العمل .

كان جيورجيو يقول :

– الحقيقه أن عالمك أيضاً يا جينو ينتهي عند نقطة ما ، عند نقطة أسوأ مليون مرة من بوابة ألاكروتشي .

– الأخلاق يا جيورجيو ... الأخلاق ، هذا ما يتعبك .

ــ أبداً ، لا شأن للأخلاق هنا .. انهـــا مسألة صداقة ، لأننا ــ وهذا ما سوف تستغربه ــ نحن الملومون ، أنا وكارلو وأريجو ، وفاليريو . إذا كنت قد سلكت هذا السبيل فمعنى هذا أننا لم يكن فينا الكفاية ، معناه أننا خذلناك.

ــ هذا جنون .

ــ لا ، ليس جنوناً . عندما كنا أطفالاً سارت الأمور على ما يرام ، فقد كنا نريد الحصول على شيء واحد ، إلى حدٍ مـا ، وإذا شكا أحدنا من شيء نفـّس عن كربه على الفور ، وكان العراك يزيد من صداقتنا ، ولكننا كبرنا ، وأخذنا نؤمن بأسرارنا ، ولمــا كانت تلك أسرارنا الخاصة ، فقد كان بوسعنا أن نراها في أعين أحدنا الآخر ، وزاد ذلك من حبنا لبعضنا البعض ، ولكنك كففت عن أن تنظر إلينا ، في عيوننا ، عند نقطة ما ــ وانطويت على نفسك أنت وسرّك . فهي غلطتنا إذن ــ كان علينــــا أن نضربك ، لكمة طيبة على وجهك ، حتى ترفع رأسك فنرى ما تخفي فيه .

كنا قد وصلنا ساحة سانتا كروتشي . والساعة الواحدة ، والشمس تنعكس ساطعة على واجهة الكنيسة . وتقوم أشجار السرو من قلب السكينة في الدير ، مستقيمة في صفوف مربعــة ، ويجلس تحت تمثال دانتي شيوخ طاعنو السن من « دار العجائز » يستمتعون بالشمس ويثرثرون مع العــــاهرات المحنكات اللاتي يسوّين شعرهن وينفضن عــن حجورهن فتات الخبز فيلتقطه الحمـــام . وعمال الطباعة والموزايكو ، يلبسون العفريتــــات السوداء والصفراء التي تصل إلى ركبهم ، قد تمددوا على المقاعد في انتظار صفـّارة البدء في العمل ، وقد اصطفت العربات في الظل عند ركن شارع دي بينـكي ، ودفنت الخيل رؤوسها في غرارات العلف . والحوذية يراعونها من بعـــد بأنظارهم ، وهم يأكلون على آخر موائد المطعم المواجهة للميدان .

ويستطرد جيورجيو :

ــ ومن ثم بقيت وحيداً وأسرارك ، هذا رأيي ، ولن يدهشني أن ذلك كله

بدأ يوم أحسست أنـــه يجب أن تدخن سيجارة ، ولم يكن يعنيك في شيء أن تذهب تشتغل ، وشهوة التدخـين هذه تسيطر عليك . ولعل شخصاً مرّ عندئذ ومعه علبة سجاير تركيّة يلوح بهـــا في وجهك ، ولم يكن بوسعك المقاومــة .

وفجأة تتغير ملامح جينو ، الملامح الماكرة التي يشوبهـا تعالٍ ساخر ، ويندلع في وجهه لهب خاطف من الحقد ، وشفتاه مزمومتان ، ويقول :

– صحّ ، مضبوط ، مثل حكاية ماريا وقبعتها تماماً .

وينتقل إلى جانب ، مسارعاً وكأنما يدافع عن نفسه . ولكن جيورجيو لا يفعل شيئاً إلا أنه يدق على جبهته بعقل أصابعه ، وهو يرد عليه :

– رأسك فارغ هنا كأنه قرعة .

وصوته حزين حزين وفيه رجولة ، كوجهه ، في تلك اللحظة .

ثم يقول :

– تعال هنا .

ويمسك بذراع جينو ، ويهتصرها ، ولكنـه يفعل ذلك بحبّ ، كما يعامل المرء طفلاً ركب رأسه .

– تعال نجلس هنا على هذا المقعد .

وهو صامت لحظة . ثم يقول ، غائب الذهن ، في نغمة المصالحة :

– حذار ، إن عليه قذارة ...

واستطرد :

– إذا لم يعجبك ما قلت ، فلنتكلم كالرجـــال . أنت لا تنكر أننا كنا أصدقاء ، بل أننا لعبنا معاً على هذا المقعد – وفاليريو يشهد بذلك . وليس بوسعك أن تنكر أننا كنا على وفاق ، إذن فاسمع مـــا عليّ أن أقول لك ، لا عليك إلا أن تفعل هذا ، على الأقل ، من أجـلي . لنفرض أنك رحلت من هنا ، وذهبت إلى أمريكا،بعبارة أخرى بعيداً عن بوابة ألاكروتشي . ومادمت

صديقاً ، وعلى وشك الرحيل ، فأنت تُسرّ إليّ بآمالك في أمريكا . فكيف تأمل في النجاح إذا واصلت ما أنت فاعله الآ ن ؟

خفض جينو عينيه مرة أخرى ، وظل جالساً ، يداه بين ركبتيه . لعله رأى الحقيقة في سؤال جيورجيو ، فلم يحر جواباً . ولعل ضميره أصابه الموات حتى لم يعد يخلّصه غير الادعاء والتظاهر . لكنه يبقى صامتاً ، كما لو كان يفكر . ويأخذ في الكلام ، وقد وضع ثقته في أول ما يثب إلى شفتيه من كلام ، لكن روحه بلغت من الجبن أن التوت معه كلماته ، في محاولة لتبرير نفسه .

ويجيب :

ـ ليس لديّ أدنى فكرة ، كل ما أعرف أن الناس يظنونني قذراً، في حين يعتقدون أنك رجل عظيم .

ويكبح عن نفسه ، وينظر إلى جيورجيو ، ثم ينقل بصره إليّ . وعلى شفتيه ابتسامة نفاق ومداهنة ، كما لو كان ضُبط وهو يغش في لعبة للورق ، فحاول أن يخرج من ورطته بالمزاح ، ولكن جيورجيو حازم ثابت ، ونظرته صافية نفاذة مثبتة على جينو ، فيخفض هذا الأخير عينيه على الفور ، ويجيل بصره حواليه كما لو كان يحس أحداً يرقبه .

ـ دعك مما يظن الناس ، وأجب على سؤالي ، لا غير . من السهل أن تقول أن ليس لديك أدنى فكرة ، أتريدني أن أساعدك ؟

ـ كما تشاء .

ـ ماذا تعني كما أشاء ؟ اسمع ، إذا وسعك أن تجيبني ، إذا كنت مصمماً حقاً على مواصلة ما أنت بسبيله ، فمعنى ذلك أن لديك على الأقل شجاعة الدفاع عن رأيك . وعندئذ كنت تثير عندي مجرد الاشمئزاز ، فيوغرني ذلك على أن أدعك تتعفن في حالك ، وهو ما يحدث لو أنك كنت مريضاً بعقلك ، ولكنك تفعل ذلك لمجرد أن تكسب مالاً ، وأن تتجنب العمل ، لذلك لن أدع لك

لحظة راحة . لا تنظر إليّ كما لو كنت أبله ، أتظن أنه يسرني أن يضيع عليّ الغداء لمجرد البقاء هنا معك ؟

ويقول جينو ، وهو الآن بكل كيانه في قبضة حقد مكتوم مثلوم ، وقد شحب وجهه وتجهم :

– ولكن ألا يمكن اعتبار ذلك ، بعد كل شيء ، نوعاً من العمل أيضاً ؟

وتنطلق قبضة جيورجيو الضخمة ، فجأة ، وتنطبق على وجهه ، تسحقه قبل أن يسعني التدخل ، وذراعي المجبورة تعوقني ، كان جيورجيو قد أمسك بصديقه من ياقته وضربه مرة أخرى في وجهه ، ثم طوح بـه على المقعد وصاح :

– انهض ، يا خنزير ، يا قذر !..

ولم يأت جينو بمحاولة للدفاع عن نفسه فضربه جيورجيو مرة أخرى .

وجيورجيو هادىء متمالك الروع وكأن كل ضربة اهانة يطلقها وهو رابط الجأش ، تفلت من يديه لتقع على جينو . ويسارع جندي ليفرّق بينهما ويأتي الشيوخ أيضاً من عند تمثال دانتي ، ويتجمع الحوذية عند باب المطعم ، وتتكون حلقة من المتفرجين .

ويسأل عمال الطباعة والموزايكو :

– ما هذا يا جيورجيو ، عركة ؟

ويهتف صبي بجينو :

– اضربه يا مغفل .

في حين يمسح جينو الدم من أنفه بمنديل .

وكان جيورجيو هو الذي صاح بالفضوليين فانصرفوا ، وقبل أن يمضي عن جينو قال له :

– تذكر أنني سأتزوج يوم الأحد ، لا تنس أن تأتي .

وفي طريقنا إلى البيت قال :

– أعتقد أنّ علينا أن نألف فكرة أنـّه قد ضاع ، أليس كذلك ؟ لست أستطيع في الحق أن أفهم ذلك .

١٤

في تلك الأيام كان الناس جميعاً يتكلمون عن ماريا وجيورجيو : ربات البيوت وقد اقتعدن الكراسي الواطئة على أرصفة شارع دى بيي وشارع ديل أليفو ، وايجيستو السايس ، والحوذية ، وزوجة الفران على باب الدكان ، وامرأة بائع الفاكهة والخضر عبر الشارع .

كان ابريل قدجاء إلى حيّنا ،وأينعت أصص الجيرانيوم على قواعد الشبابيك، وكانت سقوف الغرفة تُمسح مرة ثانية حتى يُزال ما قد يكون عالقاً بها من خيوط العنكبوت تمهيداً لزيارة القسيس ليرش ماءه المقدس . وكانت ماريا تعد فستان الفرح ، وهو تايير رمادي مفصّل عند الخياط ، وله تنّورة ضيقة محكمة . وكانت تنوي أن تلبسه مع بلوزة بيضاء مطرزة كانت تشتغل فيها لوسيانا كل ليلة بعد العشاء .

كانت ماريا قد ذهبت إلى الخياط ، يومي أحد متتالين ، لتجرب الفستان ، ترافقها لوسيانا ، فهي تصحبها الآن معظم الوقت . ثم ذهبا بعد ذلك إلى قداس الظهر ، ورأيتهما في شارع دى مالكونتينيتي ، تتأبطان ذراع احداهما الأخرى ، بعد خروجهما من الكنيسة ، واستدارتا على نداء أولجا التي أسرعت تلحق بهما .

تغيرت ماريا تغيراً كبيراً خلال السنة الماضية ، وهدأت ملامحها ومضت حدّتها لتخلي السبيل أمام رقة امرأة عاشقة . وكانت تجمع شعرها على مؤخرة عنقها ، وفي قامتها ومشيتها رشاقة وثقة ، فهي الآن امرأة ، وكأن جسمها تنبعث منه هالة من بهجة حديثة العهد بالتفتح والتيقظ .

لصبح للصوت الدفيء المبحوح الذي كان يرود أيام مراهقتي نـبرة راسخة الآن ، قوة تتحكم فيه وتحكم صياغته .

كانت تلك سنة خطيرة في حياة ماريا ، اضطرت فيها غرائزها أن تقبل الواقع التي كانت ترفضه . لقد وجدت التوازن، وهي الآن إذ تتضح لها الأشياء تحس ّ بالحاجة لأن تبرهن لنفسها أنهـا حرة حقاً . ولذلك أخذت تبحث عن صديقها القديم ، عن عمد وتدبر ، ذلك الرجل الذي تركهـا نائمة في الفندق . فرأت فيه مخلوقاً مضحكاً يتفوه بهراء مزوّق من تحت شاربه السخيف . لا ولم تعد تعنيها كؤوس الشراب في مقاهي وسط المدينة ، بل تجعلها تكحّ ، ولعلها تخدع نفسها قليلاً إذ تدلل لنفسها على ذلك كله ، ولكن ما يعيد لنفسها الثقة الكافية أن تذكر أنها لا تنوي الوفاء بوعدها لصديقها القديم في أن تلقاه قريباً ، ولا عليها إلا أن تعود فتذكر جيورجيو وما يحمله لقلبها من عزاء .

وما أن يبلغ جيورجيو البيت حتى تنهي إليه كل شيء ببهجة وفرح، وترمي بذراعيها حول عنقه ، وتحتضنه بقوة ، وتنشق رائحة رجولته .

ويطايبها جيورجيو وهو يقول :

– إذا كنت تعتقدين ذلك ضرورياً ، حقاً ، فقد فعلت الشيء الصواب ، لكن ما يقلقني أنك ظننته فعلاً ضرورياً .

– كنت أنتظر أن تقول ذلك ، لم أكن أريد إلا أن أمتحـن نفسي لكني اقترفت خطأ . سامحني ، أرجوك .

كانت تلك سنة من أحاديث المحبة ، والقرارات الهادئة ، والانتصار المتبادل من جانب ماريا وجيورجيو .

كان جيورجيو قد قال لها ، في صباح تلك الليلة من فبراير :

– يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا ؟

وكان حبهما ، دون أن يحسا ، طيلة العـام الطويل ، نزوعاً إلى الإنسجام والتناغم ، إلى أعلى ، وعلى استحياء ، نحو تلك الحاجة الأولية التي تحسها كل

المخلوقات التي تحب حقاً ، للتعبير عما لا تمكن العبـــارة عنه . وكمل حبهما ، طواعية ، في يوم أحد من سبتمبر عندما كانا وحدهما بالبيت . كان شيئاً بسيطاً، محتوماً لا معدى عنه ، كانطلاق برعم زهرة جيرانيوم في النافذة ، كانسياب نهر الأرنو ، بهدوء ، منصبّاً إلى البحر .

كانت أم جيورجيو قـد تنازلت عن البيت القائم في الحيّ ، وذهبت مع ابنها الأصغر لتسكن مع بعض ذوي قرباها في الريف ، ومن ثم كان جيورجيو يعيش الآ ن في بيت ماريا ، وهو ينام في غرفة الجلوس ، على سريرها السفري ، أما هي فتقاسم أمها الفراش . ويوغل الليل بينما أريجو وجيورجيو يتحدثان عبر المائدة التي تفرق بين سريريهما ، وتدق الساعة دقاتهـــا العالية في البيت الذي يعمره السلام . ومن الأسرار التي يعرفها الأصدقاء أن ماريا حامل -- وإن كان بعض الخبثاء قد اشتمّوا الحقيقة . هـــذا هو الحدث الذي يضع حداً لشبابنا . وهو يُحفظنا ، في أعماق نفوسنا ، ومع ذلك فنحن سعداء به .

كنت قد سوّيت أمري مع كارلو ، ومن ثم شعرت بأن قامتي قد طالت . فقلت له ، بحزم وثبات لم أكن أعرف أنهما من خصالي ، انني أحب ماريزا ، وأعرف كل شيء عنه وعن الكهف ، وقلت :

ــ أنت تعرف ذلك كله ، بالطبـع ، ولست أردده لمجرد أن أذلـّك . إن ما فعلته آلمني أوجع الألم ، وأنا أعرف أنه لم يعد يعني شيئاً الآ ن ، وأنه ليس من شأني حقاً ، ولا من شأن ماريزا ، بل لعله لم يعد يعنيـه ، وإنما عليّ أن أكلمك عنه . لست أدري لماذا ، ولكن عليّ أن أفعل ، ولا أريد من ذلك أن يزعجك أو يشغلك ، صدّقني .

وعندما رفعت بصري إلى كارلو وجدت عينيـــه نديتين بالدموع ، عينيه الصفراوين تينك كعيون القطط كانتا مملوءتين بحنان ورقـة رأيتهما أحياناً في طفولته . وتكلم بهدوء نادر فقال لي كيف مسّت الأحداث طبيعتـــه فأثرت عليها ، ولم يرحم نفسه ، ومع ذلك فقد كانت نبرة صوته توشك أن تكون نبرة

ود وصداقة . ثم قال في النهاية :

– ماريزا بنت طيبة ، تعذبت دون ما جريرة من جانبها ، وأنا على ثقة من أنها تحبك . فإذا كنت تعتقد حقاً أنهـــا المرأة التي تناسبك ، فذلك خير ما تفعله . لم أكن أحبها في يوم من الأيام ، كانت تبدو لي ، في فــترة من الزمن ، كأنها فراشة وكان لزاماً عليّ أن أضع يدي عليها ، وأنت تعرفني عندما أفقد عقلي ، ولعلني الآن قد فتحت صفحة جديدة . إنني أحاول جاهداً ، ما وسعني الجهد ، أن أفعل الشيء الصواب ، ومـــا أحوجني الآن ، أكثر من أي وقت مضى ، لبضعة أصدقاء من حولي ، قل ذلك لماريزا .

ثم استطرد :

– والفضل لجيورجيو في أنني تغيرت ، ذلك أثره علينا جميعاً ، ألم تلاحظ ذلك ؟ هو الذي جعلني أعنى بأولجا الصغيرة ، والفضل له في أنني استطعت أن أحدث أمي حديثاً جدياً ، أتعرف أنها ستذهب إلى ميلانو ؟

وتضرج وجهه وهو يقول ذلك ، ثم ابتسم وسألني :

– وأنت نسيت كل لوسيانا ، تماماً أليس كذلك ؟

فأجبت :

– لوسيانا هي نفسها لم تتغير . كنا قد عرفنا ، حتى قبل أن نبـدأ ، أننا صديقان لا أكثر .

وما زالت النسوة في شارع دي بيدي وشارع ديـــل أولينو يتحدثن عن جيورجيو وماريا :

– البنت الغَزِلة تظل طول عمرها غَـزِلة .

– الحمد لله أن أمها تستطيـع الآن أن تغمض عينيها في سلام . وأحوال العائلة تنصلح الآن ، فالبنت تشتغل في البيت ، وجيورجيو عنـــده شغل في المخزن .

وتقول امرأة الفران لامرأة بائع الفاكهة والخضر :

ـ والله هذه البنت بطنهـــا كبيرة ، صدقيني ، وإلا فما الداعي لكل هذه العجلة ؟

ـ وإذا أخذ العرسان غرفــة النوم ، فالعجوز ستنام مع ابنتهـــا في غرفة الجـــلوس .

ويزجر الجستو أحد الحوذية لأنه قال قولة بذيئة ، ويفتل الشعر على الشامة في وجهه وهو يقول :

ـ بنت من أحسن البنات ، لا عيب فيها .

أما آرجيا فتجلس وبين ذراعيها طفلهـــا ، في وسط النسوة الجالسات على الكراسي الواطئة ، وهي تخصف بأصابع حاذقة سريعة سلال النبيذ ، بالقش الملون ، وتقول :

ـ يا خسارة ان ربّيْ العائلتين لن يحضرا الحفل ، فالحشيش زرع على تربة واحد منهما ، والثاني في الحبس ، مع أنه بريء كالولد على ثدي أمه ، والله أعلم متى يخرج من السجن ..

فتحذرها الأخريات :

ـ كفى ، كفى ... لا شأن لنا بأحد ...

١٥

تم الزفاف في ابريل ، آخر يوم أحد في الشهر ، كان ذلك عام ١٩٣٤ ، إن كان لذلك أهمية ما . ولم يكن جيورجيو قد بلغ العشرين بعد ، ولم تكن العروس قد بلغت التاسعة عشرة . وكان كارلو في عمر العريس، وكنت أنا كاتب هذه السطور في الثامنة عشرة ، مثل ماريزا ، ولوسيانا في السابعة عشرة . كنا نحن شهود الفرح. وشغلنا الذهاب والمجيء بين مصالح الحكومة المختلفة وسراى الاسقفية ، نحاول أن نختصر ونخلّص من الاجراءات المعقدة الناشئة عن أن « طرفي العقد قاصران » وظلت مسألة الحصول على موافقة كتابية من والد جيورجيو معلقة لا تنتهي ، ولم يكن يشغلنا إلا أن نطلع وننزل سلالم مكتب النائب العام .

كان أريجو ، شاهد العريس ، في عمر لوسيانا . لم يكن فارق السن بيننا جميعاً ، باختصار ، إلا بضعة شهور . أتعرفون السبب ؟ يرجع هذا إلى تلك الحرب القديمة ،الحرب التي كانوا يغنون فيها: «عندما يعود العساكر الى البيت...» وعاد آباؤنا للبيت في الاجازة ، وقد جن جنونهم من الشهوة، وعانقوا زوجاتهم، وفي قلوبهم الخوف ، فلعلهم يلتقون ببعضهم البعض للمرة الأخيرة – وهو ما حدث لوالد كارلو . كان قد أخذ ابنه الذي لم يكن يبلغ العامين من عمره ، في ذراعيه ، قبل أن يعود للخنادق، ابنه الذي لم يكن يوشك أن يعرفه ، ونظر اليه بثبات ليبقى في ذهنه على تلك العينين الصفراوين كعيون القطط ، وقال : « ذكّر امك أننا إذا فعلناها ثانية ، فستكون بنتاً هذه المرة وسنسميها أولجا على اسم جدتها العجوز المسكينة ، ربنا يرحمها » .

عنى ايجيستو بأمر العربات ، وأقنع صاحب الملك أن يقدمها مجاناً هدية للعروسين . وانحشرنا جميعاً في العربتين ، وسقنا في شوارع الحي ، والناس تهتف بالتحايا عند مرورنا . كان جيورجيو يرتدي حلة زرقاء استعارها من جينو . كان أشقر ، وسعيداً . وكانت ماريا تحاول أن تبدو رابطة الجأش مطمئنة ، لتخفي تلك البهجة الكامنة التي تجعلها تتمنى لو أنها كانت وحيدة ، حتى تثبت تلك اللحظة في ذاكرتها ، إلى الأبد .

وكنا سعداء لأننا أصدقاء ، وقد بلغنا معاً إلى النقطة التي نسميها السعادة . واستحالت في ذاكرتنا كل حياتنا الماضية ، طفولتنا وأيام مراهقتنا ، بما فيها من شكوك وأحزان ومحبات وكراهات باكرة جاءت قبل الأوان ، ومع ذلك فقد كنا ، دون أن نحس ، نستند إلى ذكرياتنا في طلب الأيد والركيزة ، كأننا نقف إلى نافذة مألوفة ، ونطل مع ذلك على مشهد جديد غريب .

كنا قد قررنا نظام موكب العرس : أريجو ولوسيانا ، ماريزا وأنا ، كارلو وآرجيا ، ولما كان جينو لم يأت ، فقد أستندت اولجا إلى ذراع بيرتو وهو أحد زملاء العريس في الشغل ، في نحو الثلاثين من العمر ، فارع نحيل . تنطق نظرته بالعزم ، ودود ، وإلى جانبه أولجا ، حلوة رقيقة كأنها زهرة في ردائها الأزرق المصنوع من نسيج صيفي أو يكاد ، ممتلىء تحت الخصر ، يلتف حول كتفيها في لفات كرغوات الزبد ، وكانت ماريزا تتعلق بذراعي ، مهتاجة خفية ، فقد كان بوسعي أن أحدس هيجانها ، وإن كانت تخفي ذلك تحت مظهر من الفرح .

وتناولنا إفطار الفرح في غرفة نوم العروسين ، كانت الهدايا مفروشة على السرير ، وازدحمت غرفة النوم وغرفة الطعام بالاصحاب والجيران الذين جاءوا للتهنئة ، ومن بينهم أبي وجدتي . ووقفت الوالدتان في باب المطبخ يداً في يد ، ولم يبق في النهاية إلا نحن الاصدقاء . وكان بيرتو معنا .

جلسنا إلى مائدة مثقلة بالحلوى وزجاجتين من « السبومانتي » والعروسان على رأس المائدة محشوران معاً في كرسي واحد ، بناءً على طلبهما .

كانت ذراع جيورجيو حول كتف ماريا . وقال :

– سيدفع جينو ثمن هذه الاهانة .

فهتفنا :

– يسقط جينو .. وانفجرت سدادة زجاجة النبيذ .

كان ذلك نموذجاً لافطار الفرح في حيّنا . حيث يذهب العريس للشغل صباح اليوم التالي . الحلوى والسبومانتي ، مع شيء من ماضينا قد آتى ثمرته وحملنا معه نحو السعادة ، شيء مركّب من أفراح وأحزان صغيرة .

ورفعت كأسي واقترحت نخباً :

– في هذه المناسبة السعيدة جداً ، فليقبل العروس والعريس من اصدقائهما أصدق التمنيات بالسعادة الأبدية .

تلك كلماتي بالضبط . ما زال يسعني أن أسمعها الآن ، بل هي تبتعث الآن شعوري بالفرح والحرج الذي كان يملأني .

وطلب جيورجو منا أن نسكت لحظة ، وقال :

– انني سعيد جداً ، كما يمكنكم أن تتصوروا . ولكن كفى خطباً . من فضلكم . ليس هذا من شأننا . ثم أنه يجب علي بعدئذ أن أرد على الخطابة بالخطابة . ولست أحسن من هذا شيئاً .

فملأنا أقداحنا مرة . وأجهشت الوالدتان بالبكاء وتعانقتا بقوة . ونهض العروس والعريس وهدأا من روعهما بالقبلات وكلمات المطايبة ثم قال جيورجيو :

– والآن بدلاً من الخطب ، وما دمنا جميعاً أصدقاء هنا ، فقد آن الوقت لكشف السر . أريجو ولوسيانا مخطوبان .

وصفق بيديه وهو يستطرد :

– يتضرجان الآن خجلا . ولكنها الحقيقة .

ابتسمت لوسيانا وتحركت إلى الخلف ، بحركة غريزية ، في كرسيها وهتفت:

ـ أوه .. سأقع .. بالكرسي ..

وهي تمسك بالمائدة لتستعيد توازنها .

كان وجهها منوّراً ووجنتاها مشتعلتين . وكانت قد سوّت شعرها الأثيث في ضفائر جمعتها خلف رأسها في كعكة من الشعر ، فكشف ذلك عن اذنيها الدقيقتين اللتين تكادان أن تشفا من فرط الرقة . وكان قرطها من المرجان الأحمر . فذهبت ماريا وقبلتها ، وكذلك أولجا . وأجهشت ماريزا بشهقة من البكاء وهي تنهض بدورها . ولكن لوسيانا دارت حول المائدة وأخذتها بين ذراعيها . وكانت ماريزا تضحك عندئذ ، فتكشف عن أسنانها البيضاء ، وهتفت :

ـ يا لي من حمقاء ، كنت على وشك البكاء ..

وغلبت أم أريجو على أمرها سعادةٌ غامرة مفاجئة ، فأمسكت لوسيانا واحتضنتها إلى صدرها ، مبهورة النفَس من الفرح ، محمرّة العينين .

وقالت :

ـ ما أصغركما .. وماذا تقول أمك في هذا ؟

وشددت على يد أريجو ، ثم لوسيانا ، ونظرنا إلى أعين أحدنا الآخر بوفاء ، وتبادلنا التنميات الطيبة .

وفجأة جاءنا صوت جينو من السلالم :

ـ هأنذا ، قادم ..

وبعد لحظة كان يخبط على الباب بقوة .

فارتفعت ضجة صاخبة من الهتاف وصيحات العتاب الأخوية تحييه . كان مقطوع النفَس ، يعرق كما لو كان جاء يجري .

ـ تأخرت ، أنا عارف . ودائماً أصل متأخراً ، كل حياتي .

وجلس على رأس المائدة وكرّمه العروسان ، وأخذت ماريا منديل جينو من جيب سترته العلوى ، وقدمته له .

– امسح وجهك أولاً ، ثم تكلم بعد ذلك ، وقدم لنا التهنئة .

فخفّف ضغط نفسَه ، وراح يعتذر :

– كان الطريق طويلاً ، ولم يأت الترام .

فقال جيورجيو :

– لا بأس ، لا بأس ، لا حاجتك للاعتذار ، وإن كان بوسعك أن تفرغ لنا في صباح اليوم .

– عندك حق ، لكنني لم أكن بالبيت ليلة أمس .. بل الأصح اني كنت هناك ، ولكن كان عليَّ أن أنهض مبكراً ، قلت لهم أن يوقظوني ، لكنهم نسوا .

فلكمه جيورجيو ملاعباً على مؤخرة عنقه ، وقال وهو يصب النبيذ :

– كفاك حكايات .. وصلت هنا لكي تدرك هذه الزجاجات ، فماذا تريد ؟

– آه ، ولكن هناك ما هو أكثر ، لقد أتيت بهدية .

وأخرج من جيبه ساعة يد .

فصحت أنا وكارلو :

– هيى .. أرنا .. أرنا .

وأجاب جيورجيو :

– ذهب .. هذه حقاً هدية .

فاستدار جينو نحو العريس ، ولعله كان يريد أن يقترح نخباً ، لكنه تحرك فجأة حتى لم يستطع أن يتفادى ماريا التي كانت إلى جانبه ، فانسكب النبيذ عليها ، وغرق التايير الرمادي ، والبلوزة التي تعبت لوسيانا في تطريزها .

وهتفت ماريزا :

– النبيذ لا يترك بقعاً .. هذا يجلب الحظ الحسن .

١٦

ماذا لو أنني حدثتكم عن المحبـــة والولاء التي تعمر جدران بيوتنا ، تلك الجدران الملطخة ببقع الرطوبة والفائحة برائحة السلـَقـَون ؟ نحن شعب أبلانا الكفاح والعبودية ، نحن ندفع عقوبة ذنوب اقترفت منذ أجيال طويلة ، ذنوبنا نحن ، تماماً كما أن الوجوه التي تطل علينا من رسوم مازاكيو في كنيسة الكارمين هي وجوهنا نحن . ومنذ صبانا تحمل دماؤنا ثقلاً ينعكس في حركاتنا ، فيوهنها ، وكلماتنا تنوء بمعنى آخر يعزّ علينا ادراكه ، ومشاعرنا ساذجة وأبدية كالخبز ، كالماء المنبثق من نافورة ، يشفي غلة عطشنا دون أن نلحظ له طعماً . ونحن الآن في العشرين ، نقول لأنفسنا أن هناك علة لبقائنا أحياء . وما سرّنا الا نشدانٌ داخلي مضطرب يقوم به كل منا بحثاً عن هذه العلة التي تفلت من أيدينا . نحن نلتقي عند مدخل بار سان بييرو أو نجلس إلى مائدة القمار ، وفي وجوهنا وهج الرضا . وكل منا يصارع ضميره ، يعالج أن يفك خيوط العقد المتشابكة الناجمة عن جهله . ونحن نثبت عيوننا على السقف ، ونستعيد في أذهاننا أحداث اليوم الفائت قبل أن يغلبنا النوم ، وهناك دائماً شيء لا يقع في مكانه . ويأتي النوم وتبقى المشاكل من غير حلّ ، وكل يوم يقرّبنا من أحدنا الآخر. إن جيورجيو محق : ان عالمنا محدود أكثر فأكثر ، في داخـل نطاق قوس سان بييرو وبوابة ألاّ كروتشي . ونحن بمحاولاتنا المضطربـــة أن ننكر وجود كل شارع وكل ساحة لا تقع في حيّنا ، انما نقيم دون أن نحس دفاعاً ضد شيءٍ مـا في العالم الخارجي ، شيء خاننا . هذا الشيء خاننا دائماً ، فذكرانا عن أجدادنا أنهم ناس قد ماتوا فقراء ، مستنفدين ، في سرير بمستشفى ، في ملجأ للفقراء ، أو

صرعهم المرض في الشغل ، وقد بقيت الصامولة الأخيرة على هيكل النول لم يُحكم تثبيتها بعد . وآباؤنا صورة حية للارهاق والكلال ، يجرّون أنفسهم في الحياة ، وأمهاتهم يضعن الشيلان على أكتافهن ويتنهدن اذ يُفرغن ظروف النقود في صباح يوم السبت . ولكننا نقترب من أحدنا الآخر بأجسامنا الفتيّة ، وتشتبك أذرعنا معاً في صف طويل ، والشارع كله ملكنا عند منتصف الليل ، ونحن نغني ، فإذا مرت سيارة انقطع الصف وانتهت الأغنية . ويقذف كارلو بشتيمة إلى السائق الذي ينفخ بوقه مراراً .

فاذا حدثتكم عن الطيبة والولاء والحب الذي يجاوز كل تعبير ، فماذا تقولون ؟ ها نحن نتعلم أنه يجب علينا الرضا بأنفسنا كما هي ، وأنه يجب أن ندرس العالم الذي تتكشّف عنه وجوهنا ، فهو اللغز الوحيد الذي نملك له مفتاحاً ، هو الشيء الوحيد الذي يتاح لنا أن نملكه ونعرفه . قلبنا لا دفاع له ، لكنه كامل غير منتقص ، وللأفعال والمشاعر مقدرة على أن تحفر خطوطاً في لحمه الحيّ . نحن طين ما زال ، بعد آلاف السنوات ، ينتظر الصياغة والتشكيل . ونحن نصوغ شكولنا البائسة بأنفسنا ، ضربة بعد ضربة ، مثال ذلك أن أريجو ترك يده ، ذات ليلةٍ من مارس ، تبقى في يد لوسيانا لحظة أطول من المعتاد . ثم تبادلا مساء الخير المألوفة ، وناما ليلتهما وهما يبتسمان ، في بيتيهما المهددين بالسقوط يضيئهما نور القمر . وكان حلقاهما ملتهبين كأن الحمى تكويهما . كانا سعيدين ، فقد كان العالم كله تحتويه يدان قد ضغطت احداهما على الأخرى لحظة .

وما زال جيورجيو هو الذي يحفزنا للنمو والنضوج ، دون أن نحس ، وهو الذي يروي ، بالقدوة والكلمة ، تلك الأرض الصادية التي تجهد زروع وعينا أن تشق فيها لنفسها منبثقاً .

كان جيورجيو قد ولد في كانتو ألي روندنيني – ناصية السنونور في قلب حيّنا . وعاش صباه في الدور العلوي من البيت ، كان الوحيد منا الذي استطاع

أن يستمتع بالسماء عند يقظته من النوم ، ولعل ذلك سبب زرقة عينيه . كان للبيت شرفة صغيرة على السطح تستطيع منهـــا أن ترى قبة الكاتدرائية عن كثب ، ويلوح أن برج الجرس في سان سيمون في متناول يديك حتى لتستطيع أن تمسّه إذا مددت ذراعيك ، وكان قرع الجرس يهز غرف البيت .

كان أبوه بنّاءً ، وكان يعود إلى البيت صيفاً ، وسترته على ذراعه ، وقبعته المصنوعة من الخوص ، مدفوعــــة إلى خلف ، ويضع رأسه تحت حنفية الماء المفتوحة لحظة ، ثم يخرج إلى الشرفة يجفف نفسه ، والماء يتساقط منه ، وهو يغنّي ، ثم يجلس إلى المائدة في غرفة الجلوس . وكان من دأب جيورجيو أن يجلس إلى جانبه ويحكي له عما فعل أثناء النهار ، ومن الشرفة الصغيرة المفتوحة على السماء تأتي زقزقة السنونو ، ودقات الأجراس ، وفي البيت رائحة القرميد الأحمر الحلوة ، وأنفاس المساء الرطيبة ، وأمه في المطبخ ساعتهـا تعدّ سلاطة طماطم ، أو تقلي وجبة « البولنتا » من القمح .

وكان جيورجيو يتشكل ، ليلة أثر ليلة ، تحت ناظري أبيــه . وإذ تمر الأيام يستتب الفهم بين الأب وولده .

كانا يجلسان في الشرفة بعـــد العشاء ، ويتكلم الأب إلى ولده ، يفسر له خبرته بالإنسانية ، وأساه الهادىء لهذا العالم .

كان أبوه رجـلا في الأربعين ، أسمر ، وعيناه سوداوان مشعتـان بالحيوية ، وصوته ودود ، قوي الذراعـين ، يكسو الشعر صدره . وأمه تهدهد الطفل ساعتها ، وهي بيضاء البشرة ، وتغني أغنية للأطفال :

نم — نم يا حبيبي
نام الصغير .. نام ...

ويأتي من الشارع ، تحت ، صوت الراديو ، وتومض الأضواء تحت سطوح البيوت المتراكبة . وتأتي من الشرفات الأخرى أصوات رتيبة ، مكتومة ، فهي لا تشوب السكينة الشاسعة في السماوات .

ويقول الأب مثلاً :

– البناية التي أعمل فيها أصبحت الآن أعلى بمقدار كذا ..

ويردّ الابن :

– ضربت كارلو اليوم لأنه أراد أن يضحك على جينو ويأخذ حصّته من الكريز ، ضربته على أنفه وخرّ منه الدم .

وفي ليلة شتوية ، وكان البيت بارداً ، والريح تعوي في الشرفة ، تناوب الولد والأب يسألان أحدهما الآخر عن أسماء عواصم البلاد .

فسأل الأب : ايرلنده ؟

وأجاب جيورجيو : دبلن .

وفي تلك اللحظة دوى على الباب قرع مرتفع،طائفة من الأفظاظ الأجلاف، يصيحون : افتح ، البوليس .

وضعوا القيد الحديدي في يدي ابيه ، ثم قلبوا البيت رأساً على عقب ، كاللصوص ، وشقوا المراتب ، وأفرغوا الأدراج ، لكنهم لم يجدوا شيئاً ، ومضوا ، وأخذوا معهم أباه .

كانت أم جيورجيو قد تجمدت من الدهشة ، نكصت إلى الجدار فاستندت إليه طيلة الوقت ، والطفل يرضع على صدرها . وقبّل الأب جيورجيو ، ثم قبّل زوجته والطفل على ذراعها .

وقال لزوجته :

– لست أظن أن هناك ما يدعو للقلق .

فتضاحك الزوار :

– هذا ما تظن .

كان جيورجيو عندئذ في الرابعة عشرة ، وقد بدأ يحب ماريا خِفْية ، وتعلق بذراع أبيه ، كأنه يظهر له أنه يقاسمه محنته .

وعندما عاد الهدوء إلى البيت ، وعاد البيت أشد برودة في ثلوجة الشتاء

القارسة سقطت أمه منهوكة مستنفدة ، على كرسي .

– لكنها لم تبك .

كما قال لي جيورجيو ، بعد سنوات :

– كانت هادئة ، توشك أن تقبل الأمر على علاته ، ولكن في وجهها وحركاتها قوة جديدة . وقالت لي : « علينا الآن أن ندبر أمرنا دون أبيك ، عليك أن تبحث عن عمل ، وعلينا أن نبحث عن محام على الفور » .

ثم نهضت ، ووضعت الطفل في مهده ، وطلعت إلى الشرفة ، كان بوسعي أن أسمعها وهي تحرك القرميد على السقف . وعادت وفي يدها بضع كتيبات ومنشورات كتبها أبي بخط يده ، وبضع مذكرات أيضاً ، وقالت لي : « أنت الآن قد كبرت يا جيورجيو ، اقرأ هذه الأشياء ، واحفظها عن ظهر قلب حتى يخرج أبوك ، ولا تقل كلمة واحدة لأي شخص ، حتى تتأكد أنك عثرت على واحد مثل أبيك ، تماماً ، على الأقل ، يجب أن يكون له مظهر أبيك تماماً ، وأن تكون يداه مثل يدي أبيك تماماً ، فيما أظن » . – ذلك سرّي بإزائك وإزاء أصدقائي الآخرين ، ثم وقعت على بيرتو ، كان له نفس مظهر أبي ، ونفس يديه .

١٧

كانت أمسية من سبتمبر ، وكنا نتمشى على شط الأرنو ، ونحن ندخن ، كنا جزءاً من الجماهير التي خرجت تستروح الهواء بالقرب من مرسى القوارب عند كوبري دي فيرو ، أو على الصنادل الكبيرة التي يحركها ببطء نوتيّ يدفع عصاه الطويلة في الطين . وكانت البنات تسبقنا ، وقد التففن بماريا التي تضخمت بطنها بالحبل ، وكان إلى جانبها ماريزا ولوسيانا ، وأولجا أيضاً وشعرها الأشقر يومض بالزرقة في ضوء القمر كلما دفعت برأسها إلى الوراء .

وقال أريجو :

– أين جينو الآن يا ترى ؟

فأجاب كارلو :

– في الطرف الآخر من العالم ، يا بختِه ..

وهو يطوّح بقدمه قطعة من قشرة بطيخ .

فعلق جيورجيو على ذلك :

– أظن أنه يُحسد على ذلك ، إلى حدٍ ما .

كان بوسعنا أن نسمع الأصوات الصادرة عن مسرح الهواء الطلق ، كان أحد المغنين يتنهد بأغنيته ، ومن نَصْبة البطيخ الغضة بالأوراق الخضراء والفاكهة كانت نداءات البائع ترتفع : حَمَار وحلاوة .. وكانت تمرّ على شط النهر عربات الحنطور ، وبضعة سيارات . والناس ، طوائف وعائلات ، يتبادلون التحية إذ يلتقون ، ووقفت ماريا والبنات أمام المسرح يصغين إلى

الأغنية من الميكروفون ، وكان قد تسلق السور جماعة من الفتية والصبيان يسارقون النظر إلى المسرح .

جلسنا على السور المطل على النهر ونحن ندخن ، ولم نكن ننسى أن نراعي البنات بأنظارنا .

وتكلم جيورجيو :

– جينو انتهى ، من غير شك . لا يهمني أنّ عنده شذوذاً جنسياً بقدر ما تهمني الطريقة التي رمى نفسه بها ، أقصد أنه أراد شيئاً ما دون أن يعرف ما الحكاية ، ودون أن يفعل ما يستحق عليه ذلك ، سوف يدمر كل ما يمسّه ، كما لو أن شخصاً أعطاني صندوقاً بداخله راديو ، وليس معي كماشة أفتح بها الصندوق ، وفي حالة جينو كان الصندوق يحتوي العالم كله ، بداخله : مدن جديدة ، أصدقاء جدد ، حياة جديدة ، لكنه لا يعرف كيف يبدأ ، ليس معه كماشة ، ويظل الصندوق ، والعالم مغلقاً ، أمامه . سيمزق الجلد عن يديه محاولاً أن يفتحه ، ويخبط الصندوق بالجدار ، وعندما يتحطم يجد أن الراديو تحطم معه أيضاً .

فقال أريجو :

– طيب ، ولكن ما يجعلك تظن أنه لن يجد الكماشة المضبوطة بنفسه ؟

– سوف يدبر أمره بطريقة ما ، فليس بأغبى الناس طراً في العالم ، ولكن طريقة تكوينه سوف تزج به دائماً في مسائل مريبة قذرة ، وسوف يصادف مشاكل كبيرة في يوم ما .

فتدخل كارلو قائلاً :

– أنت دائماً تنظر إلى الجانب الأسود من الأشياء ، ولم لا تكون الحياة مغامرة أو من غير صندوق ، ثم تجري الأمور على ما يرام ، في النهاية ؟

– آه .. هنا .. يجب أن نكون أذكياء حقاً ، وليس جينو بالذكي ، ويجب أن تكون جريئاً مقحاماً لا تبالي بشيء ، وهو بائس يخاف من خياله ، هذا

شيء آخر عندما تغامر بكل شيء على ورقة واحدة ، وأنت تعرف ما أنت بسبيله ، وشيء يختلف بالمرة عندما تبعثر نقودك على ورق لا غنى فيه .

فقلت :

– وماذا عن أهل صقلية الذين ذهبوا لأمريكا ؟ فانهم مغامرون هم أيضاً .

– لا تخدع نفسك ، فعندهم كاشة هم .. انهم يحذقون ألف صنعة ، وقد اعتادوا العيش على رغيف من الخبز الجاف، وبصلة حراقة منذ يوم ولادتهم.

وتوقف جيورجيو لحظة ليشعل سيجارة ، ثم استطرد :

– وليس عند جينو شيء على الاطلاق ، لا شيء إلا بضع عادات قذرة ، هذا ما يحفظني عليه ، يحاول أن يخرج إلى العالم ، قبل أن يعرف شيئاً واحداً .

كان بوسعنا أن نحس أن هناك جانباً من الحق فيما يقول ، شيئاً بعيداً عنا وعن حديثنا عن جينو، يفصلنا عن العالم، كما يخطف البرق فيمزق السماء، ويبطيء الرعد فلا يجيء ، فيبقى المرء معلقاً . كنت أنا وجيورجيو نجلس على السور ، وكارلو وأريجو يستندان إليه .

قلت :

– وإذن فالوداع لأوهامنا وأحلامنا ، وإذا لم يكن لدينا أمل فخير لنا إذن أن نرمي بأنفسنا في النهر .

– الأمل .. هذا يختلف عن خداع الأوهام .. أن نفقد الأمل ، هذا ليكون مؤسفاً حقاً ، ولكن العمل شيء بداخلنا ، شيء نرعاه ، يوماً بعد يوم ، ثم نلفه في طرد ظريف ، ونضع عليه بطاقة « احترس ، قابل للكسر » إلى آخره ، ومن أين يأتي الأمل ، على أي حال ؟

فأجاب كارلو :

– الله أعلم .. يأتي عليك وقت تأخذ تتمنى فيه شيئاً ... هذا كل ما في الأمر .

– إذن فهو مجرد وهم ، لأن الأمـــل شيء يولد بداخلك ، وينمو شيئاً فشيئاً ، ويجعلك تفكر في الأمور . هب أن شخصاً يمـوت من العطش ، انه ليرى الماء في كل مكان حوله ويأخـذ يلعق جدار بيت لأنه يظن أنه نافورة ماء ، هذا هو الوهم ، أما الأمل فيختلف ، فأنت تفكر فيـه وتمعن الفكر ، وتأخذ طريقك إلى حيث تعرف أنه يوجد الينبوع ، وقد تموت قبل أن تصل ، لكنك على الأقل قد سلكت السبيل القويم .

وأخذ نفساً أخيراً من عقب السيجارة الذي كان يحرق أصابعه ورماه .

وقال كارلو :

– طيب .. طيب ، شغل الماء هذا جميل جداً ، ولكن ما رأيك في الكلام عن الوقائع الملموسة ، فيم يأمل الناس ؟ يأمـلون في الحصول على عمل أفضل ، وتربية أسرة ، هذا هو الشيء المألوف ، فماذا لو أن جينو كان يطارد وهماً ، وأظن أنه يفعل ذلك حقاً؟ أراهن أنه يظفر من ذلك بمتعة لا نجدها في أي شيء نفعله نحن ، بل إذا راح في داهية يوماً ما ، فلن يلقى أسوأ مما نلقاه ، وسوف يكون له على الأقل شيء له قيمة يذكره في ماضيه .

فبدأ جيورجيو يقول :

– آه .. لكن ..

فقاطعه كارلو :

– صحيح ، أنا عارف ، إنه قد ارتبط بأنه من الشواذ ، لكنه لو كان هرب مع عاهرة ، أو بنت ذوات غنية ، لما فتح أحد فمه

فوضع جيورجيو يديه تحت فخذيه ، ودفع صدره ، إلى الأمام ، وعندما تـكلم كان في صوته نبرة رجل راضٍ عن نفسه :

– اسمع ، كنا نتـكلم حتى الآن مجرد كلام ، أمـــا فيما يختص بي ، فلو أنه هرب مع امرأة لـكان ذلك نفس الشيء بالنسبة لي .

فتدخل أريجو :

ـ لقد ذهب لوحده ، كما يقول الذين رأوه .

فابتسم جيورجيو ، وربت على كتفه .

١٨

كانت الأغنية قد انتهت بانتهاء القسم الأول من العرض ، وتخطرت البنات آتيات نحونا ، وخرج بعض المتفرجين إلى الميدان وتجمعوا حول نصبة البطيخ ، وجاءت من النهر صرخة امرأة أفزعها تغلغل الصندل على المـــاء تتبعها قهقهة ضحك، ولحقت بنا البنات على السور وهن يتكلمن عن طقم مُلابس طفل ماريا.

وسألت ماريزا وهي تستدير إلينا :

ـ ما الخبر ؟ جيورجيو يلقي محاضرة ؟

فأجاب جيورجيو :

ـ مضبوط .

فقلت :

ـ أعتقد أنني أدرك ما ترمي إليه يا جيورجيو ، أنت تقصد أن جينو قضم لقمة أكبر من أن يستطع أن يمضغها ، وأن كل مـــا يتناوله مريب ، ولكن دع الأخلاق جانباً ، إذا أنت لم تغامر بشيء لن تكسب شيئاً .

فلم يجب ، ونظر إليّ بعينيه هاتين الزرقـــاوين ، وصمت الاثنان الآخران فاستطردت :

ـ عندما ذكرت المهاجرين كنت محقاً حين تكلمت أنت عن حكاية الكماشة ، ولنسلم أنهم يعرفون ألف صنعة ، فكم منهم لا يبلغون النجاح ؟

فأجاب جيورجيو :

ــ هذا صحيح .

وكانت حيويته تعود إليه بالتدريج ، وأخذ يشوّر بيديه وهو يتكلم:

ــ انني أوافقك تماماً ، ولكن تأكد تماماً أنهم قلبوا كل شيء هنا في الوطن ونقبوا في كل ركن شارع بحثاً عن علامــة للأمل . ولم يبدأوا البحث فيما وراء ذلك إلا بعد أن لم يجدوا قطرة ماء تبل عطشهم . من يزعم أنني لن أحمل حقيبتي أنا نفسي في يوم ما وأذهب في العالم الفسيح ، مع ماريا والولد ؟ لكن عليَّ أولاً أن أتأكد تماماً أن لا أمل هنا ، أنني لا أستطيع أن أدبر شيئاً على الاطلاق ، وما دام باستطاعتي أن أجد شيئاً من نور الشمس بين شارع دى بيبي والمخزن فيسعدني أن أبقى بالوطن ، ثم هناك أنتم يا أولاد ، وبيرتو واثنان ثلاثة غيركم ، أنا آخذ الصداقة على محمل الجد ، كما لو أنك تعثرت وأنت تمشي ، وأوشكت على السقوط ، فأمسك بك أقرب شخص إليك ، بحركــــة غريزية ، انني أحبكم ، يا أولاد .

كانت عيناه الزرقاوان تتألقان ، وابتسامة تنور وجهه .

فقلت :

ــ يا لك من ساذج !

وأحسست كما لو كنت أريد أن أحتضنه ، ولكني لكمته لكمة ود وصداقة على وجهه وقلت :

ــ ولكن هناك أيضاً مشكلة تحسين أحوالك .

ــ وما يمنعك أن تفعل ذلك هنا ؟ هنا أو في ميلانو أو في نابولي ، كله سواء لا تنسَ كل أهل نابولي الذين يظنون أنهم يفعلون شيئاً حاذقاً بمجرد شراء تذكرة إلى ميلانو ، أو العكس ، ذلك أنه لم تكن لديهم الشجاعــــة الكافية أن يبقوا ببلدهم . ذلك كان هو النصر الحقيقي ، وهو ممكن ، فذلك يبرهن عليه الحالات التي تقع عليها أحياناً حيث يستطيع شخص أن ينجح فعلاً بعد أن يأتي من بلدة

أخرى تبادل عادل ، نحن نرسل لهم شيئاً من عملهم ، وهم يرسلون منه شيئاً إلينا . عليك أن تكون لك شجاعة الصمود في بلدك ، في حيك ، وأن نساعد بعضنا البعض ، بين قومنا وناسنا هنا ، أقصد أنه إذا تمسك كل منا بمركزه في وطنه وهو خير ما يعرف من مكان في النهاية ، لأصبح كل شيء أكثر بساطة بكثير ، ليس معنى هذا أنه لا ينبغي أبداً أن تترك عشك ، ولكن عليك بالأقل أن تحسن معرفة عشك قبل أن تطرق عش الآخرين ، فإذا لم تكن تعرفه ، فكيف يتأتى لك أن تعرف أنه أفضل من عشك ؟ نعم ، شاهد العالم ، ولكن على سبيل المرح والتسلية ، فسوف تتعلم الكثير ، ثم هل تعرفون لماذا لم أتعلم صنعة ، بل اشتغلت في المخزن ؟ لأن ذلك يتيح لي الفرصة ، بين حين وآخر ، أن أذهب في رحلة مع أحد سواقي العربات ، وأشهد أماكن جديدة .

كنا نتكلم الآن بحرية أكبر ، وقد عادت ثقتنا المألوفة أحدنا بالآخر ، ووراء مجرى حديثنا كان بوسعنا أن نحس في أنفسنا المقدرة على كل شيء حقيقي كما لو كانت قد تهشمت جبيرة أو قفص من الجبس يضغط على صدورنا ، كان الهواء الذي تتنسمه في تلك الأمسية من آخر الصيف هواء مغايراً مختلفاً الآن ، وكانت حركاتنا أيضا أكثر طواعية وتلقائية ، وعندما كنا نذكر حياتنا القريبة معاً ، نحس أنه قد دفع بها إلى ظلام طفولتنا المنسية . كانت كلمات جيورجيو قد فتنتنا عن أنفسنا ، وأبتعثت إرادتنا الغافية ، وواصلنا الكلام ، ونحن نجلس أو نستند إلى السور ، وأذهاننا تتقلب وتفور بالخطط .

والحماسات والمشروعات الجديدة ، بل بيوتنا نفسها ، هناك مباشرة وراء البنايات العالية التي تصطف على جانب اللونجاريو ، قريبة في متناول اليد ، حيّنا كله هناك عند محطة الترام التالية ، كلها كانت تتوهج بهالة أضاءت السلالم المعتمة ، وسطعت على الحيطان الرثة ، وزانت قواعد النوافذ بوفرة وافرة من زهور الجيرانيوم ، وكما نجح جيورجيو في أن يشيع فينا ، على أيسر نحو ، حماسة وشجاعة ، أرجعنا مرة أخرى إلى شكوكنا وحيرتنا ، وكانت عيناه

الزرقاوان تتألقان بنفس النور .

فقد أضاف قائــلاً ، ببراءة ودون أن يحس ، وهو يتتبع فكرة ما في داخله :

ـ ولكن ذلك ما يجب أن نحذره ، ألا يسرقوا عرق جبيننـــا ويحولوه إلى قصور في الريف يقضون فيها أوقات فراغهـم ، أو يحولوه إلى قوانين ليست في صالحنا .

فقال كارلو :

ـ آه ، هذا شيء آخر بالمرة ، كان هناك دائماً أغنياء وفقراء ، ليس منا من يريد أن يملك أرضاً ، لقد قلنا ذلك من قبل ، هذه هي الأوهام حقاً . .

فأجاب جيورجيو وهو يثب نازلاً من السور :

ـ أنت محق . . !

وإذ قطعنا حبل مناقشاتنا أدركنا فجأة أن البنات كن يصغين إلينا .

وهمست ماريا :

ـ نفس الأفكار التي كانت عند أبيه .

وحتى ماريزا لم تستطع أن تبتسم .

١٩

كان من عادتنا أن نلتقي أيام الأحد بعد الظهر في بيت جيورجيو وماريا ، كنا نخرج المائدة والسرر السفرية من غرفة الجلوس ، ونضع الجرامفون على كرسي في ركن الغرفة ، ونرقص .

وكانت ماريا تضع أسطوانة تلو الأخرى . كانت حاملا ، متضخمة بالحمل ، وخداها شاحبين ، كانت تبدو ممتقعة ، سعيدة ، شعرها مربوط إلى الخلف فوق أذنيها بشريط أزرق ، وجسمها كله قد أسلم نفسه للأمومة ، وتقبلها ، كما لو كان يقاسي بهدوء ، وكانت تحاول أن ترقص رقصة تانجو مع جيورجيو ، وتضطر للتخلي عنها في وسط الرقصة من الانهاك . ثم تحتفل بنا بأن تقدم لنا شراباً محلى بنكهة التمر الهندي ، تصبه من ابريق يطفو فيه الثلج ، وكنا نستسلم للكسل ، والشراب في أيدينا ، ويخامرنا حس بالدفء والسعادة . مستندين إلى قواعد النوافذ ، أو جالسين على الكراسي وعلى حافة السرير في الغرفة الأخرى ، والجرامفون يدور بأغنية لوسيانا الأثيرة لديها .

وكان من عادتي أنا وأريجو أن نصل متأخرين ، مع ماريزا ، إذ هي كانت معنا في الملعب نشهد مباراة في كرة القدم . وكانت لوسيانا ، في العادة ، تضيق قليلا بذلك ، فيأخذها اريجو الى صالة المدخل الصغيرة ، وسرعان ما يرجعان ، وقد تصالحا ، ويستطيع المرء أن يفهم من النظرة في أعينهما أنهما كانا يقبلان أحدهما الآخر .

وفي صف على الأرض ، بازاء جدار غرفة النوم ، رصت القوالب الخشبية

للقبعات التي تشتغل عليها ماريا بمعونة لوسيانا ، وهذه قد تركت المحل وأخذت تنفق معظم وقتها مع عديلتها المقبلة ، ولم تكن أم ماريا توجد في البيت أيام الآحاد ، فقد كانت تقضيها دائماً تقريباً في زيارة جدتي او أم لوسيانا .

وكان بيرتو الآن صديقنا جميعاً ، لا صديق جيورجيو فحسب — كان مركز الجاذبية بيننا ، بسلوكه السهل المرح ، وبديهته الحاضرة ، رجلاً ناضجاً في وسط صبيان كبار ، وكان أيضاً مرجعنا الذي ندين له بالاحترام ، ونقر له بالحياد ، عندما يدب بيننا النزاع أو لا نستطيع التررار إلى رأي ، ومهما كان موضوع الحديث فانه ليأتي بنادرة شخصية حدثت له ، فيضفي على المناقشة مسحة من السخرية والتهكم ، فقد كسب قلوبنا بابتسامته الودودة وأحاديثه ، وأسلوبه في حكاية هذه الأحاديث . كان يحب جيورجيو كما لو كان أخاه ، ويبدي نحوه مع ذلك توقيراً يثير الدهشة ، فهو أخبر بالحياة بكثير . وكان بيرتو يسكن على الضفة الأخرى من نهر الأرنو ، وكنا نعرف أنه منذ زمن طويل قد خطب لنفسه فتاة اسمها يولندا ، لكنه لم يأت بها معه أبداً ، وسرعان ما عرفنا أن حبه لها كان قد خبا منذ فترة من الزمن ، وأنه لم يعد مرتبطاً بها إلا بالعادة ، أو لعل البنت كانت أشد تعلقاً به من أن يطاوعه قلبه على أن ينفصل عنها ، وكان قد أرانا صورتها : وجه بنت قد ذبلت من الآن ، وكومة من الشعر المتموج ، أسود لا شك ، وشفتان غليظتان ، تنمان عن شهوية حسية .

فقلنا له : يجب أن تعرفنا بها ، هاتها معك مرة في يوم أحد .

— من يعرف ، لعلني آتي بها في يوم من الأيام ، وإن كان عندها شغل كثير في البيت أيام الأحد ، حتى أنها لا تستطيع أبداً أن تخرج .

ثم يغير الموضوع ، فاذا قال جيورجيو معنا ، بسلامة نية : « هذه غلطتك بالطبع » أجاب بسرعة : « طيب غلطتي ، ألا تستطيع أن تتكلم عن شيء آخر ؟ » ثم يغير الاسطوانة أو يدعو إحدى البنات للرقص .

وكانت آرجيا أيضاً تاتي معنا ، بعد وفاة طفلها . كانت دائمة الشكاة من

زوجها فقد كان يؤثر الحانة على البيت ، وبدت كانما استعادت كل شبابها بعد أن كفّت عن الرضاع ، غضّة مترعة كأنها ثمرة على وشك القطاف ، وكان بيرتو يحب أن يرقص معها ، ويقول عادة :

– بيننا نحن العجائز ..

– عجائز ؟ تظن المرأة عجوزاً ، وهي في الثلاثين ؟

– على مهلك . ألا ترين أولجا تنظر إلينا مذعورة ؟

فتجيب آرجيا :

– مسكينة البنت ..

وتجرّ بيرتو راقصة معه حول الغرفة ، تسارع الخطى ، فيضمها إليه بيرتو ، عامداً ، في حضن وثيق ، ويدع ذراعه تنزلق نازلة على ظهرها .

كانت صداقة بيرتو ، وموقفه من آرجيا ذلك السهل ، هو الذي أفضى به إلى التقليب في ضميري بالفحص والامتحان .

مرت سنتان منذ ذلك اليوم في الكهف ، وقد خطبت ماريزا ، ورأتها عائلتي وارتاحت إليها كل الارتياح . فقد كسبت ود جدتي بسحرها الفطري غير المجلوب ، واهتمامها النسوي بشؤون البيت ، وراق أبي ما تتصف به من حيوية ومراح وما يبدو عليها من سمات البنات الصغيرات ، وقال لي :

– أنت على حق أن تزهو بها .. يا قزم ..

وكنت أخال ، في البدء ، انني أحبها ، ففي صبيحة تلك الليلة في المنتزه التذكاري – حبنا الذي تحقق وبلغ ذروته قبل أن يقوله أحدنا للآخر – استيقظت في الفجر ، واستعدت ، بأعين مفتوحة ، ما مرّ بنا . كنت أعرف أنني اتخذت على عاتقي مسؤولية لم أحسن الاستعداد لها ، وكان في عظامي نفسها حسّ بالخوف ، كما لو كنت أعرف أن رصاصة توشك أن تضربني ، ومع ذلك بدت لي ماريزا بريئة خليقة بالحب ، وأنا نائم أفكر ، وظلالة الليل تهرب من النوافذ المحمّرة بوهج الشمس ، وأخذت من قدوة جيورجيو وماريا ، حتى

أظهر على مخاوفي وتوجسي ، وأرفضها وأراها غير خليقة بالاهتمام . ومع ذلك ، ففي الشهور التي تلت ذلك ، وعندما كشفت لي ماريزا عن نفسها ، في كل طيبتها ، وحبها ، كانت تعذبني معركة غريبة بين شهواتي ، وحسّي الاخلاقي الزائف .

كنت معها سعيداً ، كانت تضغط نفسها إليّ ، وكان إحساسي بجسمها يهيجني ، فتكسبني ، وأطوق خصرها بذراعي ، وأداعب نهديها ، وأشاركها سعادتي ، وفي الأمسيات نمشي في الشوارع المهجورة في حيّنا ، أو في الشوارع الكبرى ، وأوصلها إلى البيت في الزقاق الصغير المكتظ بالعربات ، حتى عتبة الباب . وفي أواخر الربيع نتدحرج نازلين ضفاف نهر الأفريكو ، وننام بين الأعشاب النامية في مهده الجاف ، تحت كوبري السكة الحديد . وهناك نسمع أغنية الجنادب ، ولغط الناس يتكلمون على الطريق . وتمرّ القطارات فوق رأسينا ، فنتعانق في حضن وثيق ، ونزعم لأنفسنا أننا خائفان ، ولكنني في طريقي الى البيت ، وحدي ، في الحيّ ، كنت أحس أن بيننا هوة ، وكنت في كل مرة أشعر بنوع من الارتياح والرضا المؤلم القاسي ، كما لو أنني كنت قد استمتعت بها من غير وجه حق ، تحت زعم باطل . كان ذلك يخلف عندي شعوراً بالرضا والخزي معاً .

حتى خطر لي أن سبب قلقي انما هو كارلو ، ذلك الشاهد بالرغم منه ، على ماض ما زال معلقاً فوق رأسي . وبعد أن صفيت الأمور معه ، وقدمتها الى عائلتي ، وأنهيت الى أصدقائي أننا خطيبان ، كنت أظن أنني أحبها حقاً وصدقاً ، وسوف نتزوج بعد انتهاء مدة خدمتي العسكرية ، وذهبت أيضاً الى منزلها ، فاستقبلتني أمها كما لو كنت ابناً ، بذلك التحفظ والتوجس ، وتلك الصرامة المحبة التي تشعر بها الأم ازاء ابنها الذي غدا رجلاً .

مرت سنتان ، وجاء دوري أن أخبط على نافذة ماريزا ، فتأتي على أطراف أصابعها لتفتح الباب وتأخذني الى سريرها الضيق . وننام ، فماً الى فم ، نحاول

أن نكتم شهقات حبنا . ولكن هذه القربى الحميمة التي كنا ننتهكها ، أخذت توغر صدري عليها بالتدريج بدلاً من أن تقوي حبي ، وأصبح عشقنا عــادة . كانت ماريزا دائماً طيعة وما زالت عزيزة عليّ ، لكن الأسس التي ظننت أنني أبني عليها حبي كانت تتفتت وتنهار . لم يعد لديها سر تكشف لي عنه . ولأنها منحتني نفسها ، بتهور وفي غير حيطة ، جسداً وروحاً ، كنت أخادع نفسي فازعم أنني أحبها ، ولكن سرها انجاب ، وأصبح مجرد تكرار الأمر كله شيئاً مملا . لم أكن قد أعطيتها من نفسي شيئاً ، ولم أقاسمها أبداً ذلك التجاوب العميق الذي لا يعبر عنه : الحب المتبادل . وبلغت النقطة التي كنت فيها أرى حبها مشهداً كئيباً لا يمسني ، إلا إذا دفعني شبقي إلى المسرح . ومرة أخرى ألفيت نفسي ممزقاً بين الشهوة والأخلاق الزائفـــة ، وكنت قد أعددت الخطة للإنفصال ، من الآن ، خــلال خدمتي العسكرية . وكنت، من الآن ، أفكر في الخطاب الذي سوف أكتبه لها .

٢٠

كنت أجد نفسي كثيراً ما أفكر في أولجا خلال النهار ، وفي الليل عندما كنت أعود إلى البيت بعد أن أوصل ماريزا ، وما زال في خياشيمي رائحة الكولونيا التي تتعطر بها ، وفي أذني صدى ضحكاتها التي تسرف في ترديدها . كنت أستدير حول الناحية الواقعــة بين بورجو أليجري وشارع ديل أوليفو ، كي أمر من تحت نافذة أولجا . وكنت أحياناً أصفر لكارلو ، ويسرني أن تجيبني أخته من النافذة بدلاً منه :

– كارلو لم يرجع بعد ، لكنه لن يغيب . هل تتفضل وتنتظره فوق ؟

فأقبل الدعوة ، وتكون عندئذ مشغولة في المطبخ ، ترتدي مريلتها الملونة مربوطة بعنقها ووسطها ، وذراعاها ويداها ، رقيقتان ، بيضاوان . وتتدحرج

على جبهتها كومة من الشعر الأشقر، تدفعه إلى الخلف بحركة رشيقة من رأسها ، حركة كنت أعشقها ، وكنت أتبعها إلى المطبخ ، زاعماً أن لي اهتماماً بما تعمل أرفع غطاء الحلة وأثقل عليها بالتظرف والتودد .

فأقول :

– أرى أنك ربة بيت من الدرجة الأولى .

فتجيبني ، وهي تدق بقدمها على الأرض ، وتشهر عليّ مغرفة الحساء :

– أخرج من هنا يا أخي .. أنت تزحم الدنيا .

ولكن ابتسامتها توحي بأنها قد صفحت عني .

– أتحب أن تبقى وتأكل معنا لقمة ؟

– بالتأكيد يا حلوة .. فلماذا تظنينني جئت هنا ؟

كانت رقيقة طويلة القامة ، وكانت لم تكد تتم الخامسة عشرة ، وكان وجهها شاحباً ، يلمع بنضرة الصبا التي تكاد تشبه رذاذاً غير منظور من ضوء القمر والذهب . كان في عينيها العميقتين ، في لون الصلب الرمادي ، شيء طفلي ومترفع ، ويبدو أنفها المنحوت بدقة شفافاً ، وكانت لها شفتان نضرتا الاحمرار تكشفان عن أسنانها الدقيقة المصفوفة صفاً وثيقاً ، وهناك على عظمتي وجنتيها شبهة من النمش تستر لون العاج الناصع في خديها . كانت بريئة حلوة ، في كل حركة من حركاتها عذرية . وكانت عندما تتكلم تصدر عن يقين وإيمان يبعث في أشد عباراتها اليومية غثاثة وابتذالاً ، رنين صدق وإخلاص .

لم أكن أعرف ، بعد أنني أحبها ، لم أكن أعرف إلا أنني أحب أن أبقى معها على انفراد ، لما يجلبه ذلك إليّ من حس بالهدوء . عندما كنت أتحدث معها كانت صراعاتي الداخلية تكف عن الدوران ، وتختفي ماريزا في الضباب الذي يلف خيالي عند المساء . وحول أولجا كانت هناك هالة من الغضوضة والطراوة ، من البراءة الوادعة .

الآن وقد مضت أمها – لتبدأ صفحة جديدة ، أو تواصل حياتها الرخيصة

البهرج حتى النهاية – أصبحت أولجا ربة البيت ، وأخذ كارلو غرفة أمه . وكانت أولجا ما تزال تنام في غرفة الجلوس ، في سرير مخبوء فيما يشبه الطاقة في الجدار ، خلف ستارة من الشيت الملون تسحب على الطاقة . وكانت قد وجدت عملاً في مصنع للحلوى ، تلف الشيكولاتة في ورق مفضض ، مقابل خمس ليرات في اليوم . ولكن كارلو كان يقبض الآن أجراً كاملاً عن عمله في ورشة نشر الخشب .

كان البيت نظيفاً مونقاً ، ستائر بيضاء على الشبابيك ، وعلى المائدة مفرش موشى . وكانت أولجا ترجع الى البيت في أواخر العصر ، فتهيىء العشاء وتطهو أو تشتري شيئاً تضعه في سندوتش للافطار في صبيحة اليوم التالي. كانا يكسبان كفايتهما ، وكان كارلو يقوم ببعض أعمال اضافية ، كتصليح الدواليب والكراسي . لم تكن تعوزه السجاير أبداً ، أو أجر الذهاب إلى السينما أو نقود للعب الورق . وكانت أمهما بين الوقت والآخر ، ترسل لهما شيئاً من المال ، رغم اعتراضهما ، فتضعه أولجا على حدة .

ولم تكن أولجا تقول كلمة تدين أمها أبداً ، كانت ترتبط بها بحب لا يسمح لها بكلمة لوم . وكانت تواظب على كتابة خطابات مليئة بالحب إليها ، تحكي لها كل أخبار يومها ، نتفاً عن أهل الحي وأحداثه ، ومشاكلها في رعاية شؤون البيت ، وتطلب منها النصح والتوجيه . وكانت أمها تكتب عن أخبارها الحسنة ، وأنها بخير ، وتحكي عن المدينة التي تعيش فيها الآن ، ميلانو ، وتسديها نصائح منزلية ، وتنهي خطابها دائماً بأن تباركها وتدعو لها . وكان على مائدة الحائط صورة لأم أولجا ، فضية الاطار ، تمثلها بكل ابتذالها المصبوغ ، وفوقها ، على الحائط ، صورة لزوجها الميت ، في حلته العسكرية .

كانت أولجا تمثل عندي الراحة والسلام ، كانت سري المكتوم ، كما كانت ماريزا تقوم مقام عذابي الداخلي ، عبء خطيئة الرجل الذي كان عليّ أن أحمله . كانت الفتي الحميمة بماريزا قد لحقتني مراهقاً ، فأشعلت شهواتي المبكرة ،

وأذكت أوارها . وكنت الآن أعاملها دون أدنى احترام ، أفيد من جسدها واستخدمه باستهتار ، وان كان امتلاكها قد أصبح من حاجاتي اليومية ، والا أنفقت ليلة لا نوم فيها ، فاذا فاتني ذلك ، وعدت الى البيت مبكراً ألح عليّ إحساس بالخبوط لا يطاق . وبعد معركة متخاذلة مع شهوتي ، كنت أثب من السرير ، وألمّ ما بقي من مدخرات الاسبوع ، وأتسلل إلى الماخور في شارع روزا ، وكان الجماع السريع المتعجل لا يشبعني ، وأعود تفوح مني رائحة خبيثة تزيد من هيجاني .

ولكن أولجـــا تخلصني من كل ذلك ، فاذا حدث أن فكرت في فجوري بالليل ، وأنا أحدثها ، بين غرفة الجلوس والمطبخ ، تضرجت بالخجل من الداخل ، وغصصت بريقي ، كما لو كنت أخفي بذلك أفعالي الداعرة ، لم يكن في حديثنا أبداً تورية أو تلميح ، مرة واحدة أبعدت فقلت :

– الآن وقد كبرت وأصبحت حلوة ، ماذا تفعلين إذا وقــع شخص ما في هواك ؟

فجاء صوتها من المطبخ :

– إذا كنت أحبه أنا أيضاً ، وافقت عليه .

– لم يحدث لك هذا حتى الآن ؟

– لا ..

– لست أعني من ناحيتك ، كنت أسأل ماذا كان قد قــال لك شخص ما أنه يحبك .

فجاءت إلى باب المطبخ ، ووجههـــا مضرج من حرارة الموقد ، ومسحت يدها على فوطتها :

– هل تظن أنني جميلة لدرجة أن يحبني أحد ؟

ودفعت بمقدم ذراعها خصلة من الشعر انسدلت على عينيهـــا .. آه .. ذلك الشعر الأشقر الجميل ..

– ياه .. أنت تستطيعين أن توقعي رجلاً في هواك بلا شك ..
– هذا ما ظننت ..
وافترت شفتاها عن ابتسامة ماكرة .
فنهضت من المائدة ، ودخلت المطبخ . كانت تقلب « البولينتا » فتثير فقاعات صغيرة في الوعاء وهي تفور ، وكان اهتمامها كله منصباً على عملها .
وسألت في لجاجة :
– قولي لي ..
– يالله ، وماذا يعنيك ذلك ؟
– لا ، قولي لي .. هيا ..
– الحقيقة أن هناك بعض من يلاحقونني ..
– ولكن أنت نفسك ؟ لا شيء من ناحيتك ؟
فاجابت بشيء من الاقتضاب :
– لا .
واستطردت بلهجة فيها سخرية :
– حذار .. إذا جعلتني أترك في البولينتا قطعاً صلبة ، فستدفع الثمن غالياً .
ولما جاء كارلو بعد ذلك بقليل ، قالت بشقاوة :
– لا تظن أن فاليريو يأتي هنا من أجل الطعام . بل يأتي ليعاكس ويغازل قليلاً أيضاً .
فتضرج وجهي بالرغم مني ، ولكني خلـّصت نفسي بان شاركت في النكتة ضاحكاً :
– طبعاً ، لهذا أجيء هنا كل ليلة ، ألم تكن تعرف ؟

٢١

كان تفكيري في أولجا يلح علي ويعلو على كل ما عداه ، في حوالي تلك الفترة من الزمن التي كنا ننتظر فيها مولد طفل ماريا ، وكانت لوسيانا تعد جهازها . وفي تلك الاثناء كان أريجو قد أعفي من الخدمة العسكرية ، لعلّة في قلبه ، وقد استقر عزمه على الزواج من لوسيانا في الربيع التالي . فهو الآن يعمل خبازاً ، ويكسب من المال ما يزيد عما يكسبه أي منا ، فلم يعد يبدو ثم سبب وجيه لارجاء الزواج ، ماداما متحابين .

وفي أحد أيام سبتمبر بعد الظهر ،بعد أسبوع تقريباً فيما أظن من تلك الأمسية التي فسر لنا جيورجيو ما يعني الأمل عنده ، مضيت كدأبي أنتظر ماريزا عند المحل . كانت قد بردت حدة عاطفتها نحوي منذ زمن ، ولم ألحظ ذلك في كلماتها بقدر ما لحظته فيما عندها من نفور طفيف ، وان كان لا يخطئه الأحساس ، من عشقي المحموم لها ، وفي التعلات التي كانت تبتكرها حتى لا تتيح لي قضاء الليل في غرفتها كالمعتاد .

وتحرجت الأمور بالصدفة البحتة ، بفضل سيارة مسرعة اندفعت نحونا ، ونحن نعبر شارع جيبلينا ، وذراعي في ذراعها . اندفعت السيارة نحونا ، تكاد أن تدهسنا بينما وقفنا بلا حراك في مكاننا ، وكل منا حريص على سلامة الآخر وعاجز عن أن يأتي بحركة ، فقد كان ذراعانا مترابطين معا . وأوشكنا أن ندهس فعلا . ثم أخذنا نلوم أحدنا الآخر ، لترددنا وتعريضنا — كلينا — للخطر . وأخذ الكلام برقاب بعضه البعض ، حتى انفجرت قائلا في النهاية :

– الحقيقة انني بدأت أضيق بك ، أنت دائماً في طريقي .

وسرنا جنباً إلى جنب ، كالغرباء ، عدوّين . ثم قالت :

– إذا كان ذلك ما تتعلل به ، فمن الخير أن نصفّي الأمر جملة ، وأن نكف عن التظاهر . أنت لم تعد تحبني . ولعلّك لم تحبني قط .

فرددت :

هذا جميل ما تقولين ..

لكن ماريا أوقفتني ، وأمسكت بذراعي . كان في نظرتها ، ونغمة صوتها تصميم وعزم مستقر .

لا يافاليريو . فلنتخلص من ذلك كله ، دفعة واحدة ، لست ألومك في شيء فأنا التي طاردتك طول الوقت . وانت لم تقل كلمة واحدة تجعلني أؤمن انك تحبني . ومنذ ذلك اليوم العتيد في الكهف حتى الآن ، لم تربطنا إلا الملاطفات والمداعبات . ولعلك فعلت ذلك شفقة بي . وأرجو ألا يكون ذلك حقاً . وأوثر أن أفكر أن ما دفعك الي ذلك رغبة في أن تنام مع واحدة . فذلك على الأقل يحفظ عليّ كبريائي كامرأة .

وأحسست نفسي جباناً لانني ترددت في أن اتخذ الخطوة الحاسمة ، ولكنني كنت راضياً في دخيلة نفسي ، لأن اللحظة قد حانت . وقلت :

– أنت تقولين أشياء لا تقصدينها .

– لا .. بل أنا أراك في دخيلتك .. أتظن أنني لا أستطيع ذلك بعد أن بقينا معا ليل نهار ، بعد أن كبرنا ساعة بعد ساعة ، في أثناء هاتين السنتين ، أكثر مما يحدث طيلة حياة بأسرها ؟ أنت تظن أنني أدفعك إلى اتخاذ قرار ما . وذلك يظهرني على مدى خطئي في أنني أحببتك . نعم ، زعمت لنفسي فترة من الوقت أننا سنتزوج مثل جيورجيو وماريا ، وكما سيفعل أريجو ولوسيانا . كان ذلك مجرد حلم . وتحققت ذلك عندما رأيت ان كل ما تريده حقاً هو أن تنام معي . ولذلك اندفعت في هذا السبيل عارفة أن لاسبيل أمامي غيره .

وكانت تلك جرعة مريرة .

فأكربني وهزني إخلاصها ، وصوتها الذي فيه رنة الوجيعة ، والفاجعة .

كان واضحاً أن ماريزا قد انفصلت عني فعلاً ونهائياً دون أن أدري . وكان بوسعي أن أحس بعدائها لي . وتدفقت عليّ موجة من الكبرياء الجريح ، كبرياء طفلي وغير خليق بي . تصور .. انها هي التي كانت تعلنني بالانفصال .. فقلت في سخرية وغيظ .

– طيب .. إذا استمررت في هذا فانت متجهة لا محـــالة إلى السقوط في شر أعمالك .

– هذا أحسن .. أنت الآن صادق . أما أنا فكنت صادقة ، ليس الآن فقط ، بل دائماً . ويحسن بي أن أخبرك انني استعدت شيئاً كنت أظنني فقدته إلى الأبد . استعدت احترامي لنفسي . شيء ما يحدث لي منذ فترة من الوقت ، ولعلـــك كنت تلحظ لو أنـــك حقاً كنت تحبني ، وكان بوسعك أن تحس ما يدور في داخل نفسي . شيء ، لو أنك حقاً كنت تحبني ، لكنت غفرت لي من أجله .

فسألت : ماذا ؟

ودفعني حافز ، دون ارادة ، فلويت ذراعها . وأغمضت عينها من الألم .

– دعني ولنواصل المشي . ولا ترفع صوتك وإلا التفت الينا النـــاس .

لم أكد اعرفها من تلك اللحظة . شد ما كانت قوية العزم ، شديدة الاعتداد بنفسها ، وعلى وجهها تعبير صلب ، يوشك أن يكون قبيحاً ومعادياً . كانت ترتدي فستاناً صيفياً أزرق منقطا ، صدره موشى بالدانتلا ، يبرز ويؤكد افتراق نهديها . ولكن جسمها نفسه يبدو كما لو كان يصدني . وكان من المرير أن أفكر أنني امتلكت هذا الجسم ذات مرة . واستطردت تقول :

– سواء كان هنـــاك شخص آخر أو لم يكن ، فليس ذلك مما يهمك . ومـــا دمنا نصفـّي الآن كل شيء ، فقد أردت أن أحس أنك صريح معي . ولو هذه

المرة فقط . ولعلني اضطر يوماً ما أن أسألك معروفاً جليلاً ، فـــاذا حدث ذلك فيجب أن تعدني بأنك لن تخذلني .

كان في صوتها الآن نغمة حلاوة غير مألوفة ، كما لو كانت تحاول أن تطايب طفلاً مشاكساً ، تتهدده بالعقاب إن لم يحسن سلوكه ، ومع ذلك ففيه شبهة من العصبيــة في الوقت نفسه . وكنت ما أزال أحاول ترويض نفسي على فكرة أنني سأفقدها . وذلك ، في النهايـــة ، ما كنت أريد . كنت في الأول أحس بالحنق ، ولكن أعصابي المشدودة أخذت تتراخى الآن ، وكان بوسعي أن أرى أنها تسهل لي سبيل الخروج ، فرصة لا يجب أن أدعها تفلت .

— طيب ، إذا كنا حقاً قد قررنا أن كل شيء قد انتهى بيننا ، فانني أعدك بكل ما تريدين . انظري ، انني لست مغضبـــاً بالمرة . ولكن فلنحاول ، كما تقولين، أن ننقذ شيئاً مما كان بيننا . انني كنت قد احببتك. ولعلك تقولين انني أحببتك بالطريقة الخاطئة ، ولن أعرف بما اجيبك على هذا — ولكنني احتجت أن تكلميني بهذه الطريقة حتى تكشفي لي عن حقيقتي . تصوري أنه لو لا هذه السيارة فكم من الوقت كان سيمضي بنا على هذا النحو .

كنا نسير في شارع جيبلينا ، تحت سور سجن المدينة الطويـــل ، وأمرنا الحراس بأن ننزل من على الرصيف . وكانت ماريزا قد أخذت بذراعي ، لكن فخذها لم يعد يضغط على فخذي . وأمامنـــا كانت خضرة أشجـــار الدلب في فيـــالى .

فأجابت :

— كنت على أي الأحوال سأكلمك الليـــلة .. ولكن لا نفترق عـــدوّين . فسأحتاج إلى عونك . ربتّ على يدها المطمئنة على ذراعي .

وقلت :

— أنت بنت غريبة . ولعلني لم استطع أبداً أن أفهمك ، أنـــني عرضتك لهذه المحنة . لم أكن لأغفر لنفسي أبداً لو أنني آذيتك حقاً .

– لم تؤذني في شيء بالمرة يافاليريو . بل إن بقاءك معي هاتين السنتين مكنني من احتمال أشياء كثيرة ، وساعدني على اصلاح شأني من الداخل أيضاً . ولعلك تعرف كل شيء عن هذا في يوم ما ، في القريب العاجل . ولكن لا تظن أنني لن أستوحش . ولم يكن من الممكن أنني كنت أحبك فعلاً ، لو أن ما حدث لي الآن هو شيء صادق حقيقي .

– وما يحدث لك ؟

– لا استطيع ان اخبرك الآن .

كانت سماء الصيف فوقنا ، زرقاء وضوء وردي يفيض على البيوت ويدفىء سور السجن الأصفر . واضطرتنا سيارة أتوبيس تمر بالطريق أن نلتصق بالرصيف الضيق ، نكاد نكون في حضن أحدنا الآخر . وشممت عبقاً خفيفاً من رائحة الكولونيا التي تتعطر بها ، لكنها لم تجعلني اهتاج . وصادفنا الحاوي في فيالي ، صندوقه على كتفه ، وكلابه الصغيرة تهرول في عقبيه ، مستوفزة نشطة تنبح في مرح .

قلت :

– انني واثق أن شيئاً هاماً حدث لنا الليلة . شيئاً لعله يغير حياتنا كلها .

– هذا سؤال كنت أوشك أن أسأله . فيم تفكر ؟

– يبدو هذه الأيام أنني في كل مرة أفتح فيها فمي تعرفين ما سوف أقول . كنت على أي الأحوال أفكر في الخطأ الذي كنا سنرتكبه لو أننا تزوجنا .

فوقفت فجأة ، وأطلقت ضحكة ، لكنها لم تكن ضحكة صادقة الرنين . كان في صوتها مرارة ، وان كانت ملامحها هادئة :

– كنت أكاد أعرف منذ البداية أننا لن نتزوج أبداً . كنت من الثقة بهذا حتى أنني حاولت كل شيء لاجهاض نفسي عندما خشيت مرة أن أكون حاملاً . لا تقل شيئاً . فعساه لم يكن ينبغي ان أقول لك .

ومرت بي قشعريرة باردة ، ولعلني جفلت .
– ربما كان ذلك قد غيّر من كل شيء .
– نعم . بالضبط . لذلك لم أقل لك شيئاً . أن خطأين احدهما فوق الآخر لا يصنعان صوابا . ولم يحدث شيء على أي حال ، فلعلني كنت واهمة .

كانت صريحة مرة أخرى ، مالكة لنفسها . وتحققت ساعتها فقط كم كانت قوية التصميم ، وكم كانت بعيدة عني ، فقد أشفقت أن يشجعني اعترافها على العودة اليها . واستطردت بصوت أكثر حدة :
– لا تفكر في هذا إطلاقاً ، فليس له أدنى أهمية . ولن تمر السنة حتى تستدعى للجيش ، وعندئذ يتغير كل شيء . وأراهن على أي حال أن عينك على بنت أخرى من الآن .

كانت ضجة المساء المألوفة تدور في ساحة بيكاريا . وأهل الحي يتزاحمون حول البائعين في الشوارع ، ونصبة البطيخ ، أو عند مدخل سينما الهمبرا حيث كانت اعلانات جريتا جاربو تزعق : نجاح هائل.وكانت ثمة نسمة خفيفة تداعب راكبي الدراجات والسيارات والاوتوبيس ، وحلقات المتسكعين ، وأولئك المسرعين لقضاء المشاوير . ونوافذ البنايات الأربع التي تحيط بالساحة في نصف دائرة ، تلمع في أشعة الشمس الخابية . كانت الحياة تجري ، في ضجتها ثرثرتها الودودة ، تحيط بها خضرة اشجار الدلب .
قالت ماريزا :
– طيب . نستطيع أن نقول للشلة أننا افترقنا ، ولكننا ما زلنا صديقين . وهو صحيح في آخر الأمر .
– بالتأكيد . ولكن ماذا نقول لكارلو ؟
فاضطربنا كلانا ، حتى قالت ماريزا في النهاية :
– لا تهتم . سأقول له بنفسي . لا عليك .
فاراحني هدوؤها وأثلج صدري .

وسألتني باسمة :

ــ ألا توصلني الليلة . للبيت ، كالمعتاد ؟

مررنا بشارع أريتينا . واشتريت لها عند ركن حيوتو آيس كريم بالصودا . كنا الآن صديقين ، لا أكثر . لم أكن أصدق ان كل شيء قد سوي بهذه السرعة والبساطة ، ان السلام الذي أحسه الآن في داخلي شيء حقيقي . وعندما فكرت في أولجا رأيتها شيئاً رقيقاً هشا يمسكه الواحد في كف يده ، بتوقّد ، وحرص .

بلغنا المادونتّون . وكانت الشعلة الصغيرة التي تضيء المصباح تحت الصورة المقدسة في الضريح ، ترتعش لا توشك ان ترى في مساء الصيف العرائق. ومضينا حتى مدخل زقاق موررياني ، حيث كان بيتها . ووقفنا هناك ، وودعنا أحدنا الآخر .

وقفت ماريزا خافضة الرأس ، يدها في يدي . وهمست بصوت خفيض ، فيه عطف ومحبة وان كان بعيداً « كيف تفعل الآن دون امرأة ؟ » وتضرجت خجلا . فأجبتها ، وقد احمر وجهي كذلك « أوه .. سنرى سنرى .. » وهكذا ودّعنا أحدنا الآخر ، للمرة الأخيرة كما لو كنا لن نلتقي أبداً ، بحزن ، ولكن من غير ألم .

٢٢

سبتمبر ١٩٣٥ . كان جيورجيو وكارلو كلاهما قد بلغا العشرين ، وأزف ميعاد استدعائهما للعسكرية ، ولكن كارلو حصل على اعفاء بوصفه يتيم حرب ، أما جيورجيو فكان عليه أن يسافر مع الدفعة الثانية في سبتمبر – وكان ينبغي على جينو أيضاً أن يبلّغ عن نفسه ، لكنه قبل أن يغادر الحي كان قد قام بوساطات وأجّل ميعاد تجنيده اثني عشر شهراً ، وتصورت أنني سأجد نفسي معه في الدفعة التالية في السنة القادمة .

وكان طقم ملابس الطفل قد أعد ، ووضع قطعة فقطعة في أحد أدراج المكتب . كانت أولجا ولوسيانا ، تساعدهما ماريا وغيرها أيضاً، منشغلتين طوال الصيف في اعداد طقم الملابس ، وكانت ماريزا قد أعطتهما بطانية صغيرة من المحل ، بعد استنزال خصم في الثمن .

وعاد جيورجيو إلى البيت ذات يوم ومعه مهد اشتراه بعد أن رهن الساعة التي أعطاها له جينو يوم الفرح ، وكان يتناول المهد كما لو كان شيئاً ثميناً عزيزاً ، كان مصنوعاً من الخوص ، مطلياً بالأزرق ، وله إفريز وردي ، وكان يتأرجح .

كان الجميع يخرجون في الأمسيات ، وتجلس ربات البيوت في كراسيهن الواطئة ، يعدن تضفير قوارير النبيذ بالقش ، ويتساءلن عما إذا كانت الحرب ستقوم ، بعد الشر !.

وكانت الجرائد تطلع علينا وهي تحمل عناوين ضخمة فيها كلمة « أوال –

أوال » وهي كلمة لم تكن تعني شيئاً لنا ، مجرد صوت مائي متسايل في أسماعنا نحن الريفيين البعيدين عن المدينة. وكان الشبان في آخر الليل يهتفون ويصيحون حتى تصيبهم سورة ويمشون في الشوارع يجأرون : « يسقط النجاشي ..! وتحيا الحرب ..! » وكان بعض الرجال القلائل يتركون حلقات المتسكعين على أبواب المقاهي والبارات وينضمون إليهم هاتفين : « الحبشة للايطاليين ..! » وكانت جدران بيوتنا الخارجية مغطاة باعلانات حمراء عن الاجتماعات ، وشعارات مكتوبة باليد ، في طول الحي وعرضه ، يحيا .. ويسقط ..

ولكن عندما تمضي المظاهرات ، وتخبو الهتافات ، لا يبقى في شوارعنا إلا حرارة الصيف الخانقة ، ورائحة الاصطبلات ، والنسوة يغطين قوارير النبيذ ، ويتمتمن : ربنا يستر .. كان رجالنا سلبيين ، مذهولين ، على استعداد للانضمام للجيش بقدر استعدادهم لتأييد الاسكافي العجوز ، بكل قلوبهم ، ويقال إنه كان ثورياً قديماً ، وكان يعدد حججه واحدة واحدة ، على أصابعه المخشوشنة المسودة ، وقد ترك المخراز في أطرافها ندوباً وجروحاً ، وعندما مررنا بدكانته الصغيرة بعد يومين رأينا الباب موصداً بالمزاليج من الخارج وعليه هتاف « يسقط .. »

وكانت المناقشات حامية في الشغل ، وذات مساء كان أبي يمسح طبقه في عناية بلقمة كبيرة من الخبز ، على العشاء ، عندما قال لي ، عرضاً :

– سمعتك تثرثر اليوم في قاعة الطعام ، وتشكو من أنك لم تستدع للجندية ، فأنت تظن أن الحرب شيء عظيم .. هه ؟

ومسح آخر قطرات الطبيخ من على صحنه ، واستطرد :

– انني لم أحاول أبداً أن أضع في رأسك أفكاراً ، كل واحد له الحق في أن يفكر كما يشاء ، ولكن إذا كان هذا هو الأمل الذي كنت تتكلم عنه .. فهو ليس شيئاً كبيراً ..

كان في صوته مرارة وأسى ، صوت رجل يصون كرامته أمام إهانة مميتة ،

فقلت له ما أفكر به ، ولماذا كنت أؤيد مـــا تنشره الجرائد ، وأخذ يمضغ لقمة الخبز :

– أنت أولاً تنفصل عن ماريزا ، ثم تتحمس جداً للحرب ، بعــد ذلك . اخترت لنفسك طريقاً مدهشاً ..

ونهض ، وأخذ سترته من على ظهر الكرسي ، ورماهـــا فوق كتفيه ، واستدار إلى جدتي قائلاً :

– أترين يا أمي ؟ الجيل الجـديد .

وخرج ، وهو يصفق الباب خلفـه ، وسمعناه يدندن بأغنيـــة وهو يهبط السلالم .

وفي الحقيقة كان ثمـة جيل جديد قد اتخذ طريقه ، يناول صواميل اطار المغزل وينقل البالات الثقيلة إلى أكتاف جديدة . جيل بعد جيل ، مثل حساء الكرنب وعصيدة القمح في العشاء . ليلة بعد ليلة ، بينما كانت أزهار الجيرانيوم ما تزال تتفتح على قواعد الشبابيـــك ، وخيوط العنكبوت تزداد كثافة من سنة إلى سنة .

إذن فقد مضى جيل في طريقـــه ، عبر شوارع الحي ، يسوّر الحبال التي تستخدم سياجاً على السلالم المظلمة في بيوتنا ، بينما كانت أغنياتنا قد تغيرت من « لا تدع مواقد بيوتنا .. تنطفىء » الى : « عذرائي الحبشيـــة الصغيرة » ، عشرون عاماً ثم يأتي بجند طبق الأصل ، اسمــه طبق الأصل ، ليرتدي حـلة جندي ويذهب للحرب من أجل مثل لفّقه الآخرون . والآن قد خبا صوت أملهم ، أملهم الخفي الذي لا يكاد يفهم حق الفهم ، الذي يسلمه الأب إلى الابن، وهم يمضون للحرب ، هم يصابون ، هم يموتون ، كما لو كانوا في إجازة لا همّ فيها ، وفيها تغيير لكروبهم اليومية . فإذا لم يموتوا بل أصيبوا فقط ، عندئذ يتضح لهم معنى الأمل ... ولكن بعد فوات الأوان ... دائماً .

في سبتمبر ذاك مرت صداقتنا بأيام تعرضت فيهـــا لامتحان قاس ، كنا

نلتقي في شقة جيورجيو ، وللمرة الأولى في حياتنا كانت ردودنا مختلفة عن مشكلة واحدة . كان كارلو قد نبذ فجاة موقف الاتضاع الهادىء الذي اتخذه في سعيه لاصلاح خلقه ، وعاد الآن مستوفزاً بالحيوية وثرثاراً كدأبه أبداً ، تتألق عيناه الصفراوان بالحماس ، وكان في كلماته ايماءة باليأس ، شيء لم استطع فهمه إلا بعد ذلك بكثير ، كان يقرّعنا لأننا نحاول أن نجادل في ميزات وسيئات حرب يتوقعها وينتظرها الجميع ، حرب يراها شيئاً مدهشاً ، الشيء الوحيد الذي يعطي للحياة قيمة ومعنى . وكان جيورجيو يتلقى هذه الهجمات بهدوء ، غارقاً معظم الوقت في أفكاره ، يصغي بتأمل ، وجبينه مخدد قليلاً بالفكر ، يزن كل كلمة قبل أن يجيب :

ــ نعم انني أفهم ما تقول ، ولكنني لا أرى ضرورة للحرب ، ليس ذلك لأنني خائف ، فالواقع أنني ساحارب قبل أي واحد منكم فهكذا جاءت الظروف . لكن أليس لدينا ما يكفينا في اصلاح شؤوننا الداخلية ، دون الذهاب للحرب ؟ يبدو لي أنه لو أخذنا قليلاً من أصحاب الأموال عندنا لأخذنا أكثر من احتلال الحبشة .

ــ ولكن الحبشة منجم ذهب أقول لك ، سوف تمدنا بالغذاء والرفاهية حتى يوم القيامة ، سنبني مصانع وموانىء ، ونشغل رجالنا .

ــ وما معنى ذلك ؟ أعصر أصحاب الأموال قليلاً وأنت تبني مصانعك وموانيك هنا ، أليس عندنا مكان كاف للمصانع والموانيء دون أن نذهب إلى بلاد أناس آخرين ونرمي بنفسنا في كل مكان ؟ هذا دون ذكر حياة الناس التي يضحى بها .

ــ يا غبي ، يا مسكين .. ! كل انتصار لا بد له من الدم ، يجب أن نثبت للعالم أننا شعب قوي إذا أردنا أن نُحترم ، والا وطأونا تحت الأقدام نهائياً . ألم تر الأجانب الذين يجيئون هنا ، وينظرون إلينا من أنوفهم باحتقار ؟ انهم يضحكون في وجوهنا كما لو كنا شيئاً في جنينة الحيوانات ، نتمرغ في القذارة ،

وخصوصاً الانجليز .

– إذن نحارب الانجليز !

– نعم .. موافق بكل قلبي .. !

ولم يكن أريجو مصغياً كل الاصغاء ، كان يبدو سأمان ملولاً ، وكانت يده في يد لوسيانا ، وهو يستدير من وقت لآخر ناحية من يتكلم عن الحرب والشباب ، وان كان في صوت جيورجيو ، في الوقت نفسه ، صدى أمل كنت أعرفه ، وكان يكربني ما يقول من أن الدافع وراء هذه الحرب لم يكن في صالحنا ، فقد جاءت حرب بعد حرب ، وبقينا نحن فقراء شأننا دائماً .

واستطرد جيورجيو :

– هذا كما لو لم يكن عندنا كرسي نقعد عليه . وبدلاً من أن نقترض كرسياً من الجيران الذين عندهم كراسي كثيرة ، نذهب فنقفز إلى النهر حيث تصادف أننا رأينا كرسياً يطفو على الماء ...

كانت ماريا تجلس الى جانب جيورجيو ، ترقبه بقلق ، تتعلق بكل كلمة يقولها كما لو كانت لديه المقدرة على أن يجرحها ، وكانت لوسيانا تقف خلف أريجو ، ذراعها حول عنقه ، وخدها على خده .

فقال كارلو :

– مضبوط .. مضبوط .. تكلم أنت عن الكراسي بينما مستقبل ايطاليا في الميزان ، ايطاليا يعني نحن ، علينا أن ندافع عنها ، حتى آخر قطرة من دمائنا إذا اقتضى الأمر .

فخفض جيورجيو رأسه ، واعتمد المائدة بذراعيه ، كان على ذراعيه ، من المعصم إلى المرفق ، زغب رقيق أشقر وجعد ، وقال :

– لست ادري كيف ادخل ذلك في رأسك ، ولكن ذلك كله لا يحرك فيَّ ساكناً ، شخصياً .

وثب كارلو على قدميه ، وانفجر في تدفق :

– طبعاً .. فأنت ابن واحد بولشفيك ..!

رفع إليه جيورجيو بصره، كان في عينيه لمعة غضب لا ينم عنها هدوء صوته وهو يخبط بقبضته راحة كفه :

– اذا كنت تحاول اهانتي ، فساجعلك تأكل هذه الكلمات !.

فقطعت لوسيانا الصمت الذي تلا ذلك . كان كارلو نفسه مأخوذاً بتهوّره ، غير واثق اي موقف يتخذ . قالت لوسيانا :

– هل من يريد شراباً ؟ انا ذاهبة للإتيان بالأكواب .

وانفجرت ماريا فجأة باكية ، واستدارت إلى كارلو وهي تنشج :

– هذا كله حسن بالنسبة لك ، ولكن عندما يجد الجد ، جيورجيو وحده هو الذي سيذهب . ويتركني ، في هذا الوقت ..

وجاءت أمها على دموعها من المطبخ ..

واحتج كارلو دون حماس :

– تطوعت أنا .. وأرجو أن يأخذوني .

وهتفت أم ماريا :

– كل هذا الكلام عن الحرب.. عندما تعلن الحرب يمكنكم أن تهتموا بها .. ليس الآن ...

فقالت لوسيانا وهي ترجع بالأكواب :

– تماماً .. يظن المرء انها بدأت فعلاً ، من طريقة كلامكم كلكم .

واستند كارلو عبر المائدة ومد يده .. فأخذها جيورجيو .

وقال كارلو :

– أنا آسف، أنت عارف ، على أي الأحوال .. أظنني حسبت نفسي بطلا.

فضحكنا، ونحن نصب النبيذ، ومسحت ماريا دموعها ، وان كانت ماتزال ترتجف بالألم وقالت :

– حسناً .. كان ينبغي لك أن تكتفي بما حدث لوالدك ، وفكر أيضاً في أختك المسكينة .. وحدها في العالم .

لم تكن أولجا معنا .. ولعلها في تلك اللحظة بالذات كانت تعد سندوتشاً لغداء كارلو في الغد . ثم تدور بنظرها لآخر مرة لتتيقن من أن كل شيء على ما يرام ، قبل أن تأوي إلى الفراش .

٢٣

وأعلنت الحرب . غناء وهتاف في كل مكان . ومن مقر الحزب في الحي ، عند مدخل شارع جيبيلينا ، أمام السجن ، أخذ الميكرفون يزعق بالخطب والاغاني بلا نهاية . كان ذلك في مساء من اكتوبر ، رطباً ضبابيا . وكانت أنوار السيارات الأمامية ، في الشوارع الرئيسية القريبة ، تنحل في هالة من الضوء بلون اللبن. وكان جيورجيو يحاول أن يهديء من روع ماريا وقد تهدلت في كرسيها ، مرهقة من عبء الحبل .

– سيبقى أريجو. ولن يتاح لهم الوقت على أي حال لأن يرسلونا نحن المجندين، إلى ما وراء البحار . سوف ينتهي كل شيء في شهرين .

كانت لوسيانا تربت على خد أريجو ، وهي تهتف :

– يحيا البطل الذي سيبقى . لن يدع مواقد بيوتنا تنطفىء ..

وكان في الحي كله جو من الهيجان غير مألوف . وكان يبدو أن كل من في الشوارع يحتاج إلى فراغ أكثر ، كما لو كان قد تضخم وتورم بالنداء ، وكان الهوس والهيجان يبدوان في الحركات ، في الجموع الصاخبة ، في المناقشات عند كل أركان الشوارع . وفيما عدا ذلك كانت حياة الحي المألوفة تجري على سنتها ، المرور وأنوار الدكاكين ، والغسيل المعلق في الشبابيك ، والصيحات والتحيات المعتادة كل مساء . اما عند السويقة ، وعند مدخل بار سيان بيرو وحول عربة بياع الكرشة المعلق فوقها كلوب الآسيتلين ، فقد تحلقت جماعات من الشبان

يتجادلون في انفعال ، وغيرهم يهتفون ويسيرون في تشكيلات نحو مقر الحزب أو نحو وسط المدينة ، يحملون الاعلام واللافتات . والبنات في الصفوف الأمامية يرتدين كاسكتات الطلبة التقليدية .

وكان كارلو معهم . كان فجأة قد انضم إلى فريق من الكتبة الشبان ومعاوني المحلات ، لم يكن لنا بهم أدنى صلة من قبل ، فيما عدا مساء الخير ، أحياناً ، أو لعبة بلياردو كنا نحن نبذل اقصى الجهد لنكسبها . كنا نصادفهم كثيراً في الملعب إذ كانوا يشاركوننا حماسنا للكرة ، أو في غرفة الانتظار بالماخور في شارع روزا ، وقد اكتست وجوههم صفاقة وتوقحا ، شأننا ، ليخفوا خزيهم . لم يكن يفرقنا نفور شخصي بقدر ما هو شعور بالشك والارتياب المتبادل : ارتياب أو على الأصح عداء، ظهر بجلاء مرة اثناء فترة التدريب السابقة على الخدمة العسكرية ، وهي التي كان علينا جميعاً أن نمرّ بها — وصل جيورجيو مرة متأخراً في الصباح، فوبخه المدرب وعندئذ هتف أحد هؤلاء الأولاد «الأبن لأبيه..» ولكننا بقينا على ولائنا لجيورجيو ، ووضعناهم في مكانهم ، وان كان الأمر لم يتجاوز هذا الحد . والآن انضم كارلو إلى فريقهم ، يتبختر معهم ، بشجاعة ، في الشوارع .

وبعد اعلان الحرب ببضعة أيام تلقّى جيورجيو مذكرة بالتبليغ عن نفسه . وفي تلك الليلة بالذات جاء المخاض ماريا ، ونقلت إلى مستشفى الولادة . وقضينا الليلة في قاعة المستشفى ، جيورجيو وأريجو وأنا ، نذهب إلى مكتب المشرف كلما دق جرس التليفون الداخلي . كانت ليلة بديعة من الخريف ، القمر بدر والسماء رائعة لا سحاب فيها ، وتأتي من المدخل نسمة طرية ترضى عنها اجسادنا الفتية . وكنا نرمي بقطعة نقدية في الهواء ونلتقفها في راحة اليد ، لنعرف جنس الوليد .

وقال جيورجيو ، خفيض الصوت وقلقاً :

— هذا امر جدّي ، في نهاية الأمر ..

ثم ضحك .

وجاءت عربة الاسعاف بامرأة حامل ، تئن من الألم . وانضم اليـنـا الشاب الذي جاء معها ، زوجها ، ينتظر مع فتاة ، أخته . وقدم لنا سيجارة. ومرت بضع ساعات . ثم رنّ التليفون . وأشار الينا المشرف :

– كله عظيم يا ماتيني . ولد . تستطيعـون الآن ان ترجعوا إلى البيت لتناموا . تعالوا غداً ظهراً لتروه .

كان صوته خشناً متعباً .

فصنعنا لجبا ولغطا هائلا حوالي جيورجيو ، وتقدم اصدقاؤنا الجدد بالتهنئة أيضاً . وعندما مضينا تمنينا لهما أطيب التمنيات .

كان وقع خطواتنا وأصواتنا يرن في الشوارع الصامتة المهجورة في أبعاد من السعادة لا تحدها إلا سماء الليل التي يخامرها الشحوب باقتراب الفجر. كنا نتجه إلى وسط المدينة ووجدنا مقهى مفتوحاً وقدم لنـا جيورجيو عصير العنب ، وكان بالمقهى جماعة من الحوذيـة واحلاس ليل ، يناقشون الحرب والحبشة . ومرَّت أمامنا في شارع كالزابولي فصيلة من الجنـد بملابس الميدان والخوذات ، بخطوات منتظمة ، صامتين في عزم ، في صمت الفجر الشاسع الفسيح . وعندما مضوا قال جيورجيو :

– طيب .. هذا يرجعنا إلى الأرض ثانية . على ان أبلغ عن نفسي بعـد خمسة أيام . لم يكن ابنى ينتظر ذلك .. ! الظريف منه انه جاء في الوقت الذي نستطيع فيه بالكاد أن نتعرف على أحدنا الآخر .. أليس كذلك ؟ .

وغادرنا الكورسو إلى الحي . كانت العربات تمر بنا في طريقها إلى السوق . كان أريجو قد اقترح أن نذهب مباشرة إلى لوسيانا نبلغها الأخبـار ، ولذلك استدرنا إلى شارع دي كونكياتوري . كانت مصلحة الصحة قد فتحت أبوابها ، وخرج كنّاسو الشوارع ، على عربات ببدالات ، أو على اقدامهم ، والمكانس على أكتافهم ، وصفر أريجو صفارته المتفق عليها سلفاً ، وعندما ظهرت لوسيانا

في النافذة ، هتفنا معاً في كورس :

ــ صبيّ .. !

فسألتنا أن ننتظرها حتى تنزل ، ولكن أريجو أقنعها بألا تفعل ، وأن تلحق بنا بعد بضع ساعات في البيت .

وهتفت ونحن نمشي :

ــ يحيا لورنزو . !

كان الصباح قد جاء . واضاءت الشمس أعالي البيــوت ، وفي الهواء نكهة طراوة تغري المرء بأن يملأ منها صدره . وذهب أريجــو إلى الفرن ليشتغل قليلاً ويتفادى بذلك ضياع اليومية كلها . وفي طريقنا إلى البيت ــ وكنــا نسكن جميعاً نفس البناية ــ أسرّ جيورجيو اليّ بسعادته .

ــ هذا الصغير شيء كبير عندي وعنــد ماريا . شيء متين راسخ ، هــل تفهمني ؟

وعلى عتبة الباب التقينا برجال البوليس الذين جاءوا للقبض عليه .

٢٤

لم نتلقَّ خبراً عن جيورجيو طوال يومين.وفي هذه الاثناء أخذنا نتعرف الى لورنزو ، في عنبر من عنابر مستشفى الولادة ، ملتصقاً بجنب والدتــه . ولكننا كنا خائري الروح مثبطين . كانت ماريا شاحبــة ، رائعة الجمال ، وفي شعرها شريط أزرق.كانت الدموع تنهل من عينيها اللتين لم تعودا تلمعان بضوء الشباب.

إلا ان جيورجيو لم يكن قد اعتقل لاسباب تتعلق بالأمن ، شأن والده ، كما كنا نخشى : فقد عرفنا التهمة الموجهة اليه سراعا . وقد أيقنـّا عندما عرفناها بسرعة الافراج عنه ، الا أن ذلك جلب علينا أسى جديداً ، ضرب في جذور

الصداقة التي تربطنا كأنه سم حقن غدراً وخديعة في شرايِيننا ، حتى أحسسنا به يزحف نحو قلوبنا .

كانت الساعة التي رهنها جيورجيو ليشتري المهد قد ُعرفت ، واتضح انها تخص رجلاً قتل في بيته منذ نحو ستة شهور . ولما كان جيورجيو قد قال ببراءة إنها هدية الزواج من صديقه جينوبوزي ، فقد بدأت القرائن تأخذ برقاب بعضها البعض . حتى انحل السر واثبت البوليس ان جينو هو القاتل . وقبض عليه بعد ايام قليلة في بنسيون انيق بروما حيث كان يعيش . واتي به الى فلورنسا . واشارت اليه الصحف بوصفه « شاباً خليعاً شاذاً » وكان سبب الجريمة « عداوة شخصية ترجع لاسباب خاصة » وصورت القتيل بأنه «شخصية نبيلة ومحارب قديم . ورجل من رجال الادب الممتازين » .

وكان نوفمبر تلك السنة مطيراً . وازدهرت على السقوف مرة اخرى رقع عريضة من الرطوبة ، وتدفقت انهار صغيرة من الماء المغبر تهضب وتغرغر على جانبي شوارع الحي ، من على احجار الرصيف غير المستوية التي تميل نحو عرض الشارع . وكانت العربات ترجع الى اصطبلاتها متأخرة عن المألوف ، وقد رفعت اغطيتها الى اعلى ، وخيلها تلمع جلودها . وكانت تنتظر في الصباح ، في صف طويل امام دكانة الحداد التي يضيئها الكور القائم في آخرها . ودفع بياع الكرشة عربة جنب الرصيف ورفع عليها مظلة خضراء ضخمة ارسى عصاها في وسط الحوض ، وكان بخار الكرشة ، في وهج كلوب الآسيتلين ، يتصاعد في ضباب المساء ورذاذه، فيغيم على وجوه الزبائن المتزاحمين بالمناكب .

اجتمعنا في بيت كارلو ، توقياً للمطر ، وحتى نبقى معاً فترة اخرى ، فقد كان على جيورجيو ان يسافر ليلتها لينضم الى فرقته . وكان كارلو ايضاً قد قبل متطوعاً ، وهو ينتظر اوراقه من يوم لآخر .

قال جيورجيو :

– كان ينبغي علينا ان نرعى جينو ، ونراقبه افضل مما فعلنا . ومع ذلك

فقد جاء وقت غسلت يدي منه .

واجاب كارلو :

ـ لا تلومنّ نفسك . كل امرىء يتصرف وفقاً لما تمليه عليه طبيعته في نهاية الامر، فاذا اتخذت بك غرائزك طريقاً ما، فلا حيلة في ذلك، الا اذا كنت بطلاً او قديساً . وهو شيء لا يمكن ان يقال عن جينو .

كان صوته الهادىء الثابت لا يومىء الا مجرد ايماءة الى الخبرة والمعاناة التي تكمن خلف كلماته .

فسأله جيورجيو :

ـ ولماذا ؟ اتعني انه لا قيمة اطلاقاً لوجود اي شخص آخر ؟ الا يدخل المجتمع في اي حساب ، سواء ليجعلنا افضل او ليعلمنا شيئاً ما ؟

واخذ يعنّف كارلو ، بمكر :

ـ اذا كان هذا ما تعنيه ، فأنت تناقض نفسك ، ولا تؤمن ، حتى ، بما انت ذاهب الآن تفعله . لماذا تذهب الى الحبشة ، ان لم يكن ذلك لتعود بخيرات المدنية على الاهالي هناك ، وتتيح للايطاليين الحصول على خبز اكثر ؟

فابتسم كارلو كما لو كان يتحمل دعابة صغيرة عنه .

وقلت :

ـ الحقيقة ان جينو قاتل . لكنه كان أحدنا ، تماماً كما لو كان اخاً لنا .

وأجاب جيورجيو :

ـ ولذلك فعلينا جميعاً ، ان نتحمل قسطاً من اللوم . اتذكرون ما قلت له يوم ان تعاركنا ؟

فسأل كارلو :

ـ لا ... ماذا ؟

ـ بالضبط ما اقول الآن . كان جينو قد نشأ وكبر معنا ، وفعل ما كنا نفعله جميعاً بالضبط . وفي كل هذه السنوات التي عشناها معا ، فلا بد انه كان

بيننا الكثير من الاخذ والعطاء . فليس الامر ان احداً منا لم يكن له صلة بالآخر ، هذا غير صحيح . واذا كان باستطاعة جينو ان يفعل ما يفعل ، فمعنى ذلك ان الشيء الوحيد الذي قدمناه له ، هو اسوأ جانب من طبيعتنا . او معناه ان معاملتنا له ابرزت الجانب السيء منه ولم تساعده ابدا على ادراك الجانب الخير ، او على تقريبه منا . الحقيقة اننا اخطأنا خطأ كبيراً اذ لم نعطه من حبنا القسط الكافي .

لم يكن بمقدوري ، ولا كارلو ، ان نعترض عليه . ولعل كارلو كان يبحث عن تبرير ، كما كنت ابحث انا نفسي ، للتغلب على احساس الكرب الذي زادته كلمات جيورجيو فينا . اما اريجو الذي كان يتتبع الحديث في صمت ، حتى تلك اللحظة ، وهو يرقب احد المتكلمين ثم يرقب من يليه ، فقد دفن رأسه بين ذراعيه ليخفي حزنه .

واستطرد جيورجيو :

– ليس علينا ان ندع ذلك يغلبنا على امرنا . وان كان ينبغي ان نفكر فيه . والآن جاء وقت شرب الانخاب ، وبضع كلمات رنانة . فمن يعرف يا اولاد هل تقع عيوننا على احدنا الآخر مرة اخرى ؟

كنا في العشرين من عمرنا ، يواجهنا شيء اضخم منا بكثير . وحاولنا في بأس ان نجد شيئا يخفف اللوعة التي لم نكن لنحسن التعبير عنها . ثم جاء اقتراح جيورجيو للشرب فأعطانا ثقة جديدة ، واعاد دفء الصداقة التي نسيناه لحظة ، واحيا روحنا العالية التي الفناها . فرفع اريجو بصره ، ومسح الدموع من عينيه ، بحركة طفلية .

ورفعنا اقداحنا وشربنا انخاب بعضنا البعض بنبيذ احمر طيب شريف ، وأشمنا الفوضى في مملكة اولجا الصغيرة ، التي لعلها كانت تفكر فينا في تلك اللحظة ، وهي تشتغل في مصنع الحلوى . وكانت النوافذ خلف الستائر مغيمة مغبشة بالمطر . فأضأنا الانوار . وتعانقنا وقبلنا بعضنا البعض مرارا ، ونحن

نقسم أننا لا بد سنلتقي بعد الحرب، أكثر وحدة وأقوى عزماً . كان جيورجيو هو الذي استخدم كلمة « أقوى عزماً » قالها بتأكيد .

وفي وسط ضحكاتنا انتهز كارلو الفرصة السانحة ليسأل بلهجة مرحة متوقحة :

– والآن وأنت تتركنا يا جيورجيو ، قل لي شيئاً واحـــداً ، هل أنت أحمر أم لا ؟

– سأقول لك مرة أخرى ، عندما تكون أكثر جداً .

ولكن كارلو ضحك ، كما ضحك أريجو ، وشاركتها الضحك .

– لماذا ؟ إذا كنت « أحمر » ، فأنت كذلك .

– ربما .. لكن ليس « أحمر » كما تقول ، بل شيء أكثر من ذلك .

وعانق كارلو ، وقبله في فمه .

وأضاف في محبة :

– يا ابن الكلب أنت .. !

وبعد أسبوع ، عندما ذهبت مع أريجو إلى أخت جينو ، لنعرف أخباره ، أعطتنا خطاباً ، يسلم إلى جيورجيو .

٢٥

وها هوذا خطاب جينو :

« ان مما يقتضي بذل آخر جهد ارادتي أن أجد الشجاعة على الكتابة اليك. إنني أعرف أن ذلك لزام علي ، فأنت الشخص الوحيد في العالم الذي أدين له باعتراف كامل بإثمي . وأنا إذ أتكلم إليك، فانما أستبق اعترافي النهائي أمام الله الذي أضع في يديه نفسي ، وإن جاءت الكلمات التي أتجه بها إليه أستميح غفرانه ، بعد فوات الأوان . وإذا كنت أجد القوة على الكتابة إليك فذلك أن طيبتك ما تزال عوناً لي الآن وأنا أحاول أن أنير أركان نفسي المظلمة ، وأن أقترب من عرش حساب الله القوي القدير ، عارياً في خزيي وعاري .

« إن خطيئتي الكبرى انما كانت « الحسد » .

« كنا نسكن حي سان فيرديانو ، وكان أبي عاملا باليومية ، أكبر من أمي بعشرين سنة ، ونحن الطفلين . ولدت أختي جيزيللا بعد الزواج بقليل ، وبعد فترة أدمن أبي الشراب ، ونسي كل شيء من عمله وعائلته ، وأصبحت أمي عشيقة سمسار عقارات كان يفد من القرية لشؤون عمله ، وينفق وقتاً طويلا في الناحية التي تسكن فيها .

« وولدت بعد أختي بعشر سنين ، وكان أبي ينكر دائماً أنني ابنه ، وأخذ يضرب أمي بمجرد أن عرف أنها حامل . وفي تلك الفترة انفصل سمسار العقارات عن أمي ، وأعطاها بضع آلاف من الليرات ، وعندئذ تركنا سان فيرديانو وانتقلنا إلى سانتا كروتشي .

« ومنذ كان بوسعي الرجوع بذاكرتي إلى الوراء ، كانت في ذهني صورة ملامح وجهه ، مضرجة بالدم ومنقبضة بالغضب وهو يضرب أمي ، يخبطها بقبضتيه الضخمتين أو يشويها بحزام بنطلونه . وذكراي الأولى عن الإحساس بجسمي هي ضرباته لأتفه الأسباب ، ضربات كانت تعمي ناظري لحظتها ، وتكتسحني بالألم والرعب . ولم تكن أمي ، بدورها ، تضربني بالضبط ، لكنها كانت تعاملني باحتقار واستهتار ، والطفل عندما لا تحبه أمه ، يعرف ذلك ، ويحس نفسه كمّاً مهملا فيتضخم في روعه كل اهمال طفيف .

« أما أختي فكانت على العكس قد كبرت ، وكانت تظفر بكل رعاية ، كانت تدير أبي حول اصبعها الصغير ، وكان يكف عن ضرب أمي حالما تتدخل في الأمر ، وكانت لها معاملة خاصة من أمي ، مثال ذلك البيضة النيئة التي تمصها كل صباح ، ولم أحصل أبداً على مثلها ، مهما ألححت في الطلب ، شد ما كنت أمقت جيزيلا ، وبيضتها .. !

كنا نعيش ، يوماً بيوم ، على النزر الذي تكسبه أمي من عملها خادمة بالبيوت . كنا نأكل البقايا المسوحة عن الأطباق التي تغسلها في بيوت الناس . ولكن جيزيللا كانت تأخذ البيضة النيئة كل صباح ، وكانت ترتدي الفساتين الجديدة ، وتنال مصروفها لشراء البودرة ، والمجلة النسائية الأسبوعية . كانت هذه الأشياء التافهة تجعلني أغلي من الحسد ، كان عمري ست سنوات ، وكان حسدي وحقدي يشتد تحت وطأة ما أحسه من وحدة وإهمال .

ثم مات أبي في المستشفى ، بعد نوبة صرع — ولست أعرف ظروف وفاته بالضبط رحمه الله ، ورحم أمي ، فقد لحقت به بعد سنتين ، وقد شاخت قبل الأوان .

كانت جيزيللا ، شأنها دائماً ، مخلوقاً شريفاً ، قادراً على العمل الشاق . كانت خياطة ، وكنا نعيش ، على ما تكسبه من عملها ، وأخذت أتعلق بها بالتدريج . وعندما خطبت أحسست أنها خانتني ، كما لو كانت آيات العطف التي تغرق بها

خطيبها من حقي أنا فأبغضتها وحسدتها معاً .

أما ما يأتي فسوف تجده أكثر ما أقول مدعاة للألم ، فلزام عليّ أن أخبرك عن الفترة التي كنا نلعب فيهـا معاً كلنا في الحي : كارلو ، فاليريو ، أريجو ، وأنت . كنت ولداً متحفظاً ، هـذا صحيح ، ولكني لم اكن متحفظاً بقدر ما كنت ضحية لطبعي الذي كان يدعوني للشك في ان كل شيء خدعة ومصيدة ، كنت اخاف من كارلو على الأخص.لم اظهر ذلك ابداً.لكنك ان رجعت بفكرك للوراء ادركت انني لم امنح جماعتنا شيئاً اللهم الا تحفظي وانطوائي السخيف . وبدلاً من ان اقضي طفولة وصبا سعيدين خاليين من الهم ، شأنكم ، افسدت كل شيء بتحوطي وتشككي ، دائماً . كنت موقناً انني افتقر، بالنسبـــة لكم ، الى شيء ما ، كما لو ان موهبــة او مقدرة داخليــة فيّ قد ذبلت وماتت . كنت احسدكم ، دون فهم كامل ، على شيء انكرته عليّ الطبيعة . وكم كنت احسدكم على ثقتكم بنفسكم مع البنات. انني اذكر اليوم الذي تضرجت فيه خجلا وركنت الى الفرار ، عندما كنا نلعب لعبة « البيت » لأن لوسيانا كان عليها ان تقبلني ، حسب اصول اللعبـــة . وتجمعتم انتم الأولاد علي ، وجذبتم سروالي الى تحت لتروا ما اذا كنت رجـلا او لا ، وامسكتم بي ، واخذتم تبصقـون بالدور ، واحداً بعد واحد ، على اعضائي الجنسية . كنت امقتكم جميعاً فترة طويلة بعد ذلك ، دون ان ابدي شيئـــاً ، وانت تذكر كيف انضممت إليكم ، بفرح وحشي ، عندمـــا فعلتم ذلك بالضبط مع فاليريو ، بعـد ان خسر في لعبة من اللعب ولم يستطع ان يبول حسب قواعد اللعب . وعندما كنت اشتري التين المجفف، او العرقسوس، بنقود تعطينيها جيزيللا، كنت احتفظ بها كلها لنفسي.

وكنت ارهبك على الأخص يا جيورجيو ، وحتى عندئذ كنت احسدك مثل الآخرين ، لكني كنت أحترمك احتراماً خفيـاً ، لست أدري ما إذا كان ذلك يرجع إلى قوتك البدنية أو إلى شيء آخر. لكني اذكر يوم ان وجدتني على سلالم الكنيسة ومعي كيس من الكرز ، فجلست بجانبي وألقيت علي محاضرة بالمعنى التالي :

« لماذا تختبىء وتأكل الكرز لوحدك ؟ صحيح انت اشتريته بنقودك ، وهو لك ، ولكن لك إذا شئت ايضاً ان تقدم منه لأصدقائك » .

ثم جاء الثلاثة الآخرون ، وخطف كارلو كيس الكرز من يدي ، فكان عليك أن تعاركه من أجلي ، لكي أحصل على نصيبي . وبقيت هذه الحادثة مدموغة في ذاكرتي ، وعادت اليّ في السنة الماضية ، عندما ضربتني في ساحة سانتا كروتشي .

واشتغلت في دكان زوج اختي ، ثم عدت بعد ذلك الى المدرسة ، فأنت تذكر الوصية والميراث ، وأحسست انني اتفوق عليكم ، انني ارتفعت الى مركز اجتماعي ارقى . ومع ذلك فقد كنت ، في الفصل ، احسدكم على نزهاتكم الخلوية في التلال ، بنفس المرارة التي كنت احسد بها الطلبة المتفوقين. وحاولت القيام بكل شيء لكي احظى بعطفهم ، وقمت بأفعال ذليلة شتى ، كأن احمل لهم كتبهم مثلاً ، او اسرق الصور العارية لهم من درج المكتب في محل زوج اختي ، في مقابل ان يكتبوا لي حلول مسائل الحساب، او ترجمة اللاتيني . كان زملائي في الفصل جميعاً ينحدرون من عائلات طيبة ، وكانوا اغنياء ، وفي جيوبهم دائماً نقود ، وكانوا بعد المدرسة يمرون على القهوة ليشربوا قدح كاكاو باللبن ، وفي الفصل يتمصصون الحلوى والكرملة وكانوا يدخنون ، كلها اشياء كانت تجننني من الحسد .

وكانت حكايتي مرجعها هذا الى حد ما ، كما تعرف ، ولكن القسط الأكبر فيها يعزى الى طبعي الشاذ . وعندما جربت هذه الفعلة القذرة اول مرة ، لم احس الاشمئزاز كما قد يخيل لك ، بل اللذة ، ودخل شريكي في هذه العلاقة عن طواعية واستعداد تام . ولم تصدمني حقارة هذا العمل الا بعد ان تركته . تلك كانت المرة الأولى التي رأيت فيها بوضوح مدى الدرك الذي انحدرت إليه . كنت في السادسة عشرة ، وارتدي بنطلوناً طويلا ، وحاولت بمجهود يائس ان اذهب الى ماخور . لم اكن قد ضاجعت امرأة بعد وكنت آمل انني بذلك قد

احول دون عودة الاغراء الذي وقعت فريستـه . ذهبت الى باب كل ماخور في البلد ، وردوني عنه لصغر سني .

كان يوماً جهنمياً ، يوماً حدد مجرى حياتي ، ذهبت في المساء الى السينما ، لكنني لم ألق أي انتباه للفيلم ، وخرجت في حالة من الهيجان المحموم ، ومررت بكل شارع وكل زقاق في وسط البـلد ، ارمق كل امرأة عابرة على امل ان تكون محترفة تسمح لي بالاقتراب منهـا . ووقعت اخيراً على امرأة في ساحة سان فيرنزوي ، جالسة على المقعد الحجري الذي يمتد بطول البناء ، أمـام المحكمة . ونهضت على وقـع خطواتي. وسألتني أن أشعل سيجارتها من سيجارتي. واستطعت ، وجها لوجه ، ان أتمـيز شفتيها اللحيمتين القرمزيتـين ، وشعرها الأشقر المدلى في خصل تنزل إلى كتفيها ، وجسمها مكـتنزا في طول جسمي ، أو أقل قليلا . وسألتني ماذا افعل ، بصوتها الأجش ، وأنا أصغر سناً من أن أظل في الشوارع حتى الواحدة صباحاً . فقلت إنني أبحث عن امرأة أنام معها . كنت منفعلاً مستقر العزم . وكان قلبي يدق بعنف فابتسمت ، ونفخت الدخان في وجهي . وتظاهرت بانها تعترض ، لصغر سني . ثم قالت إنهـا ستأخذني . فطلبت منها أن تسير أمامي ، لكنها أخذت ذراعي وسألتني عما إذا كان معي نقود . وأفرغت جيوبي من كل ما كان معي . فقـالت طيب ، وطلبت مني أن أسير وراءها بقليل . ودخلت في زقاق ، ثم في بوابـة حيث وقفت تنتظرني . وأخذت يدي وهي تحذرني بأن ارقى السلالم بحرص وهدوء .

وصعدنا إلى الدور العلوي ، ودخلنا من باب صغير إلى غرفـة لا نافذة فيها ، لا تكبر عن زنزانة السجن هذه التي اكتب فيها ، وكان في الغرفة كنبة عليها بطانية رمادية قاتمة . ويكمل أثاثها بكرسي ، وحوض للغسيـل ، ومرآة على الحائط . وأضاءت النور ، وعدّت النقود التي كانت ما تزال تمسك بها في يدها ، وقالت لي بحرارة إنني ولد طيب . ورأيتها الآن ، اخيراً ، على حقيقتها ، امرأة

مترهلة ، عجوزاً الى حد ما ، ثقيلة الجسم متهدلة الملامح ، مخلوق تعس لا اجد ما يصفه من كلمات .

وزاد من حبوط أملي الرائحة الخبيثة في الغرفة ، وأنني كنت قد صورت المشهد لنفسي بألوان جد مختلفة . ودعتني إلى خلع ملابسي ، بعد ان حذرتني انني لن استطيع البقاء طويلاً . وهي في اثناء ذلك قد خلعت بلوزتها وقميصها، وكشفت فجأة عن جسمها العريان غير النظيف . لم تكن ترتدي غير حمالتين بلون بنيّ قد وسّخها الاستعمال . كانت مضحكة فظيعة حتى تملكني الفزع ، ورقدت هناك على السرير معها ، مذهولاً ، مخيب الأمل ، وذراعاها ملفوفتان حولي ، وهي تضغط جسمي على جسمها الذي كنت أحسه كتلة من المطاط . وتخلت عني رجولتي ، فكنت أنتفض رأساً لقدم . واستعاد ذهني حادثة الصباح وتمثلتها كأنها متعة ذقتها ثم فقدتها ، ورجعت الى البيت يهزني اشمئزاز لن انساه ابداً . ونمت فراودتني احلام شريرة ، وفي اليوم التالي وفيت بميعاد صديقي الجديد ، ولو أنني كنت قد اقسمت ألا أراه أبداً .

ومن تلك اللحظة اصبحت ذلك الشاب الشاذ المنحل الذي ضربته أنت في ساحة سانتا كروتشي .

فتح كلوديو ، شريكي ، أمام حياتي كلها مداعبات ورغبات مشبعة . وأمضينا في فيللاه أياماً من الانحلال والفجور ، كانت تبدو لي عندئذ عين الغبطة والسعادة . وعندما ضربتني أنت يومها ، كنت تظن ان هناك جذوة من القوة الأخلاقية ما زالت باقية عندي مستخفية في أعماقي ، لكنك كنت مخطئاً ، كانت الجذوة قد انطفأت ، واصيب كياني كله بسرطان مستشر .

ومضت سنتان على ذلك النحو . وقدمني كلوديو الى وسط من الناس كلهم متكلفون ، يجرون وراء اللذة. كان يطربهم أصلي المتواضع . أما هو نفسه فكان طيباً ودوداً ، كانت جنسيّته المثلية ترجع على الأرجح الى نزوة تحولت الى عادة ، ولا ترجع الى حافز عميق ، أو هكذا قال لي يوماً أثناء حديث حميم . كان أفضل مني بكثير .. وكانت له زوجة وطفل يعبدهما . كان مثقفاً مرهف

الحساسية لا يصدر عنه قول خشن أو سوقي الا في النادر القليل ، عندما يدفع الى ذلك دفعاً ، كآخر خطوة للدفاع عن النفس .

كنت أحسد عائلته لعطفه عليها ، وكنت أغار وأحسد كل شيء لا يخصصه لي مباشرة . وكان يحـــاول ان يستدرجني بالحديث حتى تتضح الدوافع التي تحدوني الى ذلك . وعندما ادرك ان جنسيتي المثلية عميقة الجذور ، اخذ يقلل من اتصالاتنا السرية ثم نبذني بالمرة . وحضّني على معـاودة دراستي بالبيت ، وعلى كتابة أسراري في يوميات اعود فأقرأهـــا حتى أتعلم منها ، حتى أخذ فجوري ، وقد جرى الآن مجرى الدم في ، يكربه ويزعجه ، فحاول ان يتخلص مني بلطف .

إلا أن قوة حبي الشاذ نفسها جعلتني أكثر استعـــداداً لأن أتصور أنني أمقته . كنت أبعثر ما يعطيني من نقود ، عمداً ودون تورع ، حتى يمكنني ان اطلب منه المزيد . وقلت له انه الملوم على رثاثة بيتي بالنسبة لرفاهية بيته ، وعلى فقري لبطالتي ، بالنسبة لثرائه الذي حصل عليـه بالكد والعمل الشاق . ومع ذلك فقد كانت كلمة رقيقة ، أو مداعبة ، خليقة بأن اسحب ذلك كله ، واعود اطلب المغفرة .

وفي تلك الفترة كانت زوجة كلوديو وولده في بيتهم بالريف ، ونشبت بيني وبينه معارك عنيفه ، وطالبته أكثر من مرة بمبالغ ضخمة « لتؤمنني من الفقر » كما كنت أقول . وذهبت لأراه في عشية يوم زواجك ، وكنت اعرف انه قبض مبلغاً ضخماً من بيع احد املاكـه ، على اثر مصاعب مالـية صادفته . ذلك هو الوقت الذي كان عليّ فيه ان احصل على ما أريد ، وكنت على استعداد لأن ابعد حتى ابلغ الغاية ، فأتيت بمسدس معي ، لأخيفه ، موقناً انه لن يجسر على التفوه بكلمة عن انني هددته اشفاقاً من الفضيحـة — المسدس ، هل تذكر ؟ كانت الشلة كلها قد اشترى كل واحد منهـــا مسدساً ، من نفس الطراز . كنا نعتقد ان ذلك يثبت بلوغنا مبلغ الرجال . إلا أن أريجو لم يشتر لنفسه واحداً

وقال ان امــه ستصاب بنوبة لو عثرت به . تصور انني كنت استخدمه الآن لذلك الغرض ..!

وتلقاني كلوديو مرحبّاً بمودة ، وذهبنا نتمشى في وسط المدينة ، ثم ذهبنا للمسرح . كان المسدس يثقل جيب بنطلوني . ودعاني بعد المسرح للذهاب معه للبيت ، فأخذنا سيارة أجرة ، وكان يتحدث معي بعطف ، ويقول إنه سيعطيني خمسة آلاف ليرة هدية . واستطرد بنفس اللهجــة في البيت ، فقلت ان مبلغاً مثل هذا بالنسبة لي ليس الا مجرد نكتة . ولكنه كالمعتاد استطاع ان يعبّر عن وجهة نظره بما يقنعني ، وبخاصة عندما راح يتكلم بشكل مؤثر يمس القلب . وأخبرني انه سيحاول ان يجد لي وظيفة طيبــــة ، كاتباً في شركة يملكها احد اصدقائه من اصحاب الاعمال .

وقضيت الليــلة عنده ، ولما كنت قد استيقظت مبكراً في الصبــاح لألحق بحفلة زواجك فقد كان ما زال نائماً عندما انتهيت من ارتداء ملابسي . ونهض من السرير ليودعني . وعاد يقول ، بخشونة هذه المرة ، ومن غير النغمــة العطوفة التي كانت في صوته الليلة الفائتة ، ان من الخير لي ان اقتنع نهائياً بأن ذلك هو الوداع الأخير وأن باستطــــاعتي ان آتي لأزوره كصديق يوم ان اتخلص من افكاري الغريبة . والتقط محفظته ، وفتحها وهو يقول انه سيسافر اليوم على أي حال في رحلة طويلة للخارج . كنت اعرف انه يكذب ، ولكني كنت قد اقنعت نفسي بطريقة ما ، قبل ان اجيب بشيء ، انه يعني ما يقول . وعدّ من محفظته خمس ورقات بألف ليرة ، وكنت ارى ان المحفظــة مكتظة بالشيكات واوراق النقد . فتوسلت له ان يأخذني معه ، وقد جنّ جنوني بالحسد لفكرة الحياة الناعمة التي سيحياها اثناء رحلته ، وانا مرميّ في مكتب ما بعيداً عنه . وبينما كان يبتسم لي باشفاق صرخت به ألا يعطيني خمسة آلاف بل خمسين ألفاً . ومنذ تلك اللحظة جاوزت كل تعقــــل . وأنا الآن إذ استرجع ما حدث ارى كلوديو يجيب على طلبي السخيف بأن يقفل محفظته ويضعهــا على المائدة الصغيرة

جنب السرير وهو يدق على رأسه بسخرية ، فجذبت المسدس ، وقذف بنفسه علي – وأنا اذكر انني احسست انفاسه على وجهي . وأطلقت الرصاص دون ان اعي ، بل دون ان اسمع الطلقات ، في الصميم ، اذ كان فوقي تماماً ، فتلوى وتدهور ساقطاً ، وقد نفذ الرصاص في قلبه .

وبينما كان يرقد ممدداً هناك ، استمدت حواسي . وفي صحو غريب كأنه صادر عن انسان آلي خطوت فوقه وأخذت المحفظة من على المائدة ، مع بضع خواتم كانت هناك وساعة يده ، وبحثت عن المفاتيح في جيوب بنطلونه على الدولاب ، ثم خرجت واقفلت الباب وبوابة الحديقة ورائي .

كان الشارع مهجوراً ، بلغت الأرنو والقيت بالمسدس والمفاتيح في مياهه دون ان يلحظني احد ، وأخذت أهيم على وجهي دون هدف زمناً طويلاً ، محموماً عاجزاً عن أن ألم شتات فكري ، وملابسي ملتصقة بظهري. ثم تذكرت انكم تنتظرونني ، فنظرت إلى ساعتي ، كانت الحادية عشرة ، لا بد انني كنت اتخبط في الشوارع على غير هدى ساعات طويلة ، وهأنذا على التلال في خارج المدينة ، فاتجهت الى الحي ، اجري بأسرع ما وسعني الجري . وفي طريقي إلى الشقة ، على السلالم ، تذكرت الهدية التي وعدت بها ، وفكرت فجأة في الساعة التي كانت ترتطم بجيبي . أتتذكر ؟ الساعة ذات العقربين أحدهما أخضر والآخر أحمر ، لست ادري لماذا ، لعله لاجتلاب الحظ الحسن ، اما انت فقد ظننت انها مجرد نزوة حمقاء لا خطر لها .

وبعد حفلة الزواج رجعت للبيت ونمت يوماً وليلة ، كما لو كنت في سبات . وصحوت غارقاً في العرق ، وقد صفا ذهني تماماً واحاط بما حدث بوضوح ، والمدهش انني لم استشعر لا خوفاً ولا ندماً . كنت واثقاً ان احداً لن يزور كلوديو ، عدة ايام على الأقل . ثم أدركت ان لديّ من الوقت ما يتيح لي ان اقبض قيمة الشيكات فزورت امضاءه في بنكين مختلفين . كان بين يدي الآن ثلاثمائة ألف لير ، وأطاش صوابي مشهد كل ذلك المال ، وحسّي به ، واظن

انني لا بد اشتريت سيارة ، وذهبت الى روما . لقد اعترفت بهـــذا عندما اتهمت به — فلا شك انه صحيح ، لكنني لا اعرف ، فقـــد عشت ستة شهور حياة شخص آخر ، لا حيـــاتي انا ، كما لو انني كنت قد سلخت عني جلدي ، وعريت نفسي الحقيقية ، اتمرغ في الفجور ، واصبّ النقود صباً في حمى مجنونة من الحفلات والأزهار والملابس والنزهات واشياء لم اعد اتذكرها ، كل ما اذكر ظلال تطوف على ارضية غبراء ، لا شـكل لهـــا ولا معنى . ان شيئاً من روما لم اعد اذكره ، لست اذكر شارعـــاً واحداً أو ميـــداناً واحداً ، ذلك قمين بأن يثبت لك ان هذه الشهور الستة لم تكن حقيقيـــة ، كل ما يبقى منها ، حاداً وصافياً ، هو صورة صبي مراهق في غرفة باذخـــة الرياش تتوهج بالضوء ، وجسمه العاري ممدود على اريكة حمراء ، وانا اداعبـــه والاطفه ، انها غواية خبيثة ما زالت معي حتى في هذه الزنزانة ، انني اعذب جسمي حتى اقهره .

ثم جاءوا في ذات يوم يقبضون علي ، فقد انتهت المقدمة الطويلة ، مضت دون ان تترك اثراً . كان يبدو ان الضباط الذين احاطوا معصمي بالقيد الحديدي لم يكونوا هناك في الغرفـــة المزدانة بالزهور المفروشة بالسجاد حيث وجدوني ، بل كانوا على باب غرفة النوم حيث تمدد كلوديو تحت قدمي ، وما زال به دفء الحياة بعد » .

٢٦

كان جينو قد أعطى الخطاب لأخته، خفية عندما كانت تزوره في السجن، لذلك لم تملك مقاومة اغراء أن تقرأه قبل أن تضعه في ظرف لترسله إلى جيورجيو. بل ما كادت جيزيللا تسلـّمه لنا حتى أخذت أقرأه، أنا واريجو، وذهبنا لهذا إلى الغرفة الخلفية من حانة شارع ديل أنجلو.

كان ذلك بعد ظهر يوم قارس البرد في ديسمبر، في شتاء ١٩٣٥، في ذلك الشتاء الذي كنا جميعاً على وشك أن نمر خلاله بتجربة حاسمة، بمعنى أن كلا منا قد تخلى عن شكوك وقلق صباه، وهو الآن سيأتي حركة ما، سيقول كلمة ما، سيتخذ خطوة نهائية تلزمه بعد ذلك جسماً وروحاً، وتحدد حياته كلها. يميل الناس إلى تفسير الأشياء بارجاعها إلى القدر في حين أن ما يقصدون إليه حقاً، هو أنهم قد حكموا على أنفسهم، أسلموا أنفسهم إلى سجونهم، وأنكروا على آمالهم حق التعبير.

كان الخطاب يستغرق ثماني صفحات من ورق المذكرات الرخيص، المسطر بمربعات. وكان مكتوباً بخط صغير دقيق، والحبر الخفيف الباهت يكسبه مظهر وثيقة أبقيت مخبوءة سنوات طويلة.

كنا قد طلبنا «بانش» من الروم، وقد برد السائل القاتم الذي يتصاعد منه البخار، تدريجيا، ولكننا لم نلحظ شيئاً. جلسنا جنباً إلى جنب إلى المائدة، بينما أمسكت أنا بالخطاب وأخذت أقرأه بصوت خفيض، وقد وضع أريجو ذراعه حول كتفي حتى يقترب مني ويتابع الخطاب. كنا نبدو كما لو كنا

محبوسين في تلك الغرفة الخلفية ، وأمامنا عاشقان يفصحان عن غبطتهما بضحكات يكاتمان بها . كنا ، ونحن نقرأ ، نعالج السيطرة على انفعالاتنـــا ، ويحثنا على مواصلة القراءة فضول مرضيّ غريب . كنـا نحس أننا قد ارتبطنـا بأحداث تتجاوز طاقة فهمنا ، أعني أن جينو بدا لنا ، بطريقة غريبة ، كائناً أسمى ، أو على الأقل كائناً قام بعمل شيء ما . كان خطابه يملؤنا بالرعب والاعجاب معاً ، بالحزن ، وباحترام عميق مع ذلك . كان يشق أن نصدق أنـــه لم يكتب هذا الخطاب إلا منــذ أيام قلائل ، خلف أسوار سجن لا يبعـد إلا بضع أمتار عن مكاننا ، كتبه شخص نعرفه جد المعرفة ، صافحناه مراراً ، ونشأنا معاً . كانت كلماته في الحقيقة تبدو كما لو كانت آتية من الماضي البعيد ، تستعيد أشياء حدثت في عهود أخرى في عالم آخر . أخذنا نقرأ بنهم ، على ما انتابنا من كرب وألم . كانت حكاية شبابنا تنبسط أمامنا ونحن نقرأ، ويخيم على قلوبنا ظل من الماضي.

وفي النهاية سألني أريجو :

– أتظن أنه سيقتل نفسه ؟

– ربما ، وإن كان لا ينبغي ما دام يؤمن بالله الآن ، كما يقول .

– صحيح .

وارتعد أريجو ، نفض نفسه ، ودعك يديه كما لو كان مقروراً .

– كل هذا الكلام يجعـــل جلدي يقشعر ، لو لم تكن موجوداً ، فأظنني لم أكن أخلص منه أبداً ، كما لو أن كل شيء قـد توقف ، كما لو أنني ذهبت إلى البيت ووجدت أنه لم يعد هناك أي شخص . أتفهمني ؟

– هذا بالضبط ما أحس به أنا نفسي ، ولكن ما عليـــك إلا أن تصطدم بشخص ما ويعود كل شيء إلى أصله .

كنا صبيين لم نبلغ العشرين بعد، وقد أفزعتنا هذه البصيرة الجديدة بطبيعتنا الخفية . واستطرد أريجو :

– عندما أفكر في جينو في تلك الزنزانـة ، والله أعلم كم سنة سيظل فيها،

يبرد دمي في شراييني . كان الأمر يختلف عندما كنا أطفالاً ، أما هذه الفعلة فمعناها أن كل هذا قد انتهى ، كا لو كنا سنذهب من الآن ، كل منا في طريق . وهذا بالضبط مـا يحدث : كارلو يفكر في الحرب ، جيورجيو بأفكاره التي ستؤدي به إلى نهاية أبيه ، كل ذلك غريب نوعاً ما . ويبدو لي أنني لا أستطيع الآن أن أتكلم مع أحدكم . لكل منكم أفكار مختلفة أشد الاختلاف . وأنتم تحبسون أنفسكم كل ليلة لتقرأوا كتبكم تلك ، أما أنا ، فبعد أن أرجع من مرافقة لوسيانا إلى بيتها، أحبس دون أن أعمل شيئاً أبداً، أحاول قتل الوقت،وأحاول أحياناً أن أغني للورنزو حتى ينام ، ماذا أعمل ؟

-- وما الذي يدعوك للظن بأنني لا أحس مثلك تمامـاً ؟ لذلك بالضبط أخذت أقـرأ ، لأنني وحـدي ومستوحش . وأنا الآن أصارع « الكوميديا الالهية » ولست أفهم منها كثيراً ، ولكنني أقرأ الهوامش وفي مقدوري أن أتابع الحكايات ، وأقرأ روايات أيضاً وسأعيرك اياها .

— يجب أن أكون في الفرن مبكراً ، ولا وقت عندي للقراءة .

— طيب ، عندك لوسيانا . ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

وخرجا من الحانة ، كان الحيّ في قبضة الشتاء ، وكان باعة القسطل المشوي يقفون على ناصية الشوارع ، وخلف نوافذ المقاهي المغبشة بالضباب كان الرجال جالسين وفي أيديهم ورق اللعب ، وأمامهم ورق من النبيذ . والنسوة في شيلان ناصلة النسيج أيديهن مدسوسة في جيوبهن ، يهرولن في الشوارع ، وقد تقوست أكتافهن طلباً للوقايـة من البرد . وكانت جماعـة من الصبيان ، أنوفهم فطس حمراء ، منهمكين في وضع أقراص من البارود على قضبان الترام . وكانت المياه في حوض النافورة الكبير ، في ساحة سانتا كروتشي ، قد تجمدت وتصلبت . والحوذية قد عقدوا أذرعهم على صدورهم ، ودسوا أياديهم تحت الابطين ، طلباً للدفء . أما شارع بيترابيانا فقـد كان بهيجاً مرحاً ، وواجهـات الدكاكين مضاءة ، والناس متزاحمين متدافعـين . وكانت نصبـة كمك القسطل رائحة

الحال ، وبيّاع الكرشة منشغلاً حتى أنه ليغرف بضاعتــه وهي ما زالت نصف نيئة ، والكلوب يفح وينز في الرياح .

وفي بيت أريجو وجدنا ماريا ولوسيانا ، مع أولجا التي جاءت للزيارة . كانت تحتضن لورنزو بين ذراعيها ، وفي عينيها نظرة مفتونة .

قالت لوسيانا :

— أولجا ، لماذا لا تأتين للسينما معنا ؟

وأضافت : فاليريو أيضاً ، فهذا يجعلنا اثنين اثنين ، إذا كان مستعداً بالطبع ان يتنازل عن كتبه . هل تعرفين يا اولجا انه يقرأ الآ ن كفأر كتب ؟

واخذ لورنزو يبكي ، فوضعته اولجا في حجر امه ، واجابت :

— لا يدهشني ذلك ، كلنا نعرف انه مجنون .

واستدارت اليّ باسمة ، كأنما لتؤكد انها تمزح ، بنظرتها المرحة . ولما ظلت لوسيانا تلح عليها ، ولم اخف انا مدى لهفتي ، اضافت :

— إذا كنتم تريدونني حقاً فسآتي بكل سرور ، وكارلو على أي حـــال في حفلة وداع للأولاد الذاهبين إلى الحبشة ، ولن يعود قبل ساعات طويلة .

كانت تلك هي المرة الأولى التي اخذت فيهـــا اولجا بذراعي ، كانت اقصر قامة مني قليلاً ، وكانت مشيتها مشية الفتاة الصبية ، صريحة واسعة الخطى . بل ان لوسيانا نفسهـــا كانت تبدو سيدة ناضجة بجانب صراحة حركات اولجا ، البسيطة ، البريئة من أي حيلة نسوية . كانت اولجا ترتدي جاكتة مزررة عند العنق ، وكان وجهها الملائكي مشرقاً ، وكتلة الذهب المموجة في شعرها . كنت سعيداً بأنني احيا ، في تلك الليلة . أمـــا الحبشة ، والحرب ، والآمال الخفية فلم تكن في قلبي ، بـل كانت كل قطرة من دمي — لو أنهـا سفكت صدفة — لتعكس صورة اولجا ، والرقة الذائبة في نظراتهـــا . ولأنني كنت قد عرفت « الكوميديا الالهية » حديثاً ، في نسخة شعبيـــة ، لم أملك الا ان اقارنها في براءة ، بياتريس ، بماتيلدا ، وبيكاردا . وبينما كان قلبي ينتفض بالقلق كنت

أبحث عن الكلمة الصحيحة التي اقولها ، لأكسب منها ابتسامة ، علامة على تقاسمني سعادتي . كانت زميلتي بنتاً في السادسة عشرة ، لها تاج من الشعر الذهبي، ووجه بريء مشرق ، كانت ترتدي قفازاً من الصوف الأخضر، وحذاء ذا كعب متوسط الارتفاع ، وجوارب مشغولة ترتفع حتى ذيل معطفها حيث تبدو ركبتاها العاريتان ، وقد شابتهما زرقة من البرد .

ولم نستطع ان نجد اربعة كراسي معاً في السينما ، فانقسمنا . واخذت انا واولجا كرسيين بالقرب من نهاية القاعة ، وكان الفيلم حكاية مؤسية عن الحب والحرب .

كان الممثل جيمس يشتغل في مجاري باريس ، فطلع بقده النحيل الطويل من فتحة المجاري ، بوجهه الصريح الشريف ، تلمع في عينيه الطيبة وخلوص الطوية . وهاهو ذا يخرج من قلب الأرض،عند الفجر،فيلتقي بالممثلة سيمون،وهي مخلوق ماكر خبيث ، حلوة كقطيطة ، معابثة وطيبة على التوالي ، شأن القطط . كانت قد لقيت من الرجال سوء المعاملة فهي على وشك التردي في هوة الرذيلة – ولكن جيمس يخرج من الفتحة ويأخذ بيدها ، ويذهب معها إلى غرفته فوق السطوح – حيث يشدو بالليل مع النجوم واصدقائه القطط – اللاتي يشبهن سيمون الرائعة . وقلب جيمس هو قلب جيورجيو ، انني احس ذلك واريد ان اقوله لأولجا التي تهتف : أليس مدهشاً ؟ وهي لا تستقر في كرسيها،ولكنني إخشى ان اجرح مشاعرها ، لست ادري لم ، فألوذ بالصمت وارقب زميلتي الى جانبي في صمت القاعة المتوتر .

ثم تأتي الحرب فتلقي بظلها الموحش على جنتها ، وإذ كانت سيمون تدور مرحة مبتهجة ، مرتدية ثوب العرس ، تتوقف مروعة عند سماع الخبر، وجيمس الآن جندي ، مرتبك ، عيناه مليئتان بالاستسلام للمصير . وسيمون وحدها في غرفة السطوح ، بل الكناريا في قفصه حزين . والقطط على سقوف البيوت ترفع

رؤوسها للنجوم وتموء ، حتى تمر العاصفة في النهاية ، ويعود جيمس لزوجته ، ولكن نور عينيه اللامعتين الفتيتين قد خبا إلى الأبد .

كانت اولجا متكومة في مقعدهـــا ، تبكي ، وأنا أتحسس يدها العارية من القفاز وأمسك بها برقة ، فتسلمني يدهـــا كما لو كانت تطلب العزاء ، وتضاء أنوار القاعة ، وينادينا أريجو ولوسيانا . ما زالت أولجا غارقة في القصة ، وهي تتكلم عنها بحماس ينم عن رقة قلبها ، وبراءتها . وتدهشني نظرة الألم والعذاب في عينيها ، إذ تكشف كيف اندمجت بالفيلم أعمق اندماج .

ومع ذلك فان أتفه شيء خليق بأن يغير مزاجها ، فعندما ترى واجهة محل للحلوى مكظوظة بالشكولاته وكعك اللوز ، تعصر يديها في اشتهاء ، وعندما تسمع فرقة من الموسيقى العسكرية من راديو في باب محل ينفتح إذ نمر به ، تهبط الى الأرض وتقول :

— أتعرف أن ماما كتبت لكارلو تقول إنهـا مسرورة لأنه انضم للجيش ؟ وتقول انها تبرعت بخاتم الزواج وأسورة ذهبية لاكتتاب الحرب . أليس هذا مدهشاً منها ؟

ودعنا أريجو ولوسيانا ومضيا معاً . وعندمـــا بقينا وحدنا ، أبعدت أولجا ذراعها عني وقالت :

— افرض أننا التقينا بماريزا ، ربما فكرت شيئاً .

— بم تفكر ؟ اننا افترقنـــا صديقين ، هذا كل شيء ، وجدنا أننـــا لم نكن في الحقيقة نحب أحدنا الآخر جداً ، بل كنا نحب أحدنا الآخر كصديقين .

واستدرنا عند ناصية شارع ماتونايا ، كانت ساحة السوق مهجورة ، والريح تكتسح فراغها الواسع . واقتربنا من الجدران طلباً للوقاية من الريح .

وسألتني :

— كيف تستطيع التأكد بأنك تحب حقاً ؟

وفجأة ، دون أن أدرك مدى المغامرة التي اندفعت فيها ، وجدت الكلمات تتدفق من شفتي :

– بسيطة جداً ، إذا كنت تفكرين في شخص ما ليل نهار ، ولا تعرفين السعادة إلا عندما تكونين معه ، فأنت تحبينه . أنا مثلاً ، أنا أعرف بلا أدنى شك أنني لا أحب أحداً سواك .

كانت إجابتها ضحكة مرحة ، لكنها لم تكن ضحكة واثقة من نفسها إلى الحد الذي لا يسمح لي بأن استشفّ فيها نبرة من الخوف ، قالت :

– أنت مجنون .. !

أحسست ، لحظة ، أنني قد رميت بعيداً عني ، في تهور ، كل ما يحمل الحياة جديرة بأن تحيا . فان كانت إجابة أولجا المباشرة أن ترى إعلاني لحبي حماقة وخرقاً ، فلعلها لن تأخذ مني أبداً شيئاً على محمل الجد ، وضخم خيالي المتقد هذا الخطر .

فأخذتها من ذراعها ، ووقفت .

قلت :

– اسمعي يا أولجا :

وكنت أتكلم من قلبي .

– لعلني كنت متعجلاً قليلاً ، لكن صدقيني ، هذه هي الحقيقة ، إنني أحبك ، هذا هو الشيء الوحيد المهم . أرجوك أن تدركي ذلك ، حاولي أن تعتادي على فكرة انني احبك فعلاً ، ثم اخبريني ماذا ترين .

كنا في حمى البيوت المواجهة لساحة السوق . كانت أنفاسنا تتكثف في سحابات صغيرة من البخار ، في الريح الباردة التي تسفع وجهينا . وكانت أولجا تعتمد إلى الجدار ، تبدو منهكة محتاجة إلى السند . وأجابت ، ووجهها مرفوع إلى السماء ، كأنما لتتجنب عيني :

– ربما كنت ما أزال طفلة أنا ، فاذا قلت لك انني احبك ايضاً فلا تأخذ ذلك على محمل الجد كثيراً ، لأنني ربما كنت مخطئة ، فلست أدري شيئاً عن كل ذلك .

كانت تتكلم في غير طلاقة ، بتعثر ، كما لو كانت على وشك البكاء . ومع ذلك فقد كان في لهجتها ما يشبه الدفاع عن نفسها .

ـ لا .. لست طفلة أنت ، وعلى أي الأحوال فأنا أحبك كما أنت ، بالضبط .

ـ ليس الأمر بهذه البساطة يا فاليريو . أنت تقول إنك تحبني ، لكن لعله نفس الحب الذي كنت تكنه أولاً للوسيانا ، ثم لماريزا ، وربنا وحده يعرف كم فتاة أخرى أيضاً ...

ـ معك أنت هذا شيء آخر ، سأبرهن لك .

ـ أنت متأكد أن ذلك ليس بسبب انضمام كارلو للجيش ، ولأنني سأبقى وحدي ؟

كان دورها في أن تنظر إليّ ، في عيني ، بشيء من الحياء ، ومن الواضح أنها تدافع الآن عن نفسها. أحسست برغبتي في أن أفرخ روعها وأهدىء من مخاوفها بقبلة ، وكان وجهها المرفوع ، وجسمها المسنود بلا حول إلى الحائط ، والساحة المهجورة ، كلها تحثني على ذلك . لكنني استطعت أن أكبح من نفسي ، كان حبي لها بهذا القدر من الاتضاع والتخوف .

ـ إذا كنت تعتقدين هذا ، فمعنى ذلك أنك لا تصدقين حتى الآن انني أحبك .

ومرت بنا دراجة ينافح سائقها الريح ، وجاءتنا أصوات كلام من نافذة مضاءة . كان مبنى السوق يقوم موحشاً قاتماً في وسط الساحة ،وعربات أصحاب الخضر تصطف في خط طويل .

وسألتني :

ـ أتظن إذن أننا يجب أن نخبر كارلو ؟

ـ إذا أردت .

ـ يستحسن لا ، الآن ، سنخبره بخطاب ،ولكن يجب أن نكتب لماما فوراً.

ـ وما شأن أمك بهذا ؟

ـ ماذا تعني ما شأنها ؟ إذا كان كل شيء جدياً وصريحاً فيجب أن تكون هي أول من يعرف .

وأتت بحركة تنم عن الضيق ، واستدارت عني بحزن .

ـ لا تقف ضد ماما أنت أيضاً ، إذا فعلت فلن أستطيع أبداً أن أحبك .

وتركت حمى الحائط ، واستأنفنا سيرنا .

عندما بلغنا مدخل بيتها استدارت إلي وقالت :

ـ ماما تريدني أن ألحق بها في ميلانو ، هل كنت تعرف ؟ وقلت لها إنني لا أستطيع ، وكان السبب هو أنني لم أكن أطيق أن أبتعد عنك ، ولو أنك لم تكن قد قلت لي شيئاً .

ودخلت .

كنت سعيداً ، وكان قلبي مترعاً بالحب ، وعندما استدرت في شارع ديل أوليفو لحظت كارلو وماريزا يقفان عند الناصية . فحدت عن الطريق ، خلف عربة كانت أمام الاصطبل ، حتى لا يرياني .

٢٧

وفي المساء التالي خرجنا نتمشى ، لأول مرة حبيبين . كانت أولجا عندي أجمل مخلوق على الأرض ، كان ذهني معها مليئاً بأفكار طاهرة متضمة . وبينما كانت تمشي إلى جانبي كان بوسعي أن أحس قلقاً طفيفاً يخامرها ، كما لو كانت توشك أن تكون مذعورة ، فحبّبها ذلك إليّ وقرّبها من قلبي . كنت أخشى أنني لو لمستها لآذيتها ، كما لو أنني كنت أمسك شيئاً ثميناً في راحة يدي ، شيئاً لزام عليّ أن أحرص عليه بكل ما وسعني من حب وحدب .

وسألتني مرة :

– أتحب أن أبدأ بوضع الأحمر على شفتي ؟

– ولماذا ؟.. ان شفتيك جميلتان هكذا ...

– ولكنني أظل أبللها حتى تبقيا على احمرارهما،وفي الشتاء تتشققان فأضطر لاستخدام دواء التشقق ، وربما كان الأحمر يحول دون تشققها .

– لا بأس إذن ، على أن يكون الأحمر خفيفاً ، فلست بحاجة إليه حقاً .

– انك لم تقل لماريزا أبداً ألا تضع الأحمر ، كانت دائماً تضعه،وبأي شكل. !

– لماذا تأتين بسيرتها دائماً ..؟

– آسفة ... لم أقصد أن أغضبك .

وبعد العشاء كنت وحدي بالبيت ، خرج أبي إلى المقهى ، وكانت جدتي تتلو صلاتها على المسبحة مع أم ماريا في الشقة العلوية . وكنت ملفقاً في معطفي ،

جالساً ويدي بين فخذي ، كصبي صغير ، اقرأ « الكوميديا الالهية » بصوت عال ، عندما دق الباب .

كارلو . دهشت ، وأحسست بشيء من الخوف لزيارتـــه ، وبخاصة عندما أدركت أن في حركته شيئاً من العصبية والاهتزاز ، بعد أن حيّاني .

– سأسافر غداً ، كما تعرف .

– حسناً ، لا بد أنك تطيب قلباً لذلك .

– هذا صحيح . لكني جئت لأراك في مسألة أخرى .

لا بد أن أولجا قالت كل شيء ، وأخذت أتلمس في ذهني تفسيراً .

واستطرد :

– مسألة بيني وبينك فقط .

– نعم ؟

لم يكن لديّ شك بما سيقول :

– كان جيورجيو دائماً يقول إننا ينبغي أن نلتزم الصراحة والبساطة ، على الأقل بيننا ، ومع ذلك فلست أدري كيف أبدأ .

– لا ، أنا الذي يجب ان اقول لك كل شيء .

– عم تتكلم ؟

كان من الواضح انه أُخذ على غرة ، كما لو كان فقد توازنه على اثر شيء لم يكن ينتظره ، واستطرد :

– الحقيقة أنني خطبت ماريزا . !

وذهلت .

فأضاف ، بلهجة متخاذلة :

– لست الومك على دهشتك ، لست ادري ما الذي دفعني لأن آتي فأقول لك ، والآن وقد ارحت صدري ، فبوسعك ان تقول لي رأيك .

– استطيع على الفور ان اخبرك انني سعيد جداً بهـذا الخبر ، إن ماريزا

بنت طيبة وانت تعرف هذا ، معرفتي بـه . وبسببك انت ، في نهاية الأمر ، بدأت اول الأمر تروق في عيني .

وادركت ان في كلامي فتوراً ، فأضفت :

– كنت مغرماً بها جداً في وقت من الأوقات ، ولكن ..

– هذا قد انتهى ، أنا متأكد تماماً أن ماريزا تحبني .

– لست اشك في انك محق ، انا الآن ادرك ماذا كانت تقصد بما كانت تقول من إيماءات أخيراً .

كنا جالسين إلى المـــائدة ، وامسك كارلو بذراعي ، كان يبدو كالرجل العاري العاجز لا حول له ولا درع الا صدقه واخلاصه ، وليس عنده كبير ايمان حتى بهذا . كنت مضطرباً . سيشق عليّ الآن كثـــيراً ان اخبره عن اوجاع نفسي ، ولكنني احسست ان ذلك لزام عليّ ، مـــا دمنا قد التزمنا الصراحة التامة ، لكنه لم يتح لي فرصة ، فقال :

– إذا انت بلغت سناً معينة ، صعب ان تتكـــلم عن هذه الأشياء ، انت تعرف بالطبع انني كنت اتدهور مرة اخرى في هذه الأيام ، أليس كذلك ؟

– لماذا تدع نفسك تنحدر بهذا الشكل ؟

فتدفقت كلماته :

– كنت اكذب عليـك الآن ، كان عندي سبب هـام لمجيئي إليك ، وانا الآن يخجلني ان اقوله .

وسقط رأسه على ذراعيه المعقودتين ، واخذ يبكي :

– فاليريو ، لا فائدة مني ، هذا كل شيء . لن اكون ابداً إلا مخلوقاً لا نفع فيه ، هكذا خلقت ، وحتى جيورجيو لا اجده الآن قريباً مني ، ليسديني النصيحة .

وشهق بالبكاء .

فحاولت ان اهدىء من اضطرابه ، وقدمت له قدحاً من النبيذ وقلت :

– دعنا نتكلم عن كل شيء ، إذا كان في ذلك خير ما على الاطلاق .

كان الآن أهدأ وعيناه الصفراوان مخضلتان ، حزينتان .

– اطفيء النور ، لو كان عليّ أن أنظر إليك مواجهة لما استطعت أن أقول كلمة واحدة .

ففعلت ، ومضى يقول :

– منذ سنتين ، حين قلت لي انك مغرم بـماريزا ، سرني ان اسمع ذلك ، أتذكر ؟ فقلت لك إنها بنت طيبة ، وكنت أعني كل كلمة . كنت أشتغل وقتها ، وكنت مع جيورجيو ، ولذلك كانت أحوالي تتحسن ، وساعدني جيورجيو أن أتخلص بالتدريج من هذا الهذيان الذي كان مسيطراً علي ، بل تحسّن سلوكي مع أمي ، وتعلمت أن أغفر لها ، ونجحت في النهاية أن أكلمها بصراحة وأن أقنعها أن من الخير أن تذهب بعيداً – تغيرت نفسيتي تماماً ، ولست أظن ذلك قد تلاشى تماماً حتى الآن – وكان ذلك بفضل جيورجيو الذي ساعدني على أن أقف على قدمي مرة أخرى . وكانت أولجا عزائي ، كنت أراعيها وهي تكبر ، نقية بالرغم من كل القذارة التي تحيط بها ، بل فكرت في الزواج يوماً ، ولكن .. من الصعب أن أقول ذلك .. بدأ الأمر ببطء ، ثم اتضح لي بالتدريج أنه ليس هناك إلا امرأة واحدة في العالم يمكن أن تعني شيئاً لي ، ماريزا . وكانت حبيبتك ، كنتما مجنونين أحدكما بالآخر . ووطنت نفسي على أن أحيا في ظل سعادتكما ، وأنا ما زلت أحب ماريزا ، دون أن أريدها ، وكان يبدو من العدل أن أثيبها بهذه الطريقة من كل ما سببته لها من أذى . يخجلني أن أقول لك ذلك كله حتى في الظلام ، على أي حال ، التقيت بها في ليلة من الصيف الماضي ، وعندما كنت أحييها لاحظت أنها كانت تبكي ، لم يكن عندي أدنى فكرة ما إذا كنتما قد تعاركتما ، كل ما كنت أعرفه انها كانت تبكي لذلك قلت لها انها غلطتك أنت لا شك وأنني سوف اعنفك ، لكنها جعلتني أعد بألا أفعل . وأبلغتها البيت ، وفي تلك الليلة تحققت أنني

لم أنزل عنها أبداً ، لم أسلم بأنني فقدتها ، كنت ما ازال مجنوناً بحبها . وحط ذلك من إحساسي بنفسي وملأني كآبة ، كما لو كنت ارتكبت فعلة قذرة . ثم كانت هناك عندئذ كل تلك الضجة من الحرب ، فأخذت اهتف متحمساً ، حتى أخلص من حكاية ماريزا هذه . ما زلت أؤمن بكل ما قلت من أشياء : احنقت جيورجيو ، لكني لم اكن لأجنّ حماساً بالحرب لو لم تكن هذه الحكاية تنخر في نفسي من الداخل . ما تظن إحساسي وانا اترك أولجا هكذا ، ولعل أمها تعود ثانية ، وتذهب بها إلى وكر قذر ؟

– إنني أفهم ذلك كله يا كارلو ، ولكن ...

– دعني انتهي من كلامي ، لم يكن بوسعي ان انزع من ذهني ماريزا ، لم اكن اغمض جفناً من تفكيري فيها . انها المرأة الوحيدة التي كانت لي ، المرأة الوحيدة التي اردتها طوال حياتي ، المرأة الوحيدة لي – هذا هو الحق الصراح ، دون ادنى شك .

وبعد ان افترقنا ، اخذنا انا وماريزا نلتقي ثانية ، كما لو كنت تتعرف على شخص لم تره منذ سنين . واخبرتني أن كل ما كانت تحاول ان تفعل طوال ذلك الوقت هو ان تنزعني من ذهنها،وما كانت لتفعل ذلك لوأنك حقاً كنت تحبها، وانا الآن لا اطيق فكرة البعاد عنها . لا نفع في ، لا فائدة ، يا فاليريو ، ليس عندي أدنى شجاعة ، ولست أملك لنفسي شيئاً . وعندما أفكر في ماريزا ، أحياناً ، أتساءل ما إذا كنت قد تركت لها شيئاً حقيقياً تتمسك به وانا بعيد ، على الأخص بطبعها الجنسي . صحيح أنها مغرمة بي ، ولكن لو أن شخصاً أخذ يلاحقها وانا بعيد ...

وانهار مرة اخرى ، وكانت عيناي قد ألفتا الظلام ، فاستطعت ان اتبينه إلى المائدة ، وكتفاه تهتزان بالنشيج . نهضت ، ولكنه قال :

– لا توقد النور ، لن أحتمله الآن .

– هدىء من روعك ، ان احداً لا يعرف ماريزا اكثر مني ، انهـا تحبك وسوف تبقى مخلصة لك ، لا يكربك هذا .

– هذا ما أحاول أن أقول لنفسي .

كان ما يزال يبكي ، ورأسه على ذراعيه .

– ولكن إذا تحتم ان يحدث ذلك ، فأوثر ان يكون معـك انت . انت لا تستطيع ان تأخذ منها شيئاً الآ ن .

وخنقه البكاء ، فلم يستطع الكلام ، وأخذ يبكي طويلاً ، كان كل ما يمكن ان اقول في غير موضعه ، وهالني يأسه المطبق الذي لا مقدرة فيه على شيء . ثم سمعت جدتي تقول مساء الخير وتنزل السلالم،فساعدت كارلو على ان يقف على قدميه ، وخرجنا إلى الشارع ، فأفاده هواء الليل البارد ، وهدأ من اضطرابه قليلاً . ثم قلت :

– انني اعدك انني سأكون خير صديق لماريزا ، فقد تعلمت ان احترمها ، وستنتهي الحرب سريعاً فلا تحزن ، ولكنني اقول لك شيئاً ، لا يكفي ان تحب فتاة ، يجب ان تثق بها ايضاً .

وهزّ يدي عند عتبة بيته . ثم تعانقنا ، وتمنيت له أطيب الأماني .

ثم قلت معاتباً :

– وماذا لو أن أولجا قررت ان تصاحب لهـا صديقاً في هذه الأثناء ؟ أنا مثلاً ؟ ماذا تقول في ذلك ؟

فابتسم عن ناجذيه :

– لا يهمك ، اولجا اعقل من كلينا معاً ، ستعنى بنفسها .

وسرني أن أراه يبتسم أخيراً ، وسافر من الغداة ، والتحق بوحدة تدريب للمتطوعين ، وأرسل إلى افريقيا في اوائل ابريل .

وسمعنا في هذه الأثناء أن جينو مات في السجن ، بعـد أن أضنى نفسه بالصلاة والصوم .

٢٨

كان جيورجيو قد انضم إلى فرقة مرابطـة في فيرونا ، ولم يكن من المحتمل أن تسافر فرقته فيما وراء البحار . كان يكتب لزوجته كثيراً ، وأجاب على خطاب جينو ، لكن جينو كان قد مات ، وكان يكتب لي أحياناً ، وقد تلقيت منه خطابين في ذلك الشتاء . قال انه قد اعتاد حياة الجيش ، وكان قد عثر على صديق حق ، عامل من سنـــه ومن ميلانو . وتكلم عن فيرونا ، عن ساحة ديلي إربي التي تشبه ساحة السوق عندنا،عن نهر أويج الذي يختلف جد الاختلاف عن الأرنو ، فقد كان أضيق وليس شطاه بارتفاع شاطىء نهرنا ، ونصحني بأن امعن الفكر فيما كنا نتناقش فيه عندمـا سافر ، وان اصادق « بيرتو » — على الأخص ، فقد يكون عابثاً احياناً ، ولكنه يعرف ما هو بسبيله .

وكانت اتصالاتي ببيرتو ، في الحقيقة ، قد تباعدت ، وقلّت ، بعد أن مضى جيورجيو . ولم اكن أعنى كثيراً بالخروج في الأمسيات ، فقد استغرقتني القراءة ، ولم يكن بيرتو يزور الحي إلا لمامــاً أيام الآحاد . كان قد تزوج في نوفمبر، لكنه لم يغير من حاله شيئاً . وعندما كانت ماريا تسأله عن زوجته ، كان يجيب ، بابتسامته الصريحة :

— عال ، يجب أن آتي بها يوماً ما .

لكنه بعد أن كان يودع ماريا ، ويثير لجباً ولغطاً في مداعباتـه للورنزو ، كان ينسل بحذر إلى الدور الأول تحت ، حيث ترك الباب مواربـــاً ، وأريجا بالانتظـــار .

كانت هذه العلاقة مستمرة منذ الصيف السابق .

كانت رقصات يوم الأحد قد أتاحت له الفرص لأن يصلا إلى تفاهم .

وكانت أريجا في عنفوانها ، بل جميلة ما زالت ، هذا إذا أمكن أن توصف بالجمال أية امرأة عاملة في الثلاثين ، قضت حياتها وسط رثاثة الحي وقذارته ، وكان زوجها السكير قد انهارت صحته ، وأهملهـا . ولا بد أن بيرتو لاح لها نجدة من السماء ، شعاعاً من الشمس يتعـين استخلاص كل متعته قبل أن تطبق الظلمة . وأعتقد أنـه لم يكن بينهما حب حقيقي ، في البدايـة على الأقل ، بل مجرد منحة متبادلة لشبابهما ، يتلقيانها ، كلاهمـا ، بسرور . كان بيرتو عشيقها الأول ، واستسلمت بشكل طبيعي كما تستسلم ثمرة ناضجة لليد التي تقطفها ، دون ان يهتز الغصن الذي كانت معلقة به . وكان طفلها قد مات في الربيع ، أوهنه دم أبيه الفاسد الذي لم يفلح لبنها الجيد في إصلاحه . وكانت الآن شعلة متقدة، في انتظار حب بيرتو ، تقطعه نفسها دون أدنى حس بالاثم ، فاذا عاد زوجها من الحانة ، عصبياً شاكياً ، أغدقت عليـه كل الحنو والدفء الذي كانت لتغدقه على طفلها .

وواصلت العمل حتى انبرت اصابعهـا وهي تكسو قوارير النبيذ بالقش ، فتكسب ما يقيم أودها ، وبيتهـا في حالة الفقر المألوفـة النموذجية في الحي . وكان زوجها أحياناً – وهو عامل مزايكو حاذق في زمانه – يشتغل أسبوعاً أو نحوه ، تلك أيام الرخاء والوفرة عند أريجا ، فيسعهـا عندئذ أن تعمل لنفسها بلوزة جديـدة ، أو تشتري زوجاً من الجوارب ، أو تصلح حذاءهـا أو حذاء زوجها .

كان بيرتو صبياً فتياً متدفق الدماء ، لا وهم في رأسه ولا خيالات ، راضياً بأن يحيا يومه ، وأن ينال متعته بكل اندفاق بنيتـه القوية وحيويتها . وذات يوم وجد نفسه مسوقا لأن يندفع جاريا إلى شقتي ، إذ عاد زوج أريجا على غير انتظار ، وضاق ساعتها بما بدا عليّ من ارتباك . وهتف بي :

– هيا ، قل لي محاضرة ، خليك ابن كلب ، المشكلـة انكم ، بأفكاركم القذرة ، تعقدون كل شيء ، الحياة مسألة بسيطة ، أنا أعجبك وأنت تعجبني ،

تعطيني شيئا او اعطيك مقابله ، هـــذا كل ما في الأمر ، لو كانت اريجا مثلا لزوج يحسن معاملتها ، وكانت تخدعه لمجرد المتعة ، عندئذ اكون سافلاً لو انني أفدت من هذا الوضع . لكنني في هذه الحالة بالذات لا أحرمه شيئا ، أما هي فأنا اعطيها ما تحتاج إليه ، وآخذ نصيبي أيضا . أما عن ان أريجا تأخذ نصيب زوجتي ، فالواقع أن زوجتي المسكينة عندها خلل في الماكينات ، يعني بالنسبة لنا لا جنس ولا عشق هناك . كلنا لنا مشاكلنا ، صدقني ، لكن علينا أن نفعل ما في وسعنا وألا نخدع أحداً .

– أنت مخطىء تماما ، لم اكن انوي ان ألقي موعظة ما .

– طيب ، وانا لم اكن احاول الدفاع عن نفسي ، كنت احاول ان اقول لك رأيي فيك ، وهو ليس بالرأي الحسن جداً ، فأنت تسوّد عيشتي منذ زمن ليس بالقليل . عامل يجلس بالليـــل ليقرأ شعراً ، هذا لا استطيع ان اهضمه ، انت منافق ، والله اعلم ماذا كان جيورجيو يعجبه فيك

– لهذا كنت تتجنبني .

– لا ، ليس بمجرد هذا ، الحقيقـــة أن ليس بيننا شيء مشترك ، ويعجبني كارلو اكثر منك ، فهو على الأقل عنده شجاعة أن يقول ما يعتقد .

– لكنه أكبر مني بسنة ، ولن أستدعى للجيش قبل مايو .

– صحيح ؟ ظننتك أكبر منه .

– الحقيقة يا بيرتو أنني كنت دائما معجباً بك ، وكنت أنوي أن أسألك عن السياسة ، وأن تشرح لي بضع مسائل .

– دعنا ننسى كل ذلك اذن . انت ما زلت صغيراً إلى حد ما ، هذا واضح مما تقول . خلّنا اصدقاء ، وأن نتكلم عندما تعود من الجيش .

ومضى ، وتركني غير راض عن نفسي ، أحس شيئاً من المهانة ، دون أن أدري بالضبط لماذا . كانت كلمات قد أوضحت الهوة بين الثلاثـين سنة من عمره والتسع عشرة عندي ، أحسست إحساس طفل يتعلم الأبجدية بأن يحاول نسخ

الحروف في مذكرته . وأتي بي وجهاً لوجه أمام ضميري . كان ينهشني ندم لا يستكين إلى قرار . وهناك في الضوء الكابي في غرفة الجلوس ، وقد أثلجت عظامي حتى النخاع ، و « الكوميديا الالهية » مفتوحة أمامي ، أحسست إحساس مخلوق لا جدوى منه ، خائناً بالرغم مني لشيء لم أستطع أن أحسن فهمه ، كما لو انني اقترفت في الحلم عملاً خبيثاً نسيته عند اليقظة ، بينما بقي الاحساس بالاثم. وحاولت أن أفرغ روحي من كل الأوهام التي لا طائل وراءها، وأنا وحيد مقرور . وتضرجت بالخزي عندما تذكرت خطتي للحصول على شهادة ، حتى أترك المصنع وألتحق بوظيفة حكومية . وكان في قلبي لوعة فاجعة ، كما لو كنت قد أفلت ، ولما أكد ، من خطر قاتل ، عندما فكرت في أولجا ، وحلمت بأفراح شريفة ، بالعمل ، بالأطفال ، وبالمساء بعد المساء في شوارع الحي .

وعاد أبي للبيت .

فهتفت به :

— أبي ، لقد قررت أن أصبح رجلا مسؤولاً .

— هيه ، حذار يا قزم . هذه كلمات ضخمة .

ثم توقف ، وأضاف :

— بالطبع . حان الأوان .

فكتبت لجيورجيو عن مشروعاتي الجديدة . فقد قرت عزيمتي على أن ألتقي بهما ، يوما ، جيورجيو وبيرتو كليهما ، وأنا رافع الرأس .

ونمى حبي لأولجا ، وزكا وأينع ، وأرسل جذوره ، عميقة في روحي . وكان يسعدني وأنا محني على المخرطة ، أن أفكر فيها وهي منهمكة في شغلها ، في يدها الشكولاته والورق المفضض . وكانت تزيد جمالاً يوما بعد يوم ، تونع وترف كزهرة . وفي ظلمة الشارع كانت يدها تتلمس يدي ، وتنسل إلى صوتها رعشة عندما أناديها بكلمات الاعزاز .

كان الشتاء يقترب من نهايته . وكنا في مارس عندمـــا تبادلنا أول قبلة يتبادلها حبيبان .

ولما كان أريجو ولوسيانا سيتزوجان في مايو ، فقد كانا يأمـــلان في أن يقيما بيتهما في شقة أولجا ، فيأخذا غرفة كارلو والسرير الذي كان سرير أمه . وكانت أولجا متحمسة للفكرة ، وأريجو يدفع الآن نصيبه من الإيجار ، وانتقلت أمه إلى الشقة لكي تؤنس أولجا بالليـل . ولم تكن أولجا وأنا بمستطيعين أن نحتفظ لأنفسنا بسرنا . وجاءت ماريا تعنّفني ، كأخت كبيرة ، وهي تهز أصبعها في وجهي وتحذرني ، باخلاص صادر من القلب ، كم يكون من الخطأ ألا تكون نواياي مع أولجا شريفــة كل الشرف . ومنذ تلك اللحظة لم تفلتنــا ماريا من رقابتها لحظة ، وساعدتها أمها بأن أخذت تتحدث مع أولجا كل ليلة . لكننا لم يزعجنا كل ذلك الاهتمام . كنا نختلس القبلات خفية ، ويسعدنا جداً أن نتسلل للسينما وحدنا .

وفي أواخر مارس ، في تلك الأيام الرائعة ، كانت أزهار الجيرانيوم تتفتق ثانية على قواعد الشبابيك، والأرنو ينساب مرة أخرى مخضوضراً على أثر أمطار الربيع ، وأشجار الدلب على الفيالي تكتسي أوراقاً جديدة ، ويتجمع الناس ثانية حول الحاوي وكلابه في ساحـة بيكاريا . وكانت نسخق من « الكوميديا الالهية » قد دسستها في درج وكنت أتحدث مع أبي طويلاً وأعتبره صديقاً ، كما كان يحدث أيام صباي . وقالت جدتي انني كلما كبرت شابهت أمي . كنت أريد الأيام والشهور أن تمضي سراعـاً ، حتى أخلص من السنـة والنصف من الخدمة العسكرية ، وأتزوج أولجا ، وأضع الخاتم على سعادتي .

أيام لا تنسى ، من فـبراير إلى ابريل ، استطيع ان اصفهـا يوما بيوم ، استعيد ساعاتها ودقائقهـا ، مشاهدها واجواءهـا ، البيوت والجدران التي كان حبنا يدور داخلهـا . بل ما تبادلناه من كلمات عاصفة ، عندمـا كنت ادير الحديث ، عمداً او عن اهمال ، إلى موضوع ام اولجا ، وفي صوتي إيماءة إنكار .

عندئذ كانت أولجا تركب رأسها في الدفاع عن قضيتهـا الخاسرة . وتخيم على وجهها فجأة سحابة ، وتظلم عيناها الحلوتان ، وينطبق فكاهـا في خط حازم صارم حتى ليتصور المرء أسنانها مطبقة ترد سيلاً دافقـا من الغضب . وعندما سمعت أمها منها عن خطوبتنا ، كتبت لهـا انها لا توافق ، وانهـا كانت تأمل لبنتها شيئاً أكثر من عامل من عمال الحي ، وانها تأمل أن تعقل اولجا وتفكر .

وأعطتني أولجا الخطاب ، بابتسامة توشك أن تكون راضية . فقرأته على ضوء مصباح الشارع . ولم أحتمل فانفجرت :

– بأي حق تتكلم امك بهذا الشكل ؟

– بحق كل ام .

– نعم ، لكن ليس هي بالذات !.

– كفى يا فاليريو !

وضمت قبضتيها كطفل متشنج :

– انها امي . هذا كل شيء . انها امي .

– لكنها مخطئة هذه المرة . نحن متحابان ، ومعنى ذلك انها مخطئة .

– اعرف . سأكتب لها بذلك . وسوف ترضى في النهاية . سترى .

وخبا غضبها ، وحاولت الآن ان تسترضيني بابتسامـة ، كنا على عتبة بيتها ، فأخذت يدي ورفعتها ، وقد اتجهت بالكفين إلى الخارج ، كما يحدث في الصلاة ، ثم اخذت تربت بكفيها على كفي ، وهي حركة صغيرة تأتيها لتعبر عن سعادتها .

– هيا ، ارني ابتسامة يا فاليريو . من اجلي .

فوضعت ذراعي حول خصرها وجذبتها قريبـة إلي . ووقفنا على السلالم وقبلنا احدنا الآخر .

وقلت لها :

– انت تعرفين ، كل ما تقولين نافـذ . سوف انتهي بأن ادللك تماماً . ولكنني احب ان يكون لي حساب أيضاً ، إلى جانب أمك .

– ولكن يا فاليريو صدقني ، انت لك حساب كبير .

واستكنّت في حضني . وللمرة الأولى كان فمها يبحث عن فمي .

وهمست لها :

– انت حبي الصادق الحق ، انت ..

٢٩

في تلك الليلة نمت تحت البطانيـة ، والمعطف الذي رميت به على السرير . كانت العربات الأخيرة قد رجعت للاصطبل . وسقط صمت الليل على الحي ، لا تقطعه إلاّ خشخشة الرياح في خصاص الشبابيك ، ومواء القطط ، فتذكر المرء بوجود الشارع ، هناك في الخارج . وكان وقع خطى رواد الليل ، أو الراجعين من شارع روزا يتكلمون بصوت مرتفع ، ترن أصداؤه في العالم الذي أوى إلى الراحة .

ونمت ، ولعلني تقلبت في نومي عندما كانت عربة تمر فتقطع صمت الليل ، وتبعث بالقطط تتواثب حوالي الثالثة صباحاً .

واستدارت العربة في شارع ديل أولينو ، ووقفت أمـام بيت حبيبتي . وخرجت منها امرأة وأمرت الحوذي أن ينتظر ، مهما طال غيابها . وطلعت السلالم المعتمة المألوفة ، ودقت على البـاب ، وهمست مراراً : أنا ، أنا أمك . نهضت أولجا من نومها ، كما لو كانت ما تزال حالمـة ، ووجدت نفسها بين ذراعي أمها .

– ماما .. أنت حقاً ؟ يا لها من مفاجأة مدهشة !

ونهضت أم ماريا أيضاً ، وجاءت للغرفة ، ملفوفة في شالها ، وقالت :

– أهلاً وسهلاً يا الفيرا . كنت أسكن هنا من أجل –

– نعم ، أنا عارفة . كتبت لي أولجا . وأنا أشكرك يا جوليـــا ، لأنك راعيت طفلتي .

جلست على سرير بنتها ، وهي تسوي معطفها المصنوع من الفراء ، وركعت أولجا إلى جانب السرير ، وأخذت أمها رأسها في حجرهـــا ، وهي تربت على شعرها .

وقالت جوليا :

– سأرجع البيت اذن ، وتنامين في سريرك .

– لا يا جوليا ، لا داعي . سنمشي فوراً .

فسألت أولجا ، وهي ترفع رأسها :

– وأنا أيضاً يا ماما ؟

وقد صمتت تماماً ، وهبت واقفة ، مندهشة .

– طبعاً . لهذا جئت .

وأتت أولجا بحركة قلق وضيق ، وضمت يديها معاً . وتوسلت إلى أمها :

– فلنبق حتى الغد إذن . لا تريدين بالتأكيد أن نمشي فوراً الآ ن ؟ لا شك انك متعبة جداً .

– أبداً سنأخذ قطار الساعـة الخامسة . وقد أحضرت هذه الحقيبـة الفارغة لتضعي فيها الأشياء الضرورية فقط . وسنرتاح عندما نصل للبيت .

– ولكن يا ماما ...

– لا تعاندي الآ ن . اسمعي الكلام .

وحبيبتي أغراها وأثارها طرافة الأمر ، وأمهـا هناك أمام عينيهـا تبتعث ولاءهـا ، وتعيد ارتباطها بها . ولعلها قالت لنفسها : « رحلة بالقطار ، مدينة جديدة ، مع ماما .. » كم كان طريفاً ذلك كله ومثيراً .

وذهبت أولجا ، كما لو كانت تحلم ، تعد الحقيبة ، وبقيت المرأتان وحدهما في غرفة الجلوس .

وسألت الفيرا :

– وكيف الحال يا جوليا هذه الأيام ؟

– لا بأس . ماريا رزقت ولداً . ويتزوج أريجو أيضاً .

كانت أصواتهما تعكس سنوات من العذاب ، يوماً بعد يوم في شوارع وساحات سانتا كروتشي : حياتان ، كل منهما تعطي إجابة مختلفة عن مشاكل القدر . امرأة شابت قبل الأوان ، والتسليم الوهنان في صوتها لا يكذبه إلا حيوية نظرتها وذكاؤها . والأخرى شعرها أشقر بالأوكسجين ، ووجهها المصبوغ يحكي عن أشواق مريرة ، وفي حركاتها حيوية مصنوعة لا تخفي ارهاقاً يائساً قد فرغ من كل أمل . في يوم من الأيام انفتح امام كليهما نفس السبيل ، طريق صخرية تحت سماء مخيّمة غائمة ، وسارت فيه المرأتان ، والشباب في قلبيهما ، والأطفال يتعلقون بأذيالهما ، وعيون الرجال عليهما . وها هما قد التقتا الآن ، بعد أن استنفذهما الجهد والرهق ، كلتاهما قد انهكتها الرحلة بعيداً عن الأخرى ، كلتاهما يملؤها الحرج والعطف بإزاء الأخرى .

– قولي يا ألفيرا ، تظنين أنها فكرة حسنة ، أن تبعدي بأولجا عن هنا ؟

– لحمايتها يا جوليا . سأبعد بها عن هذه الجيرة البائسة . لن تبقى معي . سأرسلها إلى مدرسة داخلية لتتلقى تربية حقيقية . أحب أن تتاح لها الفرصة في الحياة ، قبل أن يفوت الأوان .

– ثم ؟

– سأنبذ الحياة القديمة ، وأولجا لا تعرف أنني قد تركت هذا . وعندي الآن رجل طيب يشغل مركزاً محترماً وهو جد متعلق بي .

– يسرني أن أسمع هذا . لكن احترسي ، فبعد أن تمضي الفرحة الأولى قد ينتاب أولجا شعور قاس بخيبة الأمل . فهنا عاشت ونشأت ، وكان لها

أصدقاء . وعليك أن تراقبي ما إذا كان الحنين إلى الحي لن يغلبها على أمرها ، مهما كان فقرنا . ولعلك تظنين ذلك كله خرقاً وحماقة ، ولكني أعرف ما أنا قائلة . فهي قد خطبت لنفسها ، وقد تحادثنا كثيراً في الأيام الأخيرة . وقد بلغت الآن أن أعرف البنت حقاً ، أعرفها خيراً من معرفتك أنت لها .

– ما زالت صغيرة . وسيأتي يوم تنسى فيه أن هذا الحي موجود أو وجد اطلاقاً .

– فلتأمل ذلك ، فمن الحق أنها الآن تعبد الأرض التي تسيرين عليها ، كما لو كانت ما تزال تنتظر الحب الذي لم تمنحيه إياها في طفولتها . أرجو ألا تضيقي بقولي هذا . فهي تفكر فيك كما كانت ماريا تفكر فيّ ، عندما كانت في العاشرة . وشيء آخر ، أولجا تغدو امرأة الآن ، امرأة ككل النساء . وهي تهوى فاليريو ، حباً شريفاً لا يخفيان منه شيئاً . ولا شك أنها تحبه كثيراً .

– سوف يسهل عليها أن تنساه .

– ربما . وربما نسيتنا ونسيت الحي كله ، لأنها صغيرة جداً ، وهي عندما تعقد عزمها لا تنثني ، ولو كان ذلك من قبيل العناد وركوب الرأس . ولكنها .. ولكنها مخلوق صغير كثير التفكير ، ولعلها بعد السورة الأولى ، عندما تدرك أنها لم تفعل شيئاً تستحق به هذه الحياة الجديدة التي تعطينها ، عندئذ قد تحبط آمالها حتى أنها لتشقى فعلاً . لا يداخلك الظن أنني أدفع بأنفي فيما لا شأن لي به يا ألفيرا ، عندما أقول لك شيئاً ، فأنا أم تتحدث إلى أم . لكن أولجا لم تعرف أبداً الحقيقة عن طريقة حياتك . أتفهمينني ؟

كانت ألفيرا قد عادت تسوي معطفها المصنوع من الفراء . كانت تعلم مدى عقم الدفاع عن نفسها أمام قاص يعرف قصتها . بل كان الأبلغ امتهاناً أن كلمات جوليا لم يكن من الممكن أن تعد إهانات ، بل حكماً أخلاقياً لا حق لها في الطعن فيه .

قالت ألفيرا وهي تعض شفتيها :

– كل ما أعرف أنني أعمل لصالحها هي . والبيت الذي آخذهـا إليه ، بالفعل ، بيت محترم .

وهتفت أولجا من الغرفة الداخلية ، فقطعت حديث أمها :

– هل أبقى معك طويلاً ؟

وترامقت المرأتان بالنظرة الخاطفة . ولاح كأنما عينـا ألفيرا تتضرعان لصديقتها القديمة ألا تفضح الخدعة . فقالت جوليا :

– أنت لا تريدين الرجوع على الفور ، أليس كذلك ؟ ما رأيك في شهر أو نحو ذلك ؟

وعادت أولجا ، وقد أصلحت من شأنها وبدت عليها البهجـة ، ترتدي معطفها . واستدارت إلى أمها تتوسل ، متخاذلة :

– ألا نستطيع تأجيل ذلك إلى الغد ، حقاً ؟

وتضرجت وأضافت :

– حتى أودع فاليريو :

– ستودعه جوليا عنك . ثم تستطيعين أن تكتبي له .

ومرت العربة التي مضت بحبي ، تحت نافذتي مرة أخرى . ولعـل صوتها أقض مضجعي .

٣٠

لم تقل لي جوليا ، في أول الامر ، الا جانبا من الحق ، شفقة على ، لكنها عندما أكملت قصة تلك الليلة القاسية في بيت أولجا ، عرفت أنني فقدت حبيبتي الى الابد . كانت تتكلم بأخلاص أم ، تحدوها لهفة ان تعزيني ، وخشية من أن تحيى فيّ آمالا كذبا . وكل كلمة ترسل في داخلي طعنة باردة .

وفي الليل نمت ممددا على سريري ، عيناي مثبتتان بشقوق السقف ، وأنا أهمس :

ــ أولجا ، حبيبتي .

وأكررها دون أن أكف ، وأنا أنتفض عند سماع كل خطوة على السلالم ، وكل عربة تقف بالخارج ، كل كلمة ، وكل صوت . وظللت أقول لنفسي أنه إذا كانت أولجا قد ذهبت دون كلمة على هذا النحو ، عندما طلبت منها أمها ذلك ، وأخذتها ، فانها لن تعود أبداً . ورحت أحاول أن أخنق الألم في قلبي .

ومرت الأيام ، لعلها كانت شهراً ، ضائعة في ضباب مغبر لا تعقّل فيه . حتى جاء اليوم الذي كان بمقدوري أن أقول فيه : « هذا ما حدث » بل كان بوسعي أن أدخل مرة أخرى في مناقشات قاعة الطعام في الشغل ، وأن ألعب لعبة ورق ، أو أذهب مع أريجو إلى مباراة كرة القدم .

ولكنني في فراشي بالليل ، في غرفتي التي يضيئها القمر ، كنت وحدي مع عذابي . كنت أهمس : أولجا ، حبيبتي . والدموع السخنة تنهلّ على خدي .

– لماذا يا حبيبتي ؟

فأمد يدي كما لأمس شعرهـا الذهبي ، والنمش الصغير الذي كنت قد عددته واحدة، واحدة ، وعيناها مغمضتان، حتى أمر عليهما بأصبعي خفيفا، والعلامة الصغيرة حيث كان في طرفي أذنيها ثقب للقرط .

– لماذا ؟لماذا ؟

وفيما وراءنافذتي يمتدالحي ، غارقا في الصمت الليلي ، وأصداء وقع الاقدام على أحجار الشارع ، وأصوات ، وغرغرة المياه في المجاري ، وشخص يغني بعيداً أغنية في الليل .

وفي إحدى الليالي سمعت أغنية تقول :

يا زهرة الزهور كلها
الآن قد مضيت عني
وقلبي الآن ينكسر

فصرخت من الألم .

وهتف أبي من الغرفة المجاورة :

– فاليريو ..!

ولما لم أجب أضاء النور وجاء إلى غرفة الجلوس ، ووضع يده على كتفي . كان يفشو في داخلي حس بالاشفاق على نفسي ، وتوق للموت . ومددت ذراعي إلى أبي ، وتعلقت به ، وأنا أبكي .

وقال بصوت خشن عطوف وهو يحاول أن يعزيني :

– يا ولدي ، رويدك الآن . اذا أيقظت جدتك ما خلصنا الليلة . خذ ، خذ اشرب سيجارة .

وأخرج منديلا من جيب عفريتتي ، وجفف عيني . ثم أشعل لي سيجارة .

وجلس على حافة سريري ، بملابسه الداخلية . كان شعره الخفيف مهوشاً ، وملامحه ثقيلة بالنوم ما تزال . وحواليه رائحة خفيفة من نبيذ . وفي فيض من الحنو احتضنته مرة أخرى ، ولم أعد أبكي . كم كنت أحبه !

وهمست ، مبتسماً الآ ن ، وذقني على كتفه :

– أبي ..

– لا خير في أن تطوي نفسك بهـــذا الشكل يا ولدي . عليك أن تخلص نفسك من هذا . تكلم عن هذا الأمر مع شخص مـــا ، وسوف تتغلب عليه بأسرع مما تظن ، صدّقني . لماذا لا تحاول مع أريجو أو أحد أصحابك ؟

– وماذا عنك ؟

– لا بأس ، معي ، إذا طاب لك .

ونهض ، كان حافي القدمين .

– لحظةً حتى ألبس حذائي وبنطلوني .

وعندما عاد قال :

– اطفيء النور ، ولنذهب إلى النافـــذة ، فلو استيقظت جدتك ، كانت ليلتنا ليلاء .

أحسست بالامتنان لهواء الليل البارد عند النافذة المفتوحة . ونفضت رأسي كأنما لأفسح له السبيل أن يتغلغل فيه . وجاءت أبي نوبة من السعال ، وبصق في الشارع ، وبقينا صامتين . كنا في مارس ، والقمر تلفـّه سحابات عظيمة ، تتوعد بالعاصفة القادمة . وامتد تحتنا شارع ديل أوليفو ، زقاق ضيق ، بالرغم من اسمه ، محشور بين صفين من البيوت ، تضيئه أربعة فوانيس تبرز من الحيطان ، ويعكف فوقها صمت الليل .

وسألني أبي :

– كانت الحكاية مؤلمة إذن ؟

كان يدعوني لأن أفضي إليه بسري ، بطريقته الحرجة المرتبكة .

– بالتأكيد ، حتى ان أي امرأة أخرى لن تعني شيئاً لي أبداً .

ـ أعتقد إنك محق ، لكنها لا يمكن ْن تكون أحست بنفس إحساسك ، فقد تركتك بهذا الشكل .

ـ انها ، ما زالت طفلة . أتذكر شكل عينيها ؟ رماديتان لامعتان..مثل–

ـ مثل ..؟

ـ مثل .. لا أعرف كيف أصفها .

ـ حسناً ، استمر .

ـ يمكنك أن تنفذ إلى رؤية ما في داخلهـا ، إذ تنظر إلى عينيها . إنها ما زالت طفلة ، ولذلك جاءت أمها بالطبع في المحل الأول .

ـ بالتأكيد ، ثم ؟

كنا نتكلم همساً ، ومع ذلك كانت كلماتنا ترن أصداؤها في الليل الساكت الهادىء ، فوق البيوت التي ينام فيها الرجال . كان لديَّ ألف ألف شيء أقوله لأبي عني وعن أولجا . وكنت أتفجر شوقاً لأقول له ، لكني لم أستطع أن أجد الكلمات الصحيحة وجاءت الكلمات كلها في خطأ ، بطريقة ما . كنت أرجع ذلك إلى اضطرارنا للكلام همساً بهذا الشكل ، كما لو كنا نخاف شيئاً .

واقترب مني أبي ، ووضع ذراعه على كتفي :

ـ قل لي يا ولدي ، ماذا كان شعورك نحو أولجا ، نفس شعورك نحو ماريزا؟

فتضرجت ، وقد آلمني هذا :

ـ أبداً ، أبداً .

ـ ماذا كنت تحب فيها إذن ؟

ـ شد ما كانت حلوة يا أبي . وعندما كنت معهـا ، كان ذلك كما لو أنني مع ... مع شيء يفوق الطبيعة ، وما أن أتركها حتى تعذبني رغبتي في العودة إليها . وشعوري نحوها الآن لا يخف ولا يهدأ ، بل يزداد سوءاً وتعذيباً في كل لحظة ، حتى ليدفعني نحو الجنون . وهو ليس بهذا السوء أثناء النهار ، في النور ، حينما يكون هناك شغل أو ناس ، ومع ذلك فصورتهـا دائماً أمام عيني ، مهما كنت أشتغل ومهـما كنت أتكلم مع الناس ، لكني أستطيع أن أتحكم في

نفسي عندئذ . ولكن بالليل ..! أو عندما أكون وحدي ، أرى وجهها دائماً أمام عيني ، كما أراه الآن ، في كل لحظة . والأمر يزداد سوءاً وتعذيباً في كل لحظة ..

وتدفق كل شيء . وما أن فرغت منه حتى كان يرن في أذني رنين الشيء الزائف ، لم يكن ما قلته الآن صحيحاً ، أو لم يكن على الأقل ، صحيحاً كل الصحة . ولست أدري ما السبب ، فلعله ذراع أبي حول كتفي ، وما تبعثه فيّ من حس دفيء بالزمالة ، لعله سحر الليل والسكون ، ولعله شيء يقع خارج وعيي ، حافز خفي من ضميري . وأياً كان الأمر فقد أدركت أنني أكذب . وما أن قلت الكلمات الأخيرة حتى خامرني فجأة حس بالقلق ، وأقصرت .

وأبي هو الذي وضع يدي على موضع الصعوبة . كانت ذراعه على كتفي ، وذراعه الأخرى على قاعدة الشباك ، وفسر لي أبي الأمر ، وهو العامل العادي البسيط :

– بالتأكيد . انت كنت تحب أولجا ، ومنذ أن مضت وأنت تقاسي عذاب الجحيم . ولكن العذاب الذي قاسيته ، لوحدك ، في ركن منزو ، هو الشيء الذي كنت تحتاج إليه بالضبط . فأنت كنت قد أصبحت مغروراً ، بادىء الأمر ، أليس كذلك ؟ ما ان لبست البنطلون الطويل حتى وجدت لنفسك فتاة عطوفة محبة أعطتك ما تريد . وأنت ، ماذا تفعل ! دست على مشاعرها ، كما لو كانت عاهراً أو عجوزاً من شارع روزا . أنت اشتغلت في المصنع بشكل لا بأس به ، لأنك قادر على ذلك ، ولكن الشيء الذي كان يهمك حقاً هو أن تصل إلى آخر الأسبوع وتأخذ الظرف وتقبض . ونفسك كبرت جداً ، الله أعلم لمَ ؟ والحقيقة أن كل شيء كان يمضي على خير ما يكون . ثم تحب أولجا . وكنت مخلصاً هذه المرة ، أنا واثق . لكنك كنت تتصرف بنفس الغرور ، لم تكن تستطيع أن تدرك الفرق بين الشيئين . وربما كان ذلك هو الذي لم يمكنك أن تجعلها تقف إلى جانبك وتتمسك بك . وأنت الآن أحرقت

أصابعك وانتهيت إلى البكاء كالأطفال بين ذراعي أبيك . ولم تخلص بعد ، وإن كان الأرجح انك قد مررت بأشق جانب .

وأشار لي لأعطيه عقب سيجارتي ، واستطرد :

ــ وقد كان ذلك كله خيراً إذ جعلك تواجه نفسك على حقيقتك . وعليك الآن أن تتعلم بأشق طريق . لن ترى أولجا بعد الآن أبداً ، وأنت تعرف . وستجد ، إن آجلا أو عاجلا ، فتاة أخرى ، ولعلك لن تجن بها كما جننت بأولجا ، ولكنه سيكون شيئاً أعمق وأبقى . وستبقى أولجا دائماً تذكرك بخطئك ، ذكرى حلوة ، وان كانت حزينة ، لكن المهم أنها علمتك أن تفكر في الأشياء بجد . ولعل شغلك الآن سوف يهمك فعلا . وعندما يحدث ذلك ستصبح رجلا بالفعل . أنا عارف ، من أنا حتى أعظك؟ كان لي نصيبي من المشاكل في زماني ، وماذا تعلمت ؟ لم أتعلم الكثير ، لأنني كنت دائماً أدع الأمور تجري على أعنتها ، ولم يكن عندي ذكاؤك ، لو كنت تدري! ولم تعد لديّ الآن طاقة للقتال ، هذا إلى غرامي بالشراب . ولكن أنت .. أنت ما تزال في عنفوانك .

صاح ديك من على سطح بيت قريب ، وصهلت الخيول في الاصطبل تحت . وكانت هناك حركة في الشقة العلوية ــ لا شك أنه أريجو يستعد للذهاب للفرن. وكانت سحب العاصفة الثقيلة تتشتت ببطء ، ويطل القمر من بينها .

ــ الدنيا بردت يا بني ، فلندخل ، ونذهب لننام . فكر في الأمر ، ونتكلم غداً مرة أخرى ، هذا إذا لم تكن تظن انني حشوت دماغك بكلام فارغ .

وخطا إلى الداخل ، وأوصد النافذة . وجلست على سريري .

ــ شكراً يا أبي ، ليلة سعيدة .

ومددت يدي بحس غريزي ، وأخذت يده .

وصاح الديك مرة أخرى .

٣١

تأجلت دعوتنا للتجنيد حتى منتصف ابريل. وعندما بلغت عن نفسي عينت في فرقة مرابطة في أريزو . وقـُذف بي على الفور ، في حياة الجندين. روتـين يحيلهـم كالحيوانات ، من التدريب على المشي والتمرينات ، وتـدريب المشي والتمرينات ، والمر والعلقم .. ومع ذلك فلم يكن جسدي الفتي أبداً أكثر صحة واقبالاً على الحياة . ثم أقبل مايو ، وانتهت الحرب ، وفي أغسطس حصلت على اجازة ، ولكني بدلاً من الذهاب للبلد انتهزت الفرصة لزيارة رومـا ، بالنقود التي أرسلها لي أبي . وفي هذه الأثناء اطردت حكايتنا في سانتا كروتشي ، من خـلال الخطابات التي كانت تغدو وتروح ، تحكي الأفراح والأحزان ، تحكي قصص الموت والميلاد في الحي . بل كتبت لي أولجا مرتين . وخصصت ساعات فراغي للكتب التي كان ضابطي يعيرها لي ، كان ابن حلال . ومضت سنتان ، سنتان قاسيتان موحشتان انصهرت فيهما روحي . وسمعت في الخطـابات التي كنت أتلقاها أصداء حياة كنت أعرف انها حياتي ، مهما لاحت بعيدة .

وهاك بعض هذه الخطابات ، مرتبة حسب تاريخها .

من أولجا :

« وأنت لا شك تظن بي أسوأ الظنون ، ولست أستطيع أن ألومك. كنت أحبك يا فاليريو وما زلت أحبك . ولكني لو أطعت نداءات قلبي التي تدعوني للعودة إليك لماتت أمي كمداً . وأنا الآن أعرف أنني أطيق العباد عنك ، ولا أطيق ما قد أحمّل أمي من ألم . ذلك يبرهن أن حبي لك ليس على قدر كبير

العمق ، وأنني غير جديرة بحبك . فأرجوك أن تنساني . سوف يشق عليك ذلك ولكنني أقولها لصالحك . لم أكن قد كتبت اليك لأنني أردت أن أتحقق النظر في أعماق قلبي . سوف ألتحق في الاسبوع القادم بالمدرسة الداخلية ... أرجوك لا تظنّ بي الظنون » .

من جيورجيو :

« هأنت ترى أنني أسلمتك الدور. فقد استطعت أن أحصل على تسريحي من الجيش مبكراً ، بفضل أن لي زوجة وطفلاً ، وأماً وأخاً صغيراً عليّ أن أرعاهم – يا لها من مسئولية . وإذن فهأنا قد عدت للبيت وللشغل القديم في المخزن . وكل شيء على حاله بالضبط ، الا أن الشلة بالطبع قد تناثرت في كل مكان . لكننا سنعود معاً في يوم ما ، فنحن لسنا بمن ينسون أين يذهبون . وانما أقول لك ذلك بالأخص، لأنك أذكى الجميع، الا أنك أميل لأن تترك الظروف توجهك على سننها كيفما اتفق . وقد تزوج أريجو ولوسيانا ، كما سمعت بلا شك ، وأهدتهما أم كارلو ما كان في الغرفة من أثاث . وجماعتنا الصغيرة الوثيقة في الواقع أصبحت أوثق اتصالاً . وماتت زوجة بيرتو وهو الآن يعيش معنا . ويؤسفني أن الأمور لم تستقم بينكما ، وان كنت واثقاً أنك عند عودتك ، وبعد أن تحسنا معرفة أحدكما الآخر ، ستجري الأمور على خير ما يشتهى . والجرائد هنا لا حديث لها إلا ما يسمى بمشروع هدم عشش الحي ، أي أنهم ، باختصار، يريدون أن يرموا بنا في الشارع. ولكني لا أعتقد أن شيئاً سيحدث. ولورنزو الصغير يكبر بسرعة وهو الآن يقول : دا – دا . وذهبت أنا وبيرتو يوم الأحد الماضي في نزهة على الدراجات ، وعرجنا على المدافن لنضع أزهاراً على قبو جينو » .

من أبي :

« ... نحن جميعاً بخير ، والجدة تشكو من الحكة ، لكنها ما زالت

كالحصان . عندي أخبار سيئة لك ، وسيكتب لك جيورجيو أيضاً عنها . مات كارلو . أصيب في الأيام الأخيرة من الحرب ، وقبل أن يموت مباشرة قرر أن يتزوج ماريزا ، عن طريق التوكيل . وتم كل شيء بالتلغراف . أحزنني موته . فقد كان ولداً طيباً وكان دائماً يذكرني بأبيه المسكين . والشغل على حاله دائماً ، والآن وقد كسبوا الحرب فلنأمل ان يعطونا علاوة . ويشغل بالنا كثيراً مشروع هدم المشش هذا ، فيظهر أنهم ينوون المضي فيه ويهددون بيتنا فهو في المساحة التي تقع في حيز الهدم . لا أستطيع أن أرسل لك عشر ليرات كالمعتاد لأن الايجار مستحق » .

من جيورجيو :

« ... لم يكن أحد يستحق أن يموت في هذه الحرب ، وكارلو على الأخص. ولا يضيرني أن أخبرك انني بكيت كالأطفال عندما سمعت الخبر ، بل أظن أنك فعلت مثلي . فعلى الرغم من آرائه كان واحداً منا ، أو على الأقل شخصاً تستطيع أن تناقش معه الأمور ، مناقشة الرجال . ان قليلي الخبرة دائماً هم الذين ينحشرون فيما لا يفهمون ، ويدفعون الثمن . وماريزا في حال محزنة . ولا أعرف ما إذا كنت قد سمعت ان أخاها – الشاويش – قد قتل أيضاً ، في آمبا آرادام ... » .

من ماريزا :

« خفف خطابك من حزني كثيراً . فأنت لم تنسني في هذا الوقت العصيب ، وأنا أعرف بك بحيث أقدر كيف أنك تعني كل كلمة كتبتها حقاً. كان كارلو قد كتب لي ، قبل أيام قلائل ، أنه قد أصيب لكن الخطاب لم يصل لي إلا بعد وفاته . كان خطاباً مليئاً بالحياة والمشروعات لمستقبلنا حتى أن قلبي يوشك أن ينفجر كلما قرأته . لكن هكذا كان كل شيء مقدراً له أن ينتهي . ولعلني أدفع ثمن خطاياي ، ومعنى ذلك أنني لم أندم بالقدر الكافي إذا كان الله قد شاء

أن يعاقبني بهذه الطريقة . وفوق ذلك وفاة أخي . أمي كادت أن تجن من اليأس ، وعليّ أن أرعاها طول الوقت كأنها طفلة . إذا أمكنك أن ترى كيف تغيرت أنا ، من الداخل بالأخص ، فلن تعرفني . قبل أن يمضي كارلو قد قال لي أن أبقى على صداقتك . ومع ذلك فقد تحاميت طريقك حتى لا أدع فرصة للثرثرة ، ولكنك عندما تعود فقد نلتقي ونتحدث عنه ، إذا لم يكن في هذا ما تضيق به . فلست الآن أخاف أحداً ، وأستطيع أن أرفع رأسي أينما كنت . تركت المحل وأخذت محل أمي في المغسل العام ، فمكسبه أكبر ، والأحوال ماشية لأننا نقبض معاشين . سأكتب لأولجا اليوم وأرسل لها خطابك في نفس الوقت » .

من أولجا :

« أود أن أشكرك ، نيابة عن أمي أيضاً ، على خطاب التعزية . كان موت كارلو ضربة قاسية ، كما يمكنك أن تتصور . وأمي حزينة مضطربة حتى لتشغلني صحتها كثيراً، وعلي أن أخفي نفسي في غرفتي إذا أردت البكاء . وزوج أمي اتخذ الخطوات لارجاع الجثة إلى ايطاليا ودفنها في ميلانو . فقد يبدو أن كارلو أقرب الينا قليلا ، بهذا الشكل . وأحس انني عشت مائة عام في الأيام القليلة الماضية . ولعلني لن أذهب إلى المدرسة الداخلية في نهاية الأمر ، بل أبقى مع أمي . ولكنني لا أستطيع أن أروض نفسي على فكرة أن كارلو لن يرجع أبداً . كنا قد أعددنا له غرفة ، كل شيء منسق تماماً – تصور انه لم يرها حتى ... وعندما عرفت أمي أنه كان قد خطب ماريزا وأنه تزوجها قبل ان يموت طلبت منها أن تأتي لتعيش معنا ، لكنها رفضت .. وقد ملأني الامتنان لأنني عرفت ، من خطابك ، أنك لا تبقى على شيء ضدي ، كل ذلك يبدو الآن بعيداً كأنه ذكرى حلم من الطفولة ... » .

من أريجو :

« أنت تعلم انني غبي وبليد ولا أعرف الكتابة كثيراً . أنا أقرأ الخطابات

التي ترسلها لجيورجيو ومسرور لأنك بخير ورجعت إلى كتبك . وأنا أكتب لك بنفسي هذه المرة لأخبرك أننا رزقنا ولداً وسنسميه كارلو . لم تكن ولادة لوسيانا صعبة وهي الآن قد قامت من السرير وترضعه بنفسها . مشروع هدم العشش هذا مشروع جدّي — فقد سلمونا انذاراً بالاخلاء في فبراير . ونفس الحكاية في بيتكم ، وجدتك لا تعرف أين تذهب ... » .

من أبي :

« تحرجت الامور يا قزم ، وسيرموننا في الشارع . ولا أحد يعرف ما العمل ، فان أحداً لا يريد ان يترك الحي حيث نكسب عيشنا بطريقة ما ، وحيث نعرف بعضنا البعض جميعاً . أما العائلات التي فيها كثير من الأطفال فقد وعدوا بأن ينقلوها إلى مشروع اسكان في الريف ، ناحية ستينيانو ، فاذا لم يعجبهم شربوا من البحر . وكان من حسن حظنا أننا وجدنا مكاناً في جانب من شارع ديل انجيلو لم يدخل في مشروع الهدم — غرفة واحدة ومطبخ . وستكلفنا ثلاثين ليرة في الشهر زيادة ، وهي أصغر وأكثر رطوبة من البيت القديم ، لكنها على الأقل شيء أحسن من لا شيء . واضطر جيورجيو ان يستأجر غرفة في بورجو الليجري ، ولست أدري كيف يعيش ثلاثتهم في غرفة واحدة ، مع حماته أيضاً فوق البيعة . وسيسكن أريجو ولوسيانا في بيت أبويها ، بشارع كونكيتاري ، وهو لم يدخل في المشروع . عندي لك الآن خبر — صحيح رغم كل شيء . كان زوج آرجيا قد اصيب بنوبة في الخريف الماضي ، ونقل إلى المستشفى مصاباً بشلل دائم ، ومن ثم خرجت آرجيا وبيرتو على المكشوف وسيستأجران غرفة ، لست أعرف أين ، ولكن في الحي . لا أستطيع أن أرسل لك الا حوالة بخمس ليرات هذه المرة ، لأن المالك الجديد يريد ايجار ثلاثة أشهر مقدماً ، وليس عندي شيء ، يعني سأذهب أستلف من أي مكان . أما العلاوة .. فليس هناك رائحة أمل » .

من جيورجيو :

« ... انهم « يحسّنون » الحي ، يهدون البيوت القديمة ليضعوا مكانها بيوتاً ظريفة جديدة لن نستطيع أبداً أن ندفع ايجاراتها . ويقولون أن هذا من أولى منافع الحرب . ولكن حتى أولئك الذين كانوا يظنون انهم سيغرقون النقود غرقاً بعد الحرب أصيبوا بصدمة مريرة . بالضبط ما كنت أقول لكارلو منذ سنتين ، أتذكر ؟ وكنت تشاركه الآراء . وهم يقولون الآن أنه إذا أراد أي شخص أن يشتغل فليهاجر إلى الحبشة ، والحقيقة أن أولئك الذين ذهبوا هناك يرسلون شيئاً قليلاً من النقود ، ولكن مهما كان مكسبهم فأنت تستطيع أن تكون على يقين من انهم يضعون في جيوب الرؤساء مبالغ أكثر من ذلك بكثير ، هذا ما يحدث دائماً . نفس الحكاية بالنسبة لناس مثلنا . وهب أنك مرضت مرة ، في ذلك الجو هناك ، ففي ذلك ما يكفي أن يطرحك أرضاً . ومهما كددت واشتغلت ، بل حتى لو استطعت أن تدخر بضع آلاف من الليرات ، فلن تحيا بالضبط في رفاهية ورغد ، بينما يكوّم الرؤساء الملايين وهم يقفون يتفرجون . أؤكد لك أن من الخير البقاء في البلد ، وأن تصرف أمورك بما تحصل عليه مما لا يكاد يسد الرمق ، كما اعتدنا دائماً ، وأن نحتفظ بأنفسنا على أهبة الاستعداد حتى يأتي الوقت ... » .

من أريجو :

« عندي لك أخبار سيئة . ماتت أمي في الاسبوع الماضي بالقلب و على أثر الصدمة عندما قبض على جيورجيو بتهمة معاداة الفاشية ، كأبيه . وقبض على بيرتو في نفس الوقت ووجدوا في بيته منشورات . والمحامي يقول انها مسألة خطيرة ، انهم يكونون محظوظين جداً لو افلتوا بخمس سنين . لم أكن أعرف شيئاً على الاطلاق ، وجاء كل شيء صدمة كبيرة . وتستطيع أن تتصور حالتنا جميعاً . ذهبت آرجيا لتسكن مع ماريا و وهي فوق كل شيء حامل في الشهر

الخامس. كل شيء محزن حقاً و وأمي المسكينة ليست هنا لتمدّنا بالشجاعة والعزاء » .

من أبي :

« الجدة لا تفعل شيئاً الا أن تتكلم عن زيارتنا لك . وتذهب إلى كل الناس تحكي لهم أنك سمنت وأنك تعلمت الفرنسية ، وسانتنا كروتشي كلها لا حديث لها الا ذلك . والبيت الجديد كما قلت لك لا يزيد عن علبة كبريت، ولا أطيقه، ولذلك أبحث عن شيء أفضل ، والا ما وجدت مكاناً تنام فيه عند خروجك من الجيش ، إلا إذا كنا ننام ثلاثتنا في غرفة واحدة، ولكنك كبرت الآن ولك الحق في غرفة خاصة . وقد انتهت قضية جيورجيو وسيرسلونه إلى مكان ما في جنوب ايطاليا خمس سنين . ولنأمل ان يكون نفس المكان الذي أرسلوا اليه أباه . وتبدو الامور أسوأ أمام بيرتو لكنهم لم يعلنوا الحكم بعد . ومما يحطم القلب أن ترى ماريا ، وهي حامل في ثمانية شهور ، لكنها الآن أهدأ إذ عرفت انه مسموح لها أن تذهب مع جيورجيو. وسيبقى لورنزو الصغير هنا مع آرجيا. أما الآن يا قزم فخير لك أن تنسى شارع دي بيبي وشارع ديل أوليفو . فلم يعد لهما وجود ، ولا ناحية الا روندينى ، ولا ذلك الجانب من شارع روزا حيث كان المخزن . ولم تبق الا الارقام الزوجية من شارع بياترا بيانا ، وفي مواجهتها الارقام الفردية من شارع ديل آينولو ، وبينهما فراغ واسع تشرق فيه الشمس ويمرح العيال . ويقولون انهم سيبدأون البناء قريباً ، وقد وضعوا سوراً محل بيتنا القديم ، حيث سيقيمون المقر الفرعي الجديد للحزب » .

من ماريزا :

« لم أسمع منك منذ ثلاثة شهور ، انني التقي بأبيك بين الحين والحين ، عندما أقوم بدورتي بعربة اليد ، لاسلم الغسيل ، وهو يخبرني أنك على خير

ما يرام . لماذا لا تكتب لي كلمة صغيرة ؟ أنا بصحة جيدة وأمي كذلك ، بعد مرض طويل ، وقد عادت للمغسل العام منذ نحو شهر . غداً يكون قد مرت على موت كارلو سنة » .

ثم سرحت من الجيش .

٣٢

كنت أسير ، على غير هدى ، في الفراغ الواسع الفسيح ، حيث كانت ذات مرة ، شوارع صباي وبيوته ، حيث تخلقت آمالي وبزغت ، حيث منحتني حبيبتي ، يوماً ، شفتيها . كل ذلك اختفى ومضى . وكنت إذ أنظر حولي ، يكربني شيء غامض من أسف وندم ، كما لو كنت أنا مسئولاً ، بطريقة ما ، عن هذا الدمار .

كان مشروع الهدم قد فتح جرحاً قاسياً في قلب حيّنا . فبدأ من بوابة سان بييرو وبلغ إلى بورجو الليجري وشارع ديل انيولو ، حيث بقي جانب واحد من الشارع قائماً . وكان المشهد ، من وسط الميدان ، ينفطر له القلب . كانت البيوت القديمة تمتد في صف متكسر منهك، تحت الشمس الساطعة التي لا ترحم . وكان فقدان زملائها عبر الطريق ، وتدمير تناسقها الطبيعي قد فضح كل خزيها ورثاثتها : حيطان مشقوقة ، واعلانات مهلهلة ، ومواسير صدئة ، والغسيل الخلق البالي معلقاً من الشبابيك ، والواجهات غبراء عليها أدران القدم . أما في داخل البيوت ، فقد كان الضوء من الميدان يدخل يعشي الأبصار ، ويبرز حقارة الأثاث . وكان الناس الذين ألفوا ، سنوات طويلة ، أن يجلسوا على مائدة يأكلوا من طبق ، يرون لأول مرة أن المائدة مشققة ، وداخل الطبق مقشر مكسر ، والكرسي القس أكثر بلى مما كانوا يظنون ، والمراتب غائرة كأنها سراير معلقة . وملأتهم هذه الرؤية الجديدة بالحنق والمهانة .

وحاولت أن أستعيد صورة في ذهني لشارع بيبي وشارع ديل أوليفو ، لبيتي والشباك الذي كنت أعد منه النجوم صبياً ، وهناك في نفس البقعة التي يقوم فيها الآن سور يسمع من ورائه العمال يشتغلون في الأساس الجديد. وعندما عبرت الميدان لاحظت أن الناس ما زالوا يتبعون بالغريزة صفوف الشوارع القديمة ، بدلاً من أن يعبروا الميدان عوضاً . وكان الأطفال يلعبون في وسط الميدان ، آمنين من السيارات التي سدت عليها الطريق أكوام الانقاض . وفي الجانب البعيد عند حانة بورجو الليجري ، أقيمت أرجوحة لكنها ما زالت ونة خلف ستار من القماش في هذه الساعة الباكرة .

ولعل غيابي الطويل ، أو لعله المظهر الغريب الذي اتخذه ذلك الجانب من الحي بعد أن ’عرّي ، على الأرجح ، فتح عيني على قسمات لم أكن أتذكرها ، أو لم أرها أبداً من قبل : دكان خردوات صغير — لا بد أنه هناك طيلة الوقت ، فقد كان الطلاء حائلاً ومتساقطاً ، وحاجز من الحديد المشبك بارتفاع القامة ، يقي نافذة مسدودة بالطوب ، دون أن تقوم حاجة للوقاية . وأخيراً في طاقة فوق أحد أبواب شارع ديل انيولو صورة لقديس فرنسيسكاني ، لا يكاد يظهر تحت الاقذار المتراكمة .

هذه المفاجآت اعادت الحي إلى الحيـــاة . والاثم الذي كان يخامرني أفسح السبيل أمام شعور بالولاء الصافي ، يزداد قوة إذ يعلو النهار ليغدو حباً جديداً أعمق . كنت، في ثكنات الجنود، ألاعب فكرة أن أترك الحي وأذهب للبحث عن عمل في أحد المصانع الكبرى في شمال ايطاليا . ولكنني الآن تحققت أنني لن أكون جديراً بالحياة الا بأن أحياها ، باتضاع ، يوماً أثر يوم ، في هذا الحي، وسط الوجوه العزيزة إليّ ، والصداقات التي صمدت للمحن ، والحيطان التي ما زالت قائمة . ولعلني أيضاً أجد حباً جديداً . وتتخذ روحي إذن أهبتها للأمل .

ذلك أن الأمل ، في الحق ، كان شيئاً عميق الجذور في حينـــا ، وكانت الحيطان وأحجار الرصيف ، والوجوه و أشياء تذكرنا باستمرار أننا ينبغي يوماً أن نترك أثرنا في الناس. فلو أننا قبلنا الانتقال إلى مساكن جديدة في الضواحي ، إلى بيوت أنظف وأصح ، بيوت لا تفعل شيئاً لتخفف من فقرنا ، بل تكشفنا أمام فساد الآمال والاطماع الزائفة ، عندئذ كنا نضيع حقاً ، ونروح ضحية الخيانة . فيجب بـدلاً من ذلك أن نقف في حزم ، أن نحتمل فقرنا بكبرياء ، وأن نعلقه ، كأنه لواء ، فوق أبواب العالم ، ونقف متحدين ، متكاتفـــين ، نكوّن حلقة حول البيوت التي كان كل ركن فيها وكل شرح رمزاً للأمل ، كل وجه وكل جسم صيحة هائلة للاحتجاج . كان بحسبنا الآن أن ينسحب أهلنا ، مدافعين عن أنفسهم ، إلى داخل الحي ، وان كانوا يعزون أنفسهم أنهم انمـــا يفعلون ذلك لأسباب شخصية وعاطفية : كان بحسبنا أن نستطيع الوقوع على بيوت تؤوينا ، وان كنا نتكوم فوق بعضنا البعض بأوثق من ذي قبل ، فنحن عندئذ اكثر قربى وجواراً ، أكثر اتحاداً . ذلك كل ما كنا بحاجة اليه للابقاء لى قوتنا : أن نشدد قبضتنا على الحبل ، حتى إذا حان الوقت للهزة الأخيرة ، كنا هناك ، واعين بمصيرنا ، نشد جميعاً ، معاً .

كانت جدتي قد استقبلتني بالحضن في الليلة الفائتة .

وقالت :

– تعرف ، لو انني تركت الحي لكان ذلك كما لو كنت قد قلت لنفسي إنك لن تعود أبداً . كان كل الناس هنا يسألون عنك ، مما أشعرني انـــك لم تذهب ابداً في الحقيقة . ثم شيء آخر ، ان نظري ليس جيداً جداً . ولكنني أعرف كل الشوارع هنا عن ظهر قلب ، فلا يهمني شيء . وكنت أكثر من مرة أسير على غير هدى دون تفكير ، ولا ألاحظ الدمار الا عندما أهم بالدخول إلى دكان فلا أجد شيئاً .

وقال أبي ، وهو يلهث على المائدة بعد العشاء :

– أترى يا قزم ؟ يدّعون أولاً أنهم يحسّنون الحي ، ويهدّونه على رؤوسنا. ثم يقيمون مباني جديدة ، ويكبرون وسط المدينة . وفي نفس الوقت يبنون البيوت في ضواحي المدينة . فهي صفقة طيبة للمضاربين الذين ينالون نصيبهم من هنا وهناك . ولكن الأظرف التي نقبض فيها أجورنا لا تكبر ، أو يعطونك اليوم علاوة ، ثم يرفعون غداً سعر النبيذ . حلقة خبيثة ، لعبة قديمة من أيام نوح ، لكنهم دائماً يلعبونها ويكسبون . ماذا تنتظر ؟

فسألت :

– وإلام تظن أنهم سيصلون بها ؟

فابتسم عن ناجذيه ، وهو يهرش ذقنه الشائكة بابهام يده ، وقال :

– تحب أن أقول : حتى نقوم بالثورة ، أليس كذلك ؟

– ولم لا ؟ ألا توافق ؟

– ما دام يطيب لك ذلك فهو يطيب لي .

وهو يقرص خدي . كان مسروراً، ومندهشاً من نفسه قليلاً. وفي ابتسامته ايماءة من الهم والحدب . وقال :

– لا نكران في ذلك ، جيورجيو عرف كيف يشتغل معك .

كنت في ذلك الصباح قد عدت فتعرفت إلى الحي ، فاكتشفت أشياء جديدة وسط الانقاض . جاءني صغار لم أكن أعرفهم يسألونني أن أعطيهم عقب سيجارتي ، دون لف أو دوران ، وجاء ناس في مودة ، يصافحونني ، ويقولون انهم سعدوا بعودتي ، ويدعونني إلى شرب كأس معهم . وذهبت أبحث عن ماريزا ، ولم يصادفني الحظ ، فقد ذهبت إلى الريف ، مع لوسيانا وأريجو لزيارة أم جيورجيو . بل كانت آرجيا في الخارج عندما ذهبت أراها .

فتركت المساحة المهدومة ودخلت من شارع دي مالكونتنتي إلى ساحة سانتا كروتشي . هنا كان بوسعي أن أملأ صدري بهواء الحي القديم . كانت

البيوت حول الكنيسة لم يمسها ضر ، وكان على وجوه الناس ذلك التعبير المألوف المركب ، عن القلق والرضا ، وكان الحرفيون ما زالوا يصطفون على مقاعد الشغل في مصنع الموزايكو. ومن أزيز الآلات، ومرأى صاحب ورشة النشارة، خاف باب نصف مفتوح ، استخلصت أن المنشار الذي كان يشتغل فيه كارلو قد انتقل إلى شارع ديل بينزو كيري . وكانت العربات تقف على جوانب الساحة وهناك أيضاً ايجستو محنياً نصفين ، وهو يمسح رفارف العربة . وكانت بوابة سان بييرو هناك كذلك ، وحواليها ضجة الناس الشغالين المعتادة ، ولجبهم . الا أن بار سان بيرو تغير . وعلى لوحة الباب الزجاجية حروف جديدة كبيرة من النيكل المفضض : « بار إمبيرو » .

وفي الحقيقة لم يضع كل شيء . كانوا قد ضربونا ضربة موجعة – وهناك الجرح المفتوح ملء العيان ، تحت الشمس – لكنهم لم يقضوا علينا ، وسنواصل طريقنا ، نشد أجسامنا لنقوى على الألم ، على آخر جهد الألم . وطالما كان صبية العمال يتدافعون عربة الكرشة ، وطالما ظهرت شلة جديدة من الصغار تنطلق في عبثها الجامح ، وتطل تحت ستار القماش الذي يغطي الارجوحة ، وطالما كانت العلاقات القليلة التي انتقلت إلى الضواحي ما تزال تتمهل في المساء في داخل الحي ، ما دام ذلك كله يحدث ، فان جيورجيو وأريجو وبيرتو ما زالوا أحياء، في عنفوان شبابهم ، لم يمسسهم شيء ، ولم يضع شيء من أملنا . وكان في وسعي أن أنظر حوالي ، فأرى وفي قلبي بهجة انعكاس صورتي في وجوه صديقة ، في حيطان أليفة ، في نفس أحجار الطريق .

سمعت صوتاً يناديني من وراء . ماريزا . جاءت تجري نحوي وضغطت يدي في يدها .

– أنت .. أراهن أنك هنا منذ سنتين ولم تسأل عني . الله .. أنت سمنت، أفادك الجيش .

وأنا .. كيف تراني ؟

فأجبت .

– مم .. لا بأس على الاطلاق .

– وكنت غير واثق ما إذا كنت صادقاً أو غير صادق ، فأضفت :

– تغيرت قليلا ، فيما أظن .

وكان ذلك صحيحاً .

لم يكن وجهها الآن مزوقاً، ولم يكن على شفتيها أدنى شبهة من الأحمر، وكان وجهها شاحباً ، بل تبدو عليه المعاناة ، لكن الشحوب كان يليق بها ، بل يبدو في الحقيقة أنه يزيد من جمالها . وذهبت نظرة المعابثة الماكرة القديمة من عينيها ، وجاء في محلها ضوء يشيع فيه السلام ، وايماءة من العذاب والطهارة. كان شعرها مدفوعاً به إلى الخلف ، في غير عناية ، ولكن فيه جاذبية نسوية تماماً . وكان فستانها الأسود مثبتاً إلى صدرها بمشبك على شكل غصن العليق . ودهشت من القوة والعزم الذي ينبعث عن شخصها .

وأضفت :

– تغيرت إلى الأحسن ، بالطبع .

– يسرني أن أسمع منك هذا .

ومضينا لحظة نقول الأشياء المألوفة ، ثم قالت فجأة :

– اسمع ، أنا عندي العربة . مـا قولك في أن تأتي تلف معي ؟ نستطيع أن نتكلم كما نشاء .

فقلت :

– أنا معك .

٣٣

دخلت بين ذراعي عريش العربة ، ودفعت ، ومضينا نحو حديقة النباتات. كنا في صباح من آخر الصيف ، والهواء منعش رائق . وكان باعة الفاكهة والخضر قد وضعوا على أبواب دكاكينهم سلالاً من التين ، وكان يتدلى من الخطاطيف القرع العسلي الضخم . وحملت الينا النسمات روائح شهية من أبواب الأفران ودكاكين البقالة المفتوحة ، ترافقنا طوال الطريق . وفي الحواري المسقوفة التي تخرج من السويقة ، نشقنا عبير الشمام ، واللحم المقلي .

وعندما كنت أخط طريقي من وراء العربة التي تشبه الصندوق ، وهي مغطاة بأكوام من أكياس الغسيل ، عدت فاسترجعت لهجة شبابي الأول ، واندفعت وأنا أصيح صيحة طويلة مسحوبة هائلة : يا هووووو ... ! منذراً المارة بانني قادم . بتلك الحركة ، وتلك الصيحة عبرت مرة أولى وأخيرة تلك الهوة الفارغة بين الصبي والرجل ، بين أشواقي القديمة وقوتي وتصميمي الجديد. لقد عدت مرة أخرى رجلاً من رجال الحي ، وانزلق من على كتفي عبء ما ، وضاع دون ما أسف . كنت سعيداً ، ممتلئاً بسعادة دفيئة فياضة ، كما لو كنت قد تحررت أخيراً من أغلال أبقتني في حال من الحرج وتحلل العزم . وهتفت بالتحيات للنسوة اللائي ينفضن ملاءاتهن في الشبابيك ، واحتككت بالمارة الذاهلين الغائبي الذهن ، وحاولت أن أدخل على نفسي اليقين بأنني أحس الهدوء والثقة بالنفس .

وقالت ماريزا ضاحكة ، ووجهها مشرق :

– ما زلتَ مهرجاً كما كنت .

وقد كانت لتنضم إليّ ، بعد لحظة ، في بهجتي . وقالت :

– لم أكن لأظن لحظة انك تستخلص هذا السرور من دفع عربة يد ..

– أحس أنني صبي مرة أخرى ، كما لو لم يحدث شيء أبداً ، ومـــا زلت ألبس البنطلون القصير . شبعت من الكآبة هاتين السنتين الماضيتين .

ثم أوقفت العربة . وقلت :

– اقفزي على الأكياس ، سأدفعك .

– لا يا شيخ .. !

كانت عيناها تتألقان . وكانت جهودي البريئة في ابتعاث البهجة قد بدأت تكسبها . فألححت :

– هيا ، لا تمارضيني .

ووازنت العربة وهي تتسلقها . ثم دفعتهـــا بكل قوتي ، وانطلقت أجري خبباً . كانت العجلات ، بحافاتها الحديديـــة ، تقرقـــع وتقصف على أحجار الشارع ، والناس تثب بعيداً من وجهنـــا ، وهم يسبّون ويلعنون ، وماريزا تتأرجح وتكاد تقع من على الأكياس فتتشبث بكلتا يديها :

– قف يا مجنون ، قف .. !

كانت تفيض ، ولا تكاد تتمالك نفسها ، من الضحك .

يا له من مشهد قمنا به في بورجو الليجري !

وعند ناصية شارع لورا ، صرخت ماريزا :

– دوّر عندك ، دوّر .. عندي بيت هنا .

فأخذت الناصية وأنا مندفع ، وقد مالت العربة على جنبها ، واحـــدى العجلات تعوي ، من السرعة ، وهي تحتك بالرصيف بعنف ، تكاد تكشطه . وأعطيتها يدي ، ونزلت من العربة . وسوت فستانها ، وأخـــذت كيسين ،

واختفت بها في أحد الأبواب وتكرر ذلك حق سلمت كل ما عندها من غسيل في الرقعة التي تحيط بحدائق النباتات .

وفي هذه الأثناء ، كنت أجلس على العربة ، أنفخ دخان سيجارة . كان ذهني في صفاء البلور ، يفور ويفيض ، في لهفة للتواصل. والأفكار والمشروعات التي طالما تأملتها وأمعنت فيها الفكر أخذت تحتل مكانها الصحيح فجأة ، واصحة كلها ، بسيطة . والحياة نفسها ، في انتظار أن تمتد وتنبسط ، الحياة التي كنت أجدها أحياناً عبئاً مؤلماً ، بدت لي شيئاً أنا به حسن الحظ ، شيئاً سوف أتعلم كيف أفيد منه ، وأستمتع به حتى غايته . كنت جالساً على العربة ، وعقب سيجارتي بين أصابعي ، وأنا أفكر في جيورجيو ، وأمله أن يرجع يوماً ليجدني واعياً ، « منعقد العزم » وفوقي السماء العميقة الزرقاء ، وحولي يترقرق سكون الشوارع بالقرب من حدائق النباتات حيث تغفي بيوت الطبقة الوسطى في ترفها و كسلها ، وصوت بيانو يشيع في هواء الصباح .

وشققنا طريقنا عائدين ببطء ، بالعربة الفارغة ، ماريزا وأنا . وبدا أن مرحها أضفى نضارة على وجنتيها ، ولكن التعبير على وجهها ، ومشيتها ، وكل خط في جسمها تحت فستانها الأسود ، كل ذلك ينم عن امرأة فتية مليئة بالصحة تعلمت كيف تصالح غرائزها وتقبل مصيرها .

وكانت عربات العجلة تحتك بصمت الظهر في الشوارع الارستقراطية ، فتقنع صوت البيانو . وتأبطت ذراعي عريش العريشة ، وأشعلت سيجارة أخرى ، ونفخت دخانها بشكل آلي ، لحظة ، وأنا أجمع شتات فكري ، ثم استدرت إلي ماريزا وقلت ، بطريقة تعمدت أن تكون عرضية :

— لست أدري لماذا ، لكنك تخجلينني عندما أريد أن أقول شيئاً .

— هذا معناه أنك لست صريحاً ، والا فلم تخجل ؟

كان في لهجتها شيء من الجفاف والصلابة ، كما لو كانت تقول : أقصر عن اللف والدوران . وان كان في التعبير على وجهها صداقة وشيء من سخر ضاحك

غامض ، يومىء بالغفران . وكانت طاقتا أنفها ترتعشان رعشة خفيفة ، وفمها يرتجف على حافة ابتسامته .

– لست ماريزا التي كنتها ، اسمحي لي أن أقول لك . أي شخص يراك ليظن أنك قد عرفت سر كل شيء ولا يهمك أن تناقشيه كذلك ، بهدوء من يتحدث عن الجو .

– هل تسمح بأن تردّد ذلك ؟

– أعني ، كا لو أنك .. كما لو كنت تجاوزت الشر والخير . عندما أنظر اليك أحسّ بالإثم ، بالإثم لأشياء لم أقترفها قط ...

فخفضت رأسها وهي تواصل سيرها ، وكانت يداها نصف مدفونتين في جيوب فستانها الصغيرة . وعندما أجابت كانت تتكلم بصوت بلغ من انخفاضه أنني لم أكد أسمعها :

– يسرني أنك تعتقد ذلك . لا لأنني مغرورة ، بل لأن ذلك يثبت أنك أيضاً قد تغيرت . وتغيرت إلى الأحسن ، صدّقني .

رفعت رأسها ونظرت إليّ ، ووجنتاها تتوهجان . ولتخفي ارتباكها وحرجها ، دفعت برأسها تلقي بشعرها إلى الوراء . وقالت :

– ما رأيك في استراحة ؟ عندنا كثير مما يقال ، أنا وأنت .

جلسنا جنباً إلى جنب ، على العربة المقلوبة ، بجانب الرصيف . كان شارع لورا يمتد أمامنا صامتاً مهجوراً الا من عابر يمر بين الحين والحين . وعلى الجانب الآخر من الشارع ، حيث كانت تسطع الشمس ، وقفت سيارة .

وقالت لي ماريزا أخبار أصدقائنا . ذهبت ماريا لتعيش مع حماتها في الريف ، وأخذت معها لورنزو وطفلتها التي لم أرها أبداً ، وقالت ماريزا :

– كثيراً ما أذهب لأراها . وهي تتلقى الأمر كله بهدوء شديد . ومما يسرك أن تكون في صحبتها . وقد استعادت جمالها أيضاً ، منذ ولدت طفلتها. ولوسيانا أيضاً حامل .

وكان جيورجيو أيضاً ، كما تقول خطاباته ، حسن الحال . كان يقضي وقته يقرأ ويشتغل . بدأ يتعلم ويشتغل بخصف الأحذية . لم يكن بيرتو معه ، لكن خطاباته أيضاً كانت تفيض بالبهجة .

– ولكن أريجا تلقت صدمة سيئة . فلم تعد الا جلداً على عظم ، ولا تكاد تعرفها . وهي تمضي تثرثر لكل من هبّ ودب ، مما يحفظ الناس جميعاً عليها . أما أريجو فهو الريس في الفرن الآن. وأصبح له شارب ، وما زال مجنوناً أكثر من أي وقت بكرة القدم .

ثم استدارت اليّ :

– وماذا عنك ؟ ما مشروعاتك ؟

– سأعود إلى الورشة . هذه كل مشروعاتي الآن .

– وقلبك لا يوجعك ؟

– أصبحت الآن أتحكم في قلبي ، أشكرك . هناك ما هو خير من ذلك يشغل المرء .

– تظن ذلك ؟

بصوت خفيض ، كما لو كانت تكلم نفسها . كانت تنظر أمامها مباشرة ، فكنت أرى جانب وجهها . وكانت قد ارتفقت ركبتيها ، ووضعت ذقنها بين راحتيها . وأدركت أنها مضطربة . لحظة واحدة فقط . ولولا تغير طفيف في نغمة صوتها ما لحظت شيئاً .

– أتظن كارلو كان مخطئاً ؟

جاء السؤال مباغتاً . كان في صوتها تصميم ، لا غضب فيه ، ولا ألم .

– نعم .

وسرت فيّ رعشة ، كما لو كانت الصراحة قد أضرّت بذكراه .

وبقيت ماريزا ساكتة .

– ومن ثم تظن أنه رمى بحياته هدراً ؟

لم تتغير نغمة صوتها .

– كان يعتقد أنه يفعل الشيء الصواب

هزت رأسها ببطء .

– لا تكذب عليّ يا فاليريو ، الآن ، وقد أصبحت على خلق سليم . أنت تعرف كما أعرف ، أنه لم يكن من ذلك في شيء ، كان يزعم أنه يعتقد ذلك ، يحاول أن يبتعد عن شيء آخر يخشاه . كل ذلك من خطئي أنا ، لأنني لم أفهم ، الا بعد أن فات الوقت على أن أساعده . كنت الشخص الوحيد الذي كان بوسعه أن يفعل من أجله شيئاً !

كان في صوتها عذاب ، صوت جفت عنه الدموع ، وصالح الحزن ، وانسحب .

وضعت يدي على ذراعها ، ولم يبد أنها لاحظت ذلك .

– حاولي أن تنسي كل ذلك . انني هنا الآن . ونحن صديقان .

لم يكن بوسعي أن أزيد . وأعنتها على النهوض . كانت قد شحب لونها ثانية وابتسمت .

– أما زالت أخجلك ؟

وهي تلقي برأسها قليلاً إلى جانب .

– أنت بنت طيبة ، يا ماريزا .

وتبادلنا نظرة ، في العينين . وفي تلك النظرة اشتعلت جذوات شبابنا وخبت ، وقد استنفدت كل غضب .

– إذا كنت تظن أنني قادرة على أن أساعدك بشيء ، يا فاليريو ، فلا تنس أنك تستطيع الاعتماد علي . كان كارلو ليبقى إلى جانبك دائماً ، وجيورجيو . أنا واثقة .

وسلكنا طريقنا عائدين . كنت أدفع العربة بيد واحدة . كان الظهر قد فات ، وعمال المطبعة والموزايكو في ساحة سانتا كروتشي قد جلسوا على

المقاعد ، يصطلون في الشمس. وتدفق الأولاد من المدارس في جماعات متكاثفة ، يهزون حقائبهم ، ويشهرون مساطرهم كأنها مسدسات .

وفي وسط الأنقاض كانت الأرجوحة تدور ، وأجراسهـــا تقرع في صليل مرتفع . وأقبل التلاميذ عليها يجرون . كانت ماريزا قد تأبطت ذراعي .
ومضينا صامتين ، رافعي الرأس ، في وسط قومنا وأهلنا عـــبر الشوارع العارية في سانتا كروتشي .

انتهت